

لعلنا جعت أشياء أحبك منها قصص.



قد تأتي الأشياء أولاً أو تأتي الحكاية. لكنني معظم الأوقات أختار شيئاً، قد يكون غرضاً عادياً

والأشياء التي تُنتج حولها الحكايات هي أشياء ومي حكايات في آن واحد.



أضحه بين ذراعي متملكة إياه لأستشعر الحكاية وهي تجد طريقها مباشرة إلى داخل.

نور الأشياء الخفي

مي النقيب

ترجمة: ليلي المالح

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

مكتبة
ياسمين

فتاة صغيرة، تم تغيير اسمها إلى "أمريكا" تقديرًا لدور الولايات المتحدة الأمريكية في تحرير الكويت، تكتشف أن اسمها قد أصبح مؤثرًا لتنامي شعور العداء في بلادها ضد الغرب. مراهق فلسطيني خجول ينجُرُّ إلى خطة تفجير انتحاري فاشلة رسمها زميلان له عرفا بعدوانيتهما. رجل في منتصف العمر يصاب بالسرطان يتفكّر عندما يشرف على الموت في ما أقامه من علاقات عاطفية خارج نطاق حياته الزوجية ويتذكر كم ساحتته زوجته وغفرت له غفرانًا لا يلين. سيدة كويتية تعود إلى عائلتها بعد أسْر في السجون العراقية دام عقدًا من الزمن.

تُحدِّثك عناوين الصحف عن الحرب والقلاقل وعن الصراعات الدينية، لكنك إن نظرت إلى ما هو أبعد من ذلك لأبصرت في هذه المجموعة القصصية جانبًا آخر من الحياة في الشرق الأوسط: حب المراهقين، التوق إلى استقلالية الذات، هشاشة الزواج، والألم في معظم أشكال تظهره البشري في الحياة العامة والخاصة.

تقبض قصص مي النقيب المشرقة على اللحظات المهمة في حياة الذين يعيشون في هذه المنطقة المشحونة من العالم، وتكشف عن قدرة الأشياء العادية على حفظ الذكريات الاستثنائية.

"تلك النظرة الاستثنائية التي تلقىها مي النقيب على مشهد الشرق الأوسط الجريح، تدفعك إلى الاستبشار بقدوم صوت أدبي جديد ومثير."
ذي ناشيونال

العمل الحائز على جائزة أفضل كتاب أول في مهرجان ادنبره الدولي للكتاب عام 2014.

telegram @yasmeeenbook



مي النقيب

نور الأشياء الخفي



9

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING



مي النقيب



telegram @
yasmeenbook

نور الأشياء الخفي

مجموعة قطعية

ترجمة

ليلى المالح

telegram @yasmeenbook

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING



الكاتب: مي النقيب
عنوان الكتاب: نور الأشياء الخفي
ترجمة: ليلى المالح

العنوان باللغة الأصلية: The Hidden Light of Objects
الكاتب: Mai Al-Nakib

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-808-49-0
الطبعة الأولى - أكتوبر / تشرين الأول - 2024
1000 نسخة

Originally published in English as *The Hidden Light of Objects* by
Bloomsbury Qatar Foundation Publishing
Copyright © 2014 by Mai Al-Nakib

حقوق الملكية الفكرية والنشر للمؤلف © مي النقيب 2014
حقوق الترجمة © ليلى المالح 2024

هذا العمل من وحي الخيال، وأي تشابه بين الأسماء والأماكن
والأحداث والأشخاص وبين الواقع، هو محض صدفة.

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: + 965 98 81 04 40

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: + 964 78 11 00 58 60

✉ takween.publishing@gmail.com

Facebook takweeknw

Instagram takween_publishing

Twitter TakweenPH

Website www.takweeknw.com

إلى والديّ

نزهه بودي وباسل النقيب

على العقل أن يكون عنيقًا مع ذاته، فيعكس مسار الطريقة التي يفكر بها عادة، ويراجعه باستمرار بل حتى يعيد صياغة كل مقولاته. وهو بهذا يصل إلى مفاهيم مرنة قادرة على متابعة الواقع بكل تعقيداته، وعلى تبني حركة الحياة الداخلية للأشياء ذاتها.

هنري برجسون،

مدخل إلى الميتافيزيقيا

يتوارى الماضي في مكان ما خارج نطاق الفكر وبعيدًا عن متناوله، ويختبئ في شيء مادي ما (في الإحساس الذي يمنحنا إياه ذلك الشيء المادي) الذي لا نكتنعه ولا نملك أي فكرة إزاءه. ويبقى الأمر رهن الصدفة فيما إذا كنا سنعثر على هذا الشيء أم لا قبل أن نموت.

مارسيل بروست،

البحث عن الزمن المفقود: جانب منازل سوان

الفهرس

إضاءة 1	11
تفاح صيني	13
إضاءة 2	41
صدى التوأم	43
إضاءة 3	77
مذكرات	81
إضاءة 4	107
اللهو بالمتفجرات	111
إضاءة 5	137
دب	139

159	إضاءة 6
163	طابع الفيل
191	إضاءة 7
195	قبعته القش
219	إضاءة 8
221	ملفات ثلج
249	إضاءة 9
253	صندوق أمريكا
279	إضاءة 10
283	نور الأشياء الخفي



1

برمشة عين تختفي، لكنها في حضورها تبدو فسيحة ممتدة تكاد تغطي حياة بأكملها. هي نافورة رمل أو فقاعة في صندوق حُفِظت من أي سوء تحت سطح من زجاج، حُرست كما لو أنها أودعت بين صفحات أيام عادية. هي ليلة يقام فيها واحد من عروض المدرسة: مسرحية أو حفل موسيقي أو فريق عزف أو فرقة كورال. هي زمن نمشي بل نتهادى فيه في أرجاء المدرسة ليلاً في وقت نعرف أن التجول فيه محظور علينا. هي تجربة مبكرة لإثبات ذواتنا، تجربة لا يطويها النسيان. يأتي أهلونا في إثرنا كي يشاهدوا ما أعدناه للحضور، لكنهم، عكسنا، يُخطون على استحياء بأقدام يُثقلها ترددٌ حَرَج. يحضرون من دون رغبة فعلية على الرغم من اعتدادهم المسبق بأي شيء نقدمه أو نقوم به. لم يكن هُنا الأكبر أن نعزف على آلة الكلارينيت أو السكسفون، أن نغني أو نؤدي دوراً في مسرحية. ما كان يجذبنا فعلاً هو سحر لا يقاوم يلف المدرسة ليلاً: انعكاس مثير للفقاعة على جدار أسمنتي غارق في الظلام،

زوايا مكان خفتت فيه الأصوات، زوايا لا تبين أثناء النهار لكنها تتحول ليلاً إلى مخابئ عميقة مغرية. نسير عبر البوابات قاصدين الغرفة المخصصة لنا فتخيل أننا نسمع شيئاً ما، صوتاً مبوحاً يتأوه فيفاجئنا ويدغدغ الأعماق فينا. ننظر وراءنا ونتلفت يمنة ويسرة. لا شيء. لكننا نسمع ضحكات وقهقهات مكتومة على وشك أن تتفجر فيها هو أبهى. نشعر بالهواء وهو يخفق من حولنا كما لو أودعَ في قلب تسارعت نبضاته. نشعر بشقاوة الصبا.

الظلام يلف المكان يمتاحه هواء ديسمبر بارداً منعشاً كتفاحة صينية. لا يحدث أي شيء مهم في هذه الليلة على الرغم من شحنات تلف المكان فتسري في عروقنا. تترأى لنا خيالات تلاصقت كدمى من ورق تتشابك أيديها. تعزف الفرقة الموسيقية ثم يبدأ عرض مبهر لمسرحية الأمير الضفدع أو أوكلاهوما! لكن كل ذلك يبقى مجرد موسيقى خلفية لما يدور حولنا من إغراءات تفتننا كأنها حبال معلقة تتدلى منها مصابيح من ورق أو حبات فشار تنتظر أن تمتد إليها أيدينا لتطالها وتغترف منها. لكننا لا ننهل منها كفايتنا. هي غطرسة الشباب. أنظر إلينا الآن في رقعتنا من العالم وقد مزقتنا الأيام.

في ذاك الزمان كانت هناك فسحة لشقاوة الصبا وكنا آمنين كالأحلام الهنية.



تفاح ميني

كم تبدو لك اليابان جميلة ورائعة وأنت في سن العاشرة. تراها معرضاً مفتوحاً في الهواء الطلق يزدان بحبال من مصابيح ورقية معلقة ترفرف فوق رؤوس المارة. اليابان صوت أحذية خشبية تحب في ليل متلألئ. في الخلف يتهدى والداك في مشيتهما، خنصر يشبك خنصرًا، وأختك، صغيرة كنقطة على خارطة، مستكينة في عربتها. اليابان كيمونو أزرق مخضر يزينه حزام رائع بلون الدراق. اليابان شوارع ملأى بأناس لا تفهمهم، يضحكون ويتوقفون لالتقاط أنفاسهم محتفين بأمر لا يمكن أن تكتنعه.

في اليابان كنت ما زلت أميرة أزهار الكرز ترقب عالمًا امتد واتسع. مرَّ أكثر من عقدين من الزمن على تلك الرحلة التي دامت شهرًا ونصفًا حين كان والدي يتدرب على استخدام أجهزة طبية معقدة وحين انضمتُ ووالدي وشقيقتي إلى الركب لنجد أنفسنا في قلب مكان جديد قصي عن موطننا الصحراوي الذي خلفناه وراءنا. تلك كانت رحلتي إلى اليابان: رجل عجوز وتفايح صيني،

أختي، النقطة، لا تقع، بل تكاد أن تفعل، شفرة موسى على حافة نافذة، أربعة أشخاص من الأرز في صندوق تحت غطاء زجاجي. رحلة قمنا بها، قبل حرب أنقذت بعضاً منا، وقبل أن تردد أُمي: «صغاري، صغاري، اعتنوا بصغاري». رحلة شعرنا جميعنا خلالها بمنتهى السعادة والوثام. لقد كنا زوايا مربع مكتمل.

كانت شقيقتي في الرابعة من عمرها، وكانت والدتي، صباح كل يوم، تضعها بعناية في عربتها وتسير بها على طول الشارع الذي تحف به الأشجار الجميلة بالقرب من شقتنا. يتسلل ضوء الشمس عبر أغصان الشجر ليدخل في عيني أختي النقطة فتغمضها نصف إغماضة وتروح ترقب بدهشة بقع الظلال الخضراء والذهبية وهي ترتسم وتراقص على ذراعيها. لم تكن النقطة شغوفة بالكلام في ذلك السن. كانت منشغلة البال وبدأت حزينة بعض الشيء كأنها علمت بشيء تمنّت لو لم تعرفه. لم أُعِرْ صمتها كثيراً من اهتمامي فقد كان يسعدني أن أتركّ وشأني لأنصرف إلى جمع أشياء أنسج منها حكايات أرويها لها عندما يحل الليل. في الأسبوع الأول من إقامتنا انشغلت أُمي بأمورها اليومية كمن أين تشتري الخبز والزبدة والعسل والخضار، وأين تذهب بنا إن شجّ واحدنا رأسه، كيف تسخن الماء، وكيف تتعامل مع النقود لتسدّد مشترياتها. لم أكرث لوحدي فأنا لم أجد يوماً وقتاً يكفيني أنصرف فيه إلى نفسي. وأنا، كشقيقتي النقطة، أفضل الهدوء على الصخب. هناك، وجدّتي، وقد أُحِطْتُ بأناس يتحدثون لغة لا أفهمها، سعيدة برحلة مثالية

أضيفُ فيها العديدَ من الأشياءِ إلى مجموعتي الغالية. غدوت حرة في انتقاء ما يشغلني، بعيدًا عن أطنان من كلام يشتت فكري.

لطالما جمعت أشياء أحبك منها قصصي. والأشياء التي تُنْسَجُ حولها الحكايات هي أشياء وهي حكايات في آن واحد. قد تأتي الأشياء أولًا أو تأتي الحكاية. لكنني معظم الأوقات أختار شيئًا، قد يكون غرضًا عاديًا ككرة البلية الزجاجية، مزقة من بطانية تنضح بآثار العرق، ابتسامة تلصق على دمية رأس السيد بطاطا، دب خشبي صغير، سلسال علّق به مصغر لهرم الجيزة، رداء قطني أبيض بأزهار زرقاء، أو علبة صغيرة من ورق اللعب لُفّت بورق رقيق فوشي اللون. قد أجد الغرض في غرفة ما أو تحت مقعد السيارة ونحن في طريقنا لنزهة في الصحراء، أو أجد خلف سلة المهملات الخضراء أو فوق رف منسي. لم أكن لأحتفظ بالشيء أو أمتلكه أو ألمسه فغالبًا ما يكفي أن يقع عليه بصري ولو بنظرة عابرة. في بعض الأوقات أجدني أتمرر أصابعي على الشيء أمسده مرارًا وتكرارًا كأنني أشيد شبكة خفية حوله، ثم أضمه بين ذراعي مملكة إياه لأستشعر الحكاية وهي تجد طريقها مباشرة إلى داخلي.

كانت تلك حكايتي وأنا في الثامنة من عمري عندما قررت أن أبدأ الحفر كي أصل إلى الصين. يومها قلقت بعض الشيء إذ ظننت أن جهنم تقع في مكان ما بيني وبين الصين. وبما إن الوقت كان نهارًا والحديقة تعج بأفراد بالغين راشدين، فلم أخش أن يمسنني أي أذى عظيم. كان هذا في زمن لم تستخدم فيه بعد قنابل ذكية

تستهدف رؤوس الأطفال وقبل أن يُقايَضَ النفطُ بسرطان الرئة. يومها كانت نظرة سريعة واحدة إلى ساحة اللعب المكتظة تكفي لتبديد مخاوفي الصغيرة من كائنات جهنم ونارها وأرضها الرطبة العفنة. بدأتُ الحفر فوراً مخترقةً الطبقة العليا الرخوة لأصل إلى طبقة رطبة أولاً ثم مبللة ثم صلبة كالصلصال. وما إن بدأ الخوف من الديدان يتملكني حتى تعثرت أطراف أظفري بشيء صلب، وقبل أن أعرف ما هو، رحت أزيح الرمل الرطب من حوله وأسحبه. ثم تجلى. شمعة سميكة بلون الكوبالت الأزرق ذاب جزء منها فتعرجت أطرافها. رائحة كريهة تفوح منها كرائحة خميرة بائنة رطبة. نفضت الرمل عنها ويممت وجهي نحو البيت أركض بما فزت به وألفُ الشمعة بسترقي الحمراء المتسخة. في المطبخ، غسلت الشمعة بكثير من ماء لم يفلح في تبديد الرائحة التتنة.

في الليل قصصت على النقطة، جمهوري الأسير حتى في الثانية من عمرها، حكاية الشمعة وكيف دفنها في الرمل منذ سنوات طوال صبي صيني صغير اسمه شياو يونغ كان يحلم مثلي بأن يحفر من طرف الأرض ليصل إلى طرفها الآخر ويرى ما ليس صينياً ويكتشف إن كانت الأشياء تختلف هناك وكيف تختلف. حَفَرَ أعمق بكثير مما حفرته أنا، لذلك احتاج إلى شمعة تنير طريقه في النفق المعتم. ومن حسن حظه أن أسرته كانت تعمل في صناعة الشموع ما وفر له كل ما يحتاجه. وعلى الرغم من أن جميع الألوان كانت في متناول يديه من أحمر ناري إلى أصفر بلون الصديد وأخضر بلون الطحلب إلى

وردي بلون الفرع إلى أرجواني بلون البرقوق فقد اختار الأزرق
ليعني الخلود وأيضًا لأنه كان اللون المفضل لدى أخيه الذي توفي
مؤخرًا. كان يعرف أنه قادر على مواجهة كثير من الصعاب وهو
يحمل أخاه في قلبه وشمعة أسرته في يده. أفادت الشمعة الزرقاء
شياو يونغ كثيرًا إذ بقيت تنير دربه حتى وصل إلى ما بعد مركز
الأرض وكاد يصل إلى سطح الطرف الآخر من كوكبنا. لكنه ما
إن ظن أنه حقق مأربه فعلاً حتى تسربت نفحة من الفتيل الصغير
لتلك الشمعة المقدمة شمتها مخلوقات جهنم الهلامية فابتلعت
لجة الغضب الجهنمي يونغ ولم يعد أحد يسمع به أو يراه. الشمعة
الزرقاء وحدها بقيت مدفونة في المكان الذي شوهد فيه آخر مرة.
قلبت الشمعة رأسًا على عقب لأجد ختمًا أسفلها تيقنت أنه ليس
سوى العلامة التجارية المسجلة لعائلة شياو. احتفظت بالشمعة
قرب سريري وأشعلتها على شرف شياو يونغ وأخيه احتفالًا بمرور
سنة على عثوري عليها.

نادرًا ما كنت أبدأ بالقصة أولاً. عندما يحدث هذا يكون الليل
عادة في أوله في تلك الدقائق المطاطية المخصصة للدماغ كي يتوقد
ويثب قبل أن يستكين ويهجع. وقد يحدث أيضًا على الشاطئ في
يوم يرقُ نسيْمُه وتشرق شمسُه فأشعر معه بأنني سأبقى نظرة
وشابة إلى الأبد، أو حين أركب طائرة تخترق السحب أو أحلق فوق
الغيوم الكثيفة وهي تطوي السماء فتغويني مراقبتها من عليّ. على
أي حال، لا تأتيني القصة أولاً إلا في حالات استثنائية، لكنها إن

فعلت فعندها أمضي يومًا أو اثنين أو ثلاثة أو حتى أسبوعًا برمته وأنا أبحث عن ذاك الشيء الذي تدور حوله الحكاية.

هكذا جاءني حكاية إلياس، سنوات بعد قصة اليابان والتفاح الصيني والموس، وإن كان ذلك قبل ضياع أشخاص الأرز وقبل الحرب. قصصتها على أختي في هزيع متأخر من الليل. حكيت لها عن رجل في منتصف العمر قرر أن يترك قارورة خضراء على قارعة الطريق، قارورة لطالما شرب منها. كان يمسك بتلك القارورة عندما أتوا صباح ذلك اليوم ليطلقوا النار على أبيه ويدمروا بالتالي حياته هو برمته. لخمس وثلاثين سنة تلت، كان إلياس، وبحرص شديد، يملأ القارورة بالعرق كل ليلة ليأخذ رشقات منها طوال النهار. وما إن يحين وقت رقاذه حتى تكون القارورة قد فرغت تنتظر أن تملأ من جديد. استيقظ إلياس ذات صباح ليجد قارورته فارغة. لا بد أن طيرًا ضالًّا أو هبة ريح مشاكسة وجدت طريقها عبر النافذة ليلاً وقلبت القارورة. تعطلَّ روتينه اليومي ومع ذلك فقد أخذ يرشف من القارورة الفارغة كل فينة وأخرى لأنه لم يعتد غير ذلك. فاجأته كل رشفة هواء رشفها إذ نكأت جرحًا أعاد ذكرى فقدٍ حاول أن يطرده من ذاكرته مستعينًا باليانسون المقطر. وما إن حل الليل حتى أحس إلياس بنفسه حيوانًا أكثر منه إنسانًا. تكوم في شقته فوق البلاط الأزرق والأبيض بعد أن خارت قواه. لاثنتي عشرة ساعة طوال تأوه كأنه الموت. مع كل تأوه كان يتذكر شيئًا أضاعه ولم يعد في الإمكان استعادته، ذلك أن أرض قومهم، أرض

أبيه، أرضه هو قد سلبت: زوجة ببشرة بيضاء كزهرة الماغوليا، طفل بأنامل رقيقة، بيارة برتقال، سماء زرقاء تأخذ بالألباب، حبات صنوبر في إناء، أزهار مجنونة تتسلق حائط الحديقة، صرصار ليل يغني، قوارير خضراء لماء صافٍ، وسكينة ترين بصمت حثيث. في صباح اليوم التالي كان أول شيء قام به إلياس هو ترك القارورة الفارغة على حافة الطريق. ولّى لهذا الرجل زمنٌ يسجنٌ في القوارير ما فقدَهُ فقد حان وقتٌ يتذكر فيه ولا ينسى.

أمضيت أسبوعين اثنين أبحث عن القارورة الخضراء المسجاة على حافة الطريق. ولكن كما هو دائماً حال الأشياء التي ترد في القصص، وجدتها، قارورتي، هناك تنتظرنني على أحر من الجمر.

يندر أن تُنذرَ قصةٌ واحدة لشيء واحد، فالحكايا تتعدد ولا تنتهي. وكبصمة الأصابع التي لا تشابه أخرى، لا تطابق حكايتي حكاية أي شخص آخر ولا حتى حكاية أخرى من حكاياي أنا حول الشيء ذاته. وكما قد تختلف البصمات واحدة عن الأخرى بانحناء أو التواء طفيف هنا وهناك، فالحال نفسه في الحكايا. فقد يجد الآن رجل من غزة نفس ما يمكن أن يجده رجل فار على متن سفينة اتجهت إلى نيويورك عام 1941، وقد تتماثل قصص الأشياء لسيدة من جنوب بيروت كما لسيدة من دريسدن أو لصبي من البصرة ولصبي من وارسو. تنتهي حكاية الواحد مع الآخر، تختلط بها، تتعايش معها وتساكنها، وترتبط بها في كل شيء فيما عدا واحد منها. تزخر القصص بأشياء تغدو خيوط عنكبوت تمتد عبر

المكان والزمان. وعندما تظن أن ما جرى الآن لم يحدث من قبل قط يُثبت الشيء خطأك من دون أن تدرك أنت ذلك. إن معظم قصص الناس تخفى عن الناس، ومع ذلك، وبالرغم من استحالة الأمر أو بُعد احتماله، فإن الأشياء هي وحدها القادرة على كشف الأسرار المكنونة.

قابلنا الرجل العجوز في صباح اليوم الخامس من قدومنا إلى اليابان. من دون أن ننس بينت شفة، كنت وأمي وأختي نستعد لنقوم بجولتنا اليومية. أصبحت تلك الجولة طقسًا نمارسه يبدد شعورنا بالغربة ويؤسس للمعتاد. بصمت كانت النقطة بطبيعتها الهادئة تسمح لأمي أن تلبسها ثوبًا صيفيًا جميلًا ثم تُجلّسها في عربتها إلى أن يحين موعد الذهاب. لم تكن النقطة عنيدة ولا كان من طبعها الحرد والحرن البغيض الذي يلجأ إليه الأطفال في سنّها، لكنها كانت تتشبث بشروط واحد فقط لا جدال فيه: أن تصطحب معها أينما ذهبت حقيبة صغيرة، وأن تتماشى هذه الحقيبة مع ما ترتديه من ثياب. بل كانت تختار الحقيبة أولًا من بين الحقائب الأربع أو الخمس التي اقتنتها فيما أمضته في هذه الحياة من سنوات قليلة هي عمرها الصغير ثم تطلب من والدتي ثوبًا يتناسب معها. ولم تكن الألعاب العادية لتستهويها، فأشد ما يعجبها أغراض عادية تنتقيها ثم تضعها في حقيبتها لتخرجها واحدة تلو الأخرى. كانت تلك تسليتها التي تشغلها لساعات وساعات. أحمر شفاه استغنت عنه

والدقي، حجر وجدته تحت مخدتها لا يعرف أحد كيف وصل إلى هناك، خيمة مصغرة وجدتها في بيضة الشوكولاتة كندر، علبة صغيرة من أقلام التلوين، دفتر رسائل صغير بحجم الطابع ملأته بصور لاصقة من نوع امسح وشم الرائحة، صورة لكل صفحة، مشبك شعر بشرائط زرقاء وصفراء. قلادة من نفل بأوراق أربعة حفظت بالصمغ الراتنجي، خرزة فضية، بوصلة بلاستيكية كي تجد طريقها إن ضاعت، خمسة أغطية زجاجات مختلفة لكازوزات لم يكن يسمح لها باحتسائها، ضماد إصبع مزين بصورة غرغور لإبهامها الذي كانت تمصه حتى يصبح نبيًا. لخصت تلك الأغراض وجودها وأضفت عليها شعورًا بالأمان والسعادة وهي تحملها معها أينما حلت. أرقبها وهي في عربتها تنتظر بهدوء وتمص إبهامها الأيمن، بينما تشد بيدها اليسرى على حقيبتها كجدة إيطالية في حافلة ترام، تنظر إلى العالم بعينيها السوداوين الصافيتين فأكتشف كم أحبها وكم جعلتني أدرك أن مثل هذا الحب قادر أن يُبدع كالسحر ويدمر كالنوم.

صباح اليوم الخامس اتخذنا نفس الطريق الذي كنا نسلكه في الأيام الأربعة السابقة: يسارًا عند البوابة ثم على طول الشارع المحفوف بالشجر. كان شارعًا هادئًا جدًا تتلقف أوراق الشجر فيه أي صوت فتُسكِنه وتهدهه فتشعر بأنك تسير عبر الثلج. لم يكن هناك أي أم أو طفل حولنا فنحن لم نقابل أحدًا حتى الآن ولم نتوقع أن يتغير الحال ذاك الصباح. لكننا ما إن قطعنا حوالي عشرين مترًا

حتى لحظنا، ولدهشنا، باب أحد المنازل وقد فتح على مصراعيه.
تباطأ خطونا تلقائياً وراحت ثلاثة رؤوس يدفعها الفضول تشرئب
لتختلس النظر إلى الداخل. حتى النقطة توقفت عن المص المتواصل
لإصبعها. انسلَّ رجل عجوز من وراء شجرة كأنه شبح يتراءى.
وثبت أُمي جافلة وتنفست بطريقة غريبة ذات حس طفيف.
صرختُ. أما شقيقتي فقد كانت الوحيدة التي ظلت ترقب المشهد
من دون أن يرف لها جفن. توجه العجوز رأساً نحو النقطة وراح
يربت على رأسها كما لو كانت حملاً وديعاً وهو ينادمها ويناجيها
ويدندن لها هممممممممممممممممممممم. ارتسمت ابتسامة عريضة
درداء شَدَّت وجهه الرقيق حتى كادت تمزقه.

استمر المشهد لفترة خِلْتُها ساعات طوَّالاً. في البداية بدا
الانزعاج على والدتي نفرت معه عروق يديها فأدركت على الفور
توترها وعدم ثقتها بما يتوجب عليها فعله. نادراً ما كانت أُمي
تظهر لنا قلقها لكن عروق يديها طالما فضحتنا وسهلت عليَّ قراءة
مزاجها. غير أن قلقها سرعان ما تبدد فأُمي تعشق المسنين ومن
خلاهم والديها المتوفيين. ابتسمت للعجوز مشجعة هازة رأسها
بمودة وهي تبادله المهمة المُحِبَّة. وما إن ارتوى من مناجاة النقطة
حتى أشار إلينا بأن ننتظر. كان انتظارنا هادئاً هدوء الزمن إلى أن عاد
إلينا ويده شيء مستدير لُفَّ بغلاف أرجواني اللون. أودع الشيء
برفق في يدي شقيقتي المشرعتين. ابتسمت النقطة للرجل العجوز
ابتسامة تُذكر بفرح العالم كله إن اجتمع، فرح يُتناسى معه ما في

هذا العالم من أطفال مفقودين، وآباء ميتين، ومن مرض السرطان والحروب. انحنى برشاقة وتوارى خلف الشجرة التي تجلّى بدايةً من ورائها.

جثت أمي على ركبتيها وفتحت الصرة التي أودعت في حوض النقطة. ما وجدناه كان نوعاً من فاكهة لم نعهدها من قبل، أكبر من تفاحة، فاكهة تكاد تكون بحجم ثمرة الكريب فروت، مستديرة وصفراء كأوراق كتاب منسي، وكان لها عود تفاحة عادية، فقط أقصر بقليل. عندما عدنا إلى المنزل غسلت أمي التفاحة بقلب خاشع وجففتها بفوطة مطبخ مؤطرة بلون زهري ثم بدأت تحزُّ لبَّها الأبيض النضر بسكينة حادة خزفية سوداء. تطاير رذاذ عصير التفاحة فدخل في عينيّ أمي البيتين فراحت تقهقه كفتاة صغيرة. ناولتني قطعة وأخرى لأختي ولم تنسَ نفسها بقطعة راحت تقضمها بتلذذ. كانت التفاحة هشة وحلوة المذاق مخضلة بهاء عطر سال حتى بلل ذقني. تبادلتُ والنقطة النظرات وقد ارتفعت حواجبنا عجباً وفرحاً بهذا المذاق الجديد. هزنا رؤوسنا إلى الأمام والوراء كما فعل الرجل العجوز. هممنا ودندنا وغرقنا في ضحكات عريضة غمرت مباسمنا وقهقهنا دافعين برؤوسنا إلى الوراء. كانت تلك ضحكتنا الأولى منذ أن وطئت أقدامنا أرض اليابان. واصلت أمي تقطيع التفاحة ثلاثاً ثلاثاً تناولناها ببطء قطعة تلو الأخرى إلى أن لم يتبقَّ منها شيء سوى عودها القصير وبضعة بذرات بنية.

في صباح اليوم التالي كانت البوابة مفتوحة أيضًا. وأيضًا أبطأنا السير، وثانية ظهر الرجل العجوز كمن شقَّ الهواء. همهم ودندن من جديد. ربت على رأس النقطة وخديها لفترة طويلة. رجعتُ وأمي إلى الوراء وأخذنا نرقبه. يبدو أن النقطة قد سلبت لبه فقد كانت ابتسامته الدرداء لا تُفوّت، ذلك أنها أضافت كثيرًا إلى ذلك العالم الذي ولجناه وسكنَ ذاكرتنا إلى الأبد. كما في اليوم السابق طلب منا الانتظار ليعود وفي يده شيء مستدير لف بورق أرجواني. لمسة أخيرة على رأس الصغيرة وانحناءة رشيقة وتلويح وداع. هكذا تكرر المشهد في كل يوم عمل من كل أسبوع أمضيناه في اليابان.

لا شك أن الرجل العجوز قد غادر الدنيا الآن فقد كان مسنًا حتى قبل الخمس والعشرين سنة الماضية عندما التقيناه أول مرة. لم يكن مسنًا كحال الأجداد عندما يهرمون فقد بدا هرمًا كالورق الرقيق يشابه في رفته تلك المصاييح البيضاء المتدلّية فوق الرؤوس في سوق الحي، أو كبتلة زهرة ذاوية على غصن مجنونة معرشة فقدت لونها الزهري الفاضح فغدا لا أصفر شاحبًا بل شفافًا كالأشباح وهو يتهاهى مع العدم. ما الذي رآه العجوز عندما وقع بصره على النقطة؟ بم ذكرته النقطة عندما تراءت؟ بابنة له أم أخت أم صديقة عرفها؟ وما الذي حدث لشبيهة النقطة؟ لا بد أنها غابت أو فُقدت تاركة وراءها فراغًا تمنى أن يُملأ، شعورًا أن يُستعاد، أو يُنسى. هل ذكّرته بيوم مشمس في ساحة اللعب، أو بنزهة تحت ظلال الشجر، أو بأقدام خاضت في جدول رقيق في قلب غابة؟ من كانت وأين

كانت؟ هل وجدها مختبئة في شخص أختي أم في الفاكهة التي قدمها إلينا وقد لفَّها بعناية فائقة؟

لم يتأتَ لنا أن نعرف اسم الفاكهة ونحن في اليابان. بعد شهر من عودتنا إلى موطننا في الكويت عرفنا اسمها من علي، بائع الفاكهة في حينًا، إيرانيٍّ مهزوم منكسر غادر بلاده إبان الثورة. بقي سحر رحلتنا إلى اليابان سرًّا بيننا نحن الأربعة أُودِعَ في أعماق جيوبنا، فنسيناه لسنين طوال، تُفاجئنا ذكرأه في أوقات معينة كزمن الحرب أو قبل وفاة أو في ليلة رمضانية يكتمل فيها البدر. كان علي ينادي أمي باسم «أم علي» لاعتقاده أن النقطة بشعرها القصير وخصلاتها المائلة إلى الشقرة ليست سوى ولد. بل كان طوال فترة حَمْلِ والدتي يؤكد لها فَرِحًا أنها تحمل بصبي، بل جعلها تعدّه أن تسمي المولود عليًّا الذي هو اسم ولده أيضًا. عندما وضعت أمي مولودتها لم تشأ أن تكسر قلب علي وتُعَلِّمه بخطأ نبوءته. كان علي قد ترك زوجته وابنه في إيران، لهذا كان، كعجوز اليابان، يمضي بعض الوقت مناجيًا النقطة. «كم كبرتَ يا علي، فالיום تبدو أكبر مما كنتَ عليه الأسبوع الماضي». لكن الحديث سرعان ما ينتقل إلى سَمِيَّه الآخر الذي يصر والده أن يدفع يومًا لشخص ما مبالغ طائلة من المال مقابل أن يأتي به من إيران.

كانت دكانة علي صغيرة لا تتجاوز مساحة حمام عادي لكن سقفها كان عاليًا أكثر من المعتاد فاستغل كل حيز من الجدار لنصب رفوف يعرض عليها فاكهته. فاكهة من كولومبيا ومن تشيلي، فاكهة

من لبنان ومن الهند. فاكهة من نيوزيلندا، من كل مكان فيما عدا إيران حفاظًا على «مبادئه»، حسب قوله. أشارت والدتي إلى رف كاد يلامس السقف. انزلق علي على السلم كحرباء وأنزل صندوقًا نقش عليه اسم «الصين». كشف الصندوق عن أوراق أرجوانية اللون شهقتُ والنقطة معًا لدى رؤيتها.

«هذا تفاح صيني يا أم علي. هل ذقته من قبل؟» قال ذلك وهو يخرج من الصندوق حبة فاكهة مستديرة صفراء نعرفها كل المعرفة. تساءلت أُمِّي وهي تشاركني والنقطة بهجتنا: «هل أنت متأكد أن هذه الفاكهة صينية وليست يابانية؟»

«صينية، يابانية، ما الفرق؟ هو تفاح يزرع في تلك المناطق. لا يُعرف هذا التفاح هنا ولا في إيران. ما أعرفه هو أنه يستورد من الصين، ولربما يزرع في اليابان أيضًا ويسمى بالتفاح الياباني». «سنشتري صندوقًا».

أربع تفاحات صينية لفت بعناية بورق أرجواني. تفاحات لم تكن صفراء تمامًا أو هشة كتفاح الرجل العجوز الذي قدمه إلى النقطة، ومع ذلك فقد دأبت والدتي، وكل أسبوع، إلى أن فارقت الحياة، أن تشتري لنا صندوقًا من التفاح الصيني من علي الذي لم يُحدث أبدًا أن يتمكن ابنه، وقد غدا رجلًا راشدًا، من المجيء إلى الكويت على الرغم من كل المال الذي تناقلته الأيدي.

كنا نرقب عطلة نهاية الأسبوع، ففيها يخطط والدنا لأن نقوم بمغامرة ما يعوضنا بها عن انشغاله عنا طوال النهار والليل من أسابيع العمل. يخصص العطلة «لفتياته» كما يقول قاصدًا بذلك أُمِّي وأنا والنقطة. نصرف جُلَّ الوقت في التجول في أعطاف طوكيو نزور أسواقها، ونشير إلى أطعمة غريبة مهروسة تشبه الديدان ومُقلَّ العيون فيتحدى واحدنا الآخر أن يجروا على تجربة ما يقدم إلينا من عينات سخية للتذوق. كنت أمسك بيد أختي الصغيرة ونمشي قُدُمًا تاركين والدنا يخبآن وراءنا، تحين منا التفاتة لئلا يراهما وهما يؤرجحان أيديهما المتشابكة بسعادة تمامًا كما يفعل الأطفال. في إحدى المرات اكتشفت أن تلك الأجهزة التي تزود الأطفال عادة بعلكة مستديرة تدور وتدور قبل أن تصل إلى أيديهم تستبدل بالعلكة هنا سلاسل عنق صغيرة طبع على قلاداتها صور حيوانات. وبها إنني ولدت في عام الكلب فقد لفظ الجهاز سلسلة مطلية بالميناء الأزرق تنتهي بقلادة فضية لصورة كلب. كم دهشنا لرؤية غرض ثمين كهذا يخرج بكل بساطة بدلًا من علكة رخيصة وكم عقدت المفاجأة لساني، فحتى السلسلة الزرقاء بدت خلافة إذ لم تكن خيطًا معقودًا أو محبوبًا بل سلسلة متينة وقوية تليق بالقلادة الجميلة. والأهم من هذا وذاك أنها غرض آخر يمكن أن يستدعي قصة مهمة.

ما اكتشفته أيضًا هو أن النساء في المخازن الكبرى يرتدين ثيابًا كالأميرات وينحنين في المصاعد تحية. كن ينحنين في دخولنا وفي خروجنا، أمر شعرت معه وكأنني أطير إلى السماء حين نصعد،

وأسقط على راحات الغيم حين نهبط. مرة أخذتنا واحدة من رحلات المصعد هذه إلى قسم الأطفال حيث رغب والدائي في شراء كيمونو من أجلي. سحرني ما أحاط بي من ألوان خِلْتُ نفسي معها وكأنني أودِعْتُ في حديقة يانعة: أزرق مُشَرَّب بوردي، بنفسجي لَوَّحَه صفار باهت، وأخضر خَضَبه برتقالي. أُخِذْتُ بحفيف الحرير وملمسه وافْتِنَّت حتى بالقطني من تلك الأقمشة. أذكر كم وددت أن أدفن وجهي في ثناياها أعب رائحتها وأستبقئها في أعطاف رثتي إلى الأبد. اختارت والدتي كيمونو بلون أزرق مخضر انتشرت عليه أزهار بألوان بيضاء وأخرى بلون الدراق. أطرت البائعة حسن الانتقاء وجلبت حزامًا بلون الدراق أيضًا ليتماشى معه يعرف باسم الأوبي. ولم تنسَ الحذاء الخشبي، غيتا، بلون أخضر يستكمل أناقتي اليابانية. طرت فرحًا. شعرت وللمرة الأولى بأني جميلة، كأمي. رفضت أن أنزع الكيمونو عني ووافقتني أُمي أن معي كل الحق في ذلك ولن يلومني أحد. أحسست وكأنني واحدة من السيدات اللواتي كنا نلتقيهن في المصعد. انحنيت أمام البائعة فانحنيت لي بالمثل. ولم أكن أدرك يومها أن الكيمونو سيغدو نواة قصة أروىها بما يخفي في أكمامه الفضفاضة من حكايا عن حب أُمي لي وعن شبابها وجمالها أيضًا.

لكن أهم غرض وجدته في اليابان وأضحى بذرة لقصة أخرى هو صندوق أحمر بغطاء زجاجي فيه أربعة أشخاص صُنِعوا من الأرز. وجدته في دكان قديم ملأه الغبار. كان دكانًا صغيرًا جدًا

يكاد لا يبين، يشبه غرفة فاكهة علي برفوف تعلو حتى السقف غير أن هذه فُرِشت بالمخمل الأحمر أو الأزرق أو ربما كان أخضر، وتكدست فوقها مزهريات من الفخار ولفافات من الرق وكتب من جميع الأحجام وتمائيل خزفية لخيول وكلاب وأطباق فضية وساعات قديمة. في إحدى زوايا هذا المكان الصغير المعتم الذي ينسل الضوء إليه خلصة ويتردد الغبار في فضائه وجدت صندوقاً صغيراً منسياً. عرفت أنه الشيء بعينه الذي ستدور حوله قصتي. لقد وجدت قصتي ضالتها فأنا ظللت لأسبوع بأكمله أفكر في الأشخاص الأربعة ولم أكن لأحلم أن أجدهم هكذا في إحدى جولاتنا الأسبوعية وفي صندوق صغير أحمر يوافق والداي على ابتياعه لي.

في أحد الأيام بدأ الأربعة والصندوق الأحمر يراودون تخيلتي ونحن ننتظر الرجل العجوز كي يعود بهديته الملفوفة بالورق الأرجواني ويعطيها للنقطة. كان كل ما رأيته بادئ ذي بدء هو مربع صغير من زجاج، ولدقائق عديدة لم أر بعد ذلك شيئاً. عادت الرؤية ثانية فجأة وشاهدت صندوقاً مربعاً أحمر اللون - 1.5x4x4 سم تقريباً - وفوقه غطاء زجاجي صغير. وفي الداخل ظهر الأربعة واحد منهم تلو الآخر كأنهم متناهية الصغر في سماء مخملية. أربعة أفراد أسرة. أربعة أصدقاء. أربعة معاً وأحياناً متفرقون. أربعة قبل دقائق من سقوط من علي، قبل جرح الموس، قبل الموت. أربعة صُنِعوا من حبات أرز صغيرة رُسِمَت بجهد

واضح مضمّن تجسّدت فيها عيونٌ وآذانٌ وشعرٌ وابتسامات ورقاب
وأَنُوفٌ وحواجبٌ وصدور. أربعة أشخاص من أرز يجمعهم
صندوقٌ تجسّد كمال الصنعة فيهم وهم يهجعون تحت الزجاج بهدوء
وصمت وسرية مطلقة. كان الأربعة يتغيرون، فمرة أشاهد شياو
يونغ بينهم، أو إلياس، أو علي، ومرة أخرى أشاهد الرجل العجوز.
أختي. أمي. أبي. أنا. أربعة أضلاع لمربع مكتمل. أربع حبات أرز
بُسّطت فوق سرير مخملي كأنجم في سماء مخملية. مع أشخاص
الأرز، أتت القصة أولاً. ولم تكن قصة واحدة بل القصص كلها.
أتت معاً وأتت تستقل إحداها عن الأخرى، تقترب منها من دون
أن تتلامس. هكذا كانت قصة الأربعة في قريهم وبعدهم، قصة تذكُّرٍ
ونسيان، قصة أشكالٍ وجروح. بل غدت السر الأبدي لمربع كامل.
هي قصة حفيف حرير وطرطقة حذاء خشبي. همهمة رجل عجوز
وتفاح صيني. قصة حدثت قبل أشياء سُرقت ورثة ابتسرت. كانت
قصة هؤلاء الأربعة قصة يستحيل أن تحفظ في صندوق تحت غطاء
من زجاج إلى الأبد.

بحرص وحب عظيم حملت صندوق الأربعة معي عندما عدنا
إلى الكويت، إلى صحرائنا وشمسنا، فقد كان عندي أغلى من لؤلؤ
وياقوت وزمرد الهند. هدية غالية على قلبي من والدين كانا لا
يزالان في ريعان شبابهما. وكان حبهما لنا، لي، لبعضهما، وللنقطة،
يستكين تحت ذلك الزجاج. أبقيته في الدرج العلوي من مزيتي
في غرفة النوم التي كنت أشارك أختي فيها، يهجع آمناً بالقرب من

ابتسامة رأس السيد بطاطا، جانب قلادة على شكل هرم الجيزة، وموس لف بورق، آمنًا وإن ليس طويلًا إذ لا تترك الحرب شيئًا في أمان.

في واحدة من عطلات نهاية الأسبوع اصطحبنا والذي إلى مدينة صغيرة اشتهرت بمنتجعها الصحي ومياهها الحارة.

«يفترض بهذه المياه أن تشفي العضلات من آلامها، وتنعش الأطراف المتعبة، وتعافي الأرواح السقيمة. ألا تجربوها؟ حتى الركبتين فقط؟» لم ترغب أختي النقطة ولا رغبت أنا في التجربة. لم تُغرنَا فكرة إدلاء أنفسنا في غياهب مياه داكنة فائرة لا نعرف ما ينتظرنا في أعماقها. لا، لن نغامر. هذا ما قالته أعيننا المفتوحة ورؤوسنا التي اهتزت بنفي قاطع لا تراجع عنه. لا، قلناها بإصرار وعزم. راقبنا الوالدين وقد خاضا في المياه بأعين مغمضة وابتسامات مبتسرة وتنهدات بطيئة وحدود توردت. انتظرناهما وقد جلسنا على ألواح الخشب الممتدة إلى جانب أحواض الغطس، أختي النقطة منشغلة بحقيبتها تملؤها بصبر وتؤدة ثم تفرغها ثم تملؤها ثانية وتكر السبحة من جديد. أما أنا فقد كانت لي سُبحتي أيضًا أكرر بها عد أشياءي وحكاياتي.

عدنا إلى غرفتنا وإلى البلكون الذي كاد أن يصبح مشهدًا لكارثة نُحيت ولحزن تم تداركه، بلكون أطل على وادٍ أخضر وارف، يكاد

يكون أيرلندا ثانية وإن في آسيا. اتصل الأمر بأحد زوايا المربع المكتمل الذي انفصل فجأة وغدا هشاً، منكسراً، وكاد يسقط وإن لم يفعل. كانت أختي النقطة تقف بين جزء مكسور من درابزين البلكون ونهاية الزمن. صغيرة، مكشوفة على فضاء شاسع فاجر الفاه، وهوة سحيقة وواد عميق ونهاية محتومة. دفعها الفضول إلى تأمل الامتداد الأخضر اليانع الوافر الذي شابه ضوءاً كان يتراقص على ذراعها خلال نزهاتنا الصباحية. الوادي المنحدر نحو الأسفل والأشجار التي تعلونا خضبت الضوء بألوان الربيع النضر وبكل ما تفتّح للتو مُستقبلاً الحياة. قد يكون ما أتذكره فعلاً هو ما التقطته صورة رصدت اللحظة التي تلت ما كاد يفضي إلى كارثة. صورة أمي وهي تطوي بين ذراعيها أختي النقطة وقد تجمدت عينا والدتي الهلعتان في محجريهما وإن وشيا بارتياح حزين. لم تكن النقطة تدرك ما حدث وإن لا بد أنها شعرت بدقات قلب أمها الخافق وهي تشد ظهرها إليها، وبالعروق النافرة في اليدين الناعمتين كالزبدة اللتين ارتفعتا إلى خدّي الصغيرة. ما الذي دفع والدي ليهرع إلى كاميرته ويصور تلك اللحظة التي تلت انتزاع ابنته من قدر كاد أن يكون محتوماً، قدرٍ يهوي بها من الدرابزين المكسور إلى الوادي السحيق؟ ما الذي أراد أن يرصده ويؤطره ويحفظه تحت لوح من زجاج؟ كانت على شفاهاوية بعيدة المستقر؟ على وشك الرحيل؟ قاب قوسين أو أدنى من السقوط؟ تمسكت بالحياة؟ عادت إلينا من حافة الموت؟ في زمن آخر وعلى فراش الموت كان في عيني والدتي

نفس النظرة: على شفا الهاوية، على وشك الرحيل، تتشبث بالحياة وإن لم يكن هناك من ينقذها. همست أُمِّي في أذن النقطة «صغيرتي، يا صغيرتي، يا صغيرتي». وكأن تلك التعويذة التي همست بها أنبأت بيوم آتٍ تردد فيه وهي تحتضر في آخر أربع ثوانٍ من حياتها: «صغاري، صغاري، اعتنوا بصغاري».

رثان عليتان تغلغل السم فيهما، لم ينسها الموتُ فأتى من أجلها بعد عشر سنين من حرب أنقذت بعضاً منا. بعد موتها، ماتت الأسماك، بالملايين، هوت الأبنية، وسقط البشر بالآلاف. حرب تلت حرباً فنحن أمة ابتليت بالحروب، دائماً، وأبداً. تُرى أي ذكرى خطرت في أذهانهم قبل المضي بأربع ثوانٍ؟ قبل أن يقفزوا، قبل أن يتمزقوا نتفاً، قبل أن تسقط القنابل على الرؤوس. ما الذي تذكرُّوه؟ همممممممم //////////////// . قد تساعد المناغاة وقد يفلح التهديد والدندنة. لا بد أنه قد ارتحل عن هذا العالم الآن. وابن علي الذي لم يلتحق بوالده قط. وأمي معهم، ميتة هي الأخرى. لكل منهم أربع ثوانٍ إن حالفهم الحظ أو ربما بالأحرى إن خانهم. أربع ثوانٍ ليعُدُوا العتادَ للأبد ويرحلوا للأبد. هل تذكرُّته؟ هل تذكرُّنا؟ هل سنتذكره؟ نحن سنتذكرُّها. وهل يسعنا غير ذلك؟ «صغاري، صغاري، اعتنوا بصغاري». لمن وجَّهَتْ هذه العبارة؟ ألوالدي الذي لم تنفعه في النهاية كل أجهزة الطب المعقدة المتطورة؟ ألوالدي الحائر الذي التقطت عدسة كاميرته قبل عقود مشهداً من الخوف المقطر والهلع الصرف حُفظ تحت لوح من زجاج؟ هل خاطبت

هواء المستشفى الرطب؟ أم أنها خاطبت العصافير الصغيرة البنية الواقفة على حافة الشباك مزققة عبر الصمت الجاثم الذي يسبق الموت والتي يستحيل أن تكون قد بقيت حية حتى الآن؟ أم نقاطها اللواتي لم يعدن صغارًا وإن بقين هكذا في نظرها، تتذكر أصابع أيديهن وأصابع القدمين وهي تعدّها عشرًا عشرًا؟ ليس في إمكان أحد أن يعتني بنا الآن وقد ماتت الأسماك وانهارت الأبنية. هل عرفت بهذا فقالت ما قالته؟ تحدّ في وجه رعب لا يحتمل، ألم مُرَكِّزٌ مُصَفَّى. تحدّ تحت الزجاج. لكن أمّا ماتت على كل حال.

أما آخر شيء اقتنيت في اليابان لأنسج حوله حكاياتي فقد كان موسًا. منذ اليوم الأول الذي انتقلنا فيه إلى شقتنا في الطابق الأرضي فتتني نافذةً مهملة علت سريري. كانت عالية جدًا لا يمكن أن أطاها لأطل من خلالها. نافذة غريبة طويلة وضيقة من غير ستارة أو قفل من أي نوع. حتى الضوء نفسه كان يجد مشقة في أن ينسل عبر الزجاج الذي صُبغ بلون سكري مائل إلى البرتقالي أو لون الصدا. كرهتُ والدتي تلك الغرفة فقد كانت صغيرة تكاد لا تتسع لسرير طفل صغير هو سريري وآخر في الزاوية من النوع الذي يطوى والذي كان سرير أختي النقطة. شعرتُ والدتي بالمكان وقد ضيق عليها حركتها. لم يرق لها لون الغرفة الكئيب كآبة غاز الخردل. لكنني وأختي أحببناها، فما إن نوصد الباب دون ما حولنا حتى نتخيل أنفسنا نطفو في جوف غواصة أو سفينة فضاء.

حاولت ولأكثر من مرة أن أرفع أختي النقطة فوق كتفي كي تصل إلى النافذة وتحتلس النظر عبرها فقد يعدُّ هذا بمغامرة تهجع خلف الألوان البرتقالية والسكرية والصدئة، لكنها كانت أثقل مما تقدِّر كتفائي الهزيلتان على حمله وساعداي الضعيفان على رفعه. ولم يكن لنا سوى الحلم وتخيل ما يقبع خلف الزجاج.

عندما أزف الوقت للرحيل عن اليابان، وقد انشغلت والدتي بضرب الأغراض، وانهمك والدي في مساعدتها، واختبأت أختي في سريرها هرباً من الجلبة العارمة التي كانت تعم البيت، دفعتُ بأحد كراسي المطبخ إلى غرفتنا الصغيرة وأغلقتُ الباب. بكثير من الحذر وضعت الكرسي المتأرجح فوق السرير الضيق تماماً أسفل النافذة وتسلقته كأى لاعبة سيرك مُغامِرة. كان في وسعي لمس الحافة وإن لم أتمكن من الوصول إلى مستوى يفسح لي مجالاً للرؤية من خلالها. مع ذلك كان هذا يكفي. مررت بسبابتي على الحافة المنشودة ببطء شديد يحاكي الحجارة إن تحركت. توقفت لدى منتصف الحافة فقد كان عليّ أن أهبط وأعيد موضع الكرسي إلى نقطة أبعد. نظرت إلى إصبعي فوجدته مغطى بغبار دقيق أبيض كالسكر الناعم. تذوقته. كانت له رائحة الأرض وقد داهمتها عاصفة رملية أعقبتها عاصفة ممطرة غسلت ما استقر عليها من تراب، تماماً كرائحة الكويت في شهر نوفمبر أو إبريل. استعدت توازني فوق الكرسي ومررت بإصبعي ثانية على الحافة ببطء وانتشاء. فجأة تلمست شيئاً بارداً كالثلج، حاداً، سريعاً. سحبت إصبعي بعيداً لأراها مغبرة مدماة.

لقد جُرِّحت. رفعتها إلى فمي أذوقها ثانية. صداً مغبر. مددت يدي الأخرى إلى حافة النافذة لأصل إلى أداة الإجرام: كان موساً غُطِّي نصفه بورق رمادي عليه كتابة حمراء وعليه دمي أيضاً. لَفَفْتُ الموس بالورقة الرمادية ونزلت عن الكرسي أدفعه ثانية إلى مكانه في المطبخ. غسلت إصبعي ووضعت ضمادة عليه ولم أخبر أحداً بجرحي، لا والدتي ولا والدي ولا أختي. أودعت الموس في جيبتي حتى عودتنا إلى ديارنا في الكويت.

قصة الموس هي قصة فقد وفقدان وضياع. قصة ذكريات وتذكُّرٍ ووداع. كان لمسي حافة النافذة بمثابة وداع وفي نفس الوقت بمثابة حفر يبقى للأبد لذكرى فتاة مرت من هناك في مكان يشي بالتوق وفي ظل نور برتقالي مُنْسَلٍّ على الرغم من يقيني، حتى يومها، بأن القبض على هذه الذكرى أمر قد يكون مستحيلاً. وداعاً لليابان، لأمي، لأشياء نَسَجْتُ حولها حكاياتي التي لم يكن لي أن أستعيدها بهذا الدفع والزخم مثلما فعلت خلال تلك الرحلة الهادئة التي غابت عنها لغة التواصل. وداعاً لحب استمر حتى وهو يواجه الموت بالقلق على صغاره، بالنقاط التي أنجبها، بالنجوم التي زرعها في سماء مخملية بقيت مودعة في صندوق تحت سطح من زجاج. كان الموس أداة تذكُّر، فعَلَ تذكير، وذكرى. الرجل العجوز وابنته التي وقعت، أو الأخت أو الصديقة. شمعة من كوبالت، أرض سرقت وابن بقي بعيداً عن أهله. رداء أمي الأزرق والأبيض الذي كانت ترتديه في الأمسيات قبل أن تخلد

إلى النوم وفي أوقات الصباح وهي تجلس إلى طاولة الفطور تقرأ الصحف. الآن ترتديه مرة تلو أخرى أختي النقطة - التي كبرت ولم تعد نقطة - وأصبحت نسخة عن أُمي بجماها وفتنتها الهادئة وعينها السوداوين العذبتين. كانت هناك علبة صغيرة من ورق اللعب لُفَّت بورق رقيق فوشى اللون وجدناها على الرف بعد موت والدتنا، هناك، لا نعرف لماذا، لكنها علبتها من دون شك. هي جملة أشياء أشعر بالسقم والمرض كلما وقعت عيناى عليها، أشياء تنكأ في أعماقي الجروح كلما أدركت أن من انتقتها وعاشتها واستخدمتها وأحببتها لم تُعد هناك. لم تُعد.

عندما ضاعت تلك الأشياء بل سرقت من درجي العلوي في مزيتي المصنوعة من خشب السنديان أثناء حرب النفط والسرطان غمرني حزن عميق كما لو أن الخير والطيب قد استُلا من كل شيء. أين هم الآن الأربعة الذين سُرِقوا؟ هل يذكرونني كما أذكرهم؟ قبل النهاية، تفاح صيني.

اعتادت مجموعة من المدرسين في شهر إبريل من كل سنة، عندما تدب في النفوس حمى الربيع، أن ينظموا رحلة لطلبة الصف السابع أو الثامن وأحياناً لطلبة المرحلة الثانوية إلى جزيرة فيلكا. كنا في عمر الثالثة عشرة تقريباً عندما أودعنا في سفينة تلفحها أنسام البحر ليوم كامل في زمن كنا نقدر فيه ما يعنيه يوم كامل. لم يكن الوصول إلى الجزيرة بالأمر الصعب، فالبحر أزرق صافٍ يشوبه لون أخضر لم تعكره بعد أسراب الأسماك التي هجعت هادئة قرب الشاطئ. أتذكر الآثار التي خلفها وراءه الإسكندر الأكبر. أتذكر معبد إيكاروس الذي شُيّد ذكرى لابنٍ حلّق قريباً جداً من الشمس. أتذكر القلعة والمقبرة -امتزج فيها رمل الكويت بعظام يونانيين مروا من هنا- والقطع الأثرية. لم أكن أعرف أن كلمة فيلاكيو هي كلمة يونانية تعني قاعدة بعيدة، ولم أتدبر طويلاً فيما تعنيه فكرة دماء يونانية تجري في دمي وتصلني بماضي أليكس العتيق. لا شك أن فيلكا، حيث يصب نهر دجلة والفرات في مياه الخليج، كانت قاعدة مهمة

وموقعًا لا غنى عنه في خطط الإسكندر المترامية في أرجاء المعمورة. أليكس مات شابًا في العراق في سن الثالثة والثلاثين. لم أكن أدرك أن فيلكا كانت مأهولة بالسكان لقرون عديدة، أربعة على الأقل، قبل زمن الصفر، أعني قبل ولادة المسيح (الذي توفي هو الآخر في سن الثالثة والثلاثين). لكن فيلكا، مثلها مثل إيكاروس، مثلنا جميعًا، ستسقط. ستحتل وسيطرد أهلوها من ديارهم ليخرجوا من المدينة حاملين أمتعتهم فوق رؤوسهم، وستزرع بالألغام شواطئهم وأراضيهم التي تفاجئنا بخضرتها. لكن إيكاروس، في سعيه نحو السمو والعلو، في طموحه للوصول إلى أبعد مما أدركه والده وحذر منه، سقط. حاول أن يتشبث كما يتشبث السلطعون بمخالبه لكن ساقه التي كانت آخر ما بان منه فوق الماء لم تسعفه. سقط إيكاروس وتحطم كالبيضة. على ظهر السفينة لم تلح لأحد منا ذكرى سقوط إيكاروس، أو سقوط فيلكا، أو سقوطنا، نحن نسخ إيكاروس المتكررة، تسقط من سماء باهرة.

~

هدى التوأم

خَمدت أنفاس ماما حياة بُعيدَ المغيب، في ذلك الوقت الذي
تصطبغ فيه السماء بلون يشابه لون الكدمة. لأيام طويلة كان التوأم
يحومان حول أمّ تذوي، يرقبان كل نأمة تصدر عن أصابع يديها
وقدميها فلربما تُنبئهما بما يحمله لهما القدر المحتوم. لكنهما ما إن
شاهدا الصدر وقد غار وعجز أن يرتفع ثانية حتى أدركا أن النهاية
قد أزفت. أخذ الشابان نفسين عميقين سريعين متتالين. عكس
الأول شعورًا متوقعًا بالصدمة. فهما كانا طوال الشهور الماضية
يعرفان أن والديهما تصارع مرضًا ما، غير أنهما لم يتصورا أن ما ألمَّ بهما
قد يؤدي بحياتهما. أما النفس الآخر الذي اغترفاه فقد كان غريبًا،
ولو كان في الغرفة أحد غيرهما لوجد فيه تصرفًا غير لائق أو حتى
تأمريًا. فما تبادلت أربع عيون سوداء من نظرات بارقة كادت تشي
بنوع من الفرح.

يخطئ من يفسر الأمر على هذا النحو، فمشعل ومشاري، وقد
بلغا الثامنة عشرة من عمرهما، كانا يقديسان والديهما ويعبدانها عبادة

لا يمكن معها أن يفرح الموتى. تركها فقدّها كمن سلخ جلده ببطء ليترك اللحم عاريًا مكشوفًا يدعك بملح وليمون. لكن سرًا كان يجمع خلف أضلع العائلة وقد حان الوقت لينتهي زمن الغموض وليخفّق قلباهما التوأم شوقًا للكشف والمعرفة. إن عنت الشهقة الثانية شيئًا فهو إدراكهما المشترك أن سنوات عيشهما في ظل لغز يكتنفه الغموض قد ولّت، وولّت معها طفولة طاردها أسئلة لا جواب لها وحكايا امتدت عبر عقدين من الزمن لم يفلح معها تفسير أو تأويل. هما الآن على مشارف اليقين والوصول إلى حقيقة طالما تآقا إليها أكثر من توقها إلى والد. لقد شجعتهما والدتهما نفسها على الاعتقاد بأن موتها سيكشف لهما يومًا ما أخفي عنهما زمن طويل.

ولسر العائلة أن ينجلي.

إنصافًا للحقيقة، لم يعانِ التوأم في طفولتهما المبكرة من أي شيء يذكر. فهما على العكس وحتى سن الثامنة لم يعرفا سوى رونق حياتهما الغضة. عاشا في كنف والدتهما في بيت يطل على مياه الخليج العربي المتلائلة، بيت شيد من طين وأجر لم يختلف عن أي بيت آخر من البيوت الكويتية آنئذ. أحاطت جدران سميكة تكاد تخلو من النوافذ بصحن دار جميل تملؤه أصص أزهار بنفسجية وصفراء تشرّب أعناقها نحو الشمس طوال النهار وتضم تويجياتها بعضها إلى بعض بإحكام وقت المغيب، فتستكين. في الوسط تقف شجرة سدر تظلّل المكان تلجأ إليها العصافير والبلابل. تحيط بساحة الدار الرئيسية التي يمكن رؤيتها من كل ركن وزاوية غرف مشرقة تطل

عليها من نوافذ وأبواب زجاجية. يجاور الفناء ممر مظلل مقوس يكسوه بلاط نقشت عليه باليد زخارف زرقاء وخضراء وقرميدية اللون. للبيت سَقْفٌ دُعْمٌ بعوارض من خشب ساج مصقول ربما انتشل من بقايا أخشاب وجدت في أحد الأحواض القرية المخصصة لصناعة سفن الداو.

في أواخر شهر نوفمبر يجلس مشعل ومشاري متلاصقين على واحد من المقاعد الخشبية المصفوفة على طول الممر يرقبان مطر الخريف وقد استحال جداول من طين تنهمر عن شجرة السدر وتتدفق نحو زوايا الفناء الأربع حيث مصارف الماء. يتهاى للشقيقين أن جذورًا جديدة للشجرة أخذت تنبت أمام أعينهما. يُقنع أحدهما الآخر أن الشجرة الوادعة والمستكينة قد فاجأها رعد لم تعتد عليه وطوفان لم تألفه، فغضبت وخططت للاستيلاء على المنزل، تمد في عتمة الليل جذورها لتلفها حول رقبة أمهما ورقبتيهما وتتزع رؤوسهم جميعًا. يصيحان من رعب اختلقاه. يقفزان من المقعد ويتدافعان شاذًا أحدهما دشداشة الآخر من رقبته. يتسابقان إلى حيث يجدان والدتهما حياة في المطبخ كعادتها تعد طعامًا مبتكرًا لهما كطبق من الحمص والصنوبر في منقوع الدبس أو من السلطعونات المسلوقة في مرق العدس الأحمر.

للمطبخ كما لكل غرف البيت نظام تهوية وتبريد يعتمد على نفق ريح يسحب هواء البحر إلى الداخل فتصبح حرارة الجو مقبولة إن لم تكن لطيفة، حتى في أيام شهر أغسطس الحارة، وكذلك البلاط

المنعش الذي يساعد في تبريد الأقدام العارية المتشققة. كان صوت
الريح ثابتًا ومنتظمًا يسمع في غرف وممرات البيت كأنه قاطن آخر.
تنام الأسرة في دور علوي من المنزل له أبواب زجاجية تنفتح على
السطح. وفي الليالي التي يشتد فيها الحر إلى درجة يمكن معها أن
يغلي الماء في القدور يسحب كل واحد فراشه يبسطه على أرض
السطح كي يأخذ قسطًا من النوم. من موقعهما يستطيع التوأم رؤية
بحر صامت أسود ينبسط أمامهما كالمرآة. وعندما ينظران إلى حافة
السطح السفلية يتبينان ظلال شجرتهم فترتعد فرائص الشقيقين إذ
لا يغيب عن ذهنهما قط ما يمكن لجذور شجرة السدر أن تفعله
تحت جناح الظلام فيأخذان في اختلاس النظر إلى أسفل احتراसा
وتحسبًا. كان النوم على السطح، ولشهور طويلة من الحر القائظ،
أمرًا مألوفًا لدى الكويتيين قبل قدوم المكيفات. كان كحفلة نوم
جميع أهل البلد مدعوون إليها. كانت ماما حياة تروي الحكايات
للصبيين الصغيرين حتى ساعات متأخرة من الليل فيقهقهان
ويشبهقان، كما تسمح لهما أن يأكلا في سريرهما حبات تمر دبقة محشوة
باللوز. يخلد الصبيان إلى النوم على صوت شخير الجيران وهمساتهم
الماكرة طوال الليل. غالبًا ما يفتح الثلاثي الناعس أجفانهم في نفس
اللحظة باكراً جدًا صباح اليوم التالي وقد أيقظتهم أشعة شمس
وردية تنسل بخفر فوق جدار السطح.

في جعبة ماما حياة قصص وحكايا ترويها بل تنثرها كما الرذاذ
فيرتويان، ورذاذ الصحاري تَرَفُّ لم يعتبره التوأم أمرًا مفروغًا منه

أبدًا. كانت معظم حكاياها مسلية، ففي المطبخ حيث تُمضي ماما حياة الأوقات تخترع أطباقًا من الطعام لا يمكن أن تخطر على بال أحد، تتفجر الحكايا بقوة كما يتفجر النفط الأسود. في خضم عمليات الشّي والقلي والسلق والتحمير تتصاعد قصصها وتتنامى بهستيرية جامحة تترك التوأم يسقطان على الأرض من فرط الضحك ويتدحرجان حتى الشرفة ككرتي مطاط لا كابح لهما. لكن حكايا ماما حياة كانت تغدو أكثر حزنًا مع مضي اليوم خاصة بعد قيلولة العصر. يصبح الحديث نُتفَ أحاج ومجموعة ألغاز يتلقفها الولدان في محاولات يائسة لفك أسرارها وغموضها على مدى الأسابيع والشهور وحتى السنين. ولم يكن تكهن المعنى ممكنًا إلا فيما ندر إذ ظل تفسيره بطيئًا بطء الخنافس. فكلما غامضة كأن تقول: «تصل السفن وتبحر عنا. الأصفر لا يتبع أي منطق. جبل من الشجاعة. بوصلة ضاعت. اثنان تركا في برميل. ما الذي يحدث فيما بعد؟» بنظرات زائغة تحدّق الأم إلى الشجرة بينما يحدق الولدان إلى وجهها وقد جلسا القرفصاء أمام قدميها مشدوهين ومرتبكين يملكهما الدهول يُرجّعان صدى ما نطقت به باذلين جهدهما لفك شفرته.

لربما كانت جلسات العصر المربكة هذه وراء ترديد أحدهما كلمات الآخر تمامًا كما يُسترجع الصدى. هي عادة أصبحت جزءًا من كيانهما دون أن يدريا. أو لربما يكمن السبب في أن ماما حياة طوال فترة حملها كانت تردد بوداعة في نفسها: «واحد يصبح اثنين. اثنان يصبحان واحدًا». تهمس بهذا وهي تنقر لحن فالس على طبل

معدتها المشدودة والمتبجة التي غدت حلبةً رقصٍ لأناملها. من يدري ما الذي تسمعه البويضات السابحة، من يعرف الأثر الذي يتركه العالم الخارجي على الداخل، لكن همسات الأم ونقرات أصابعها قد تغير الأمور بما لا يمكن تكهنه. التوائم أصلاً أمر نادر، فالتوأم يجمعهما كيس واحد، يهجعان فيه معاً قريين أكثر من القرب عينه وإن كانت لهما بصمات أصابع مختلفة. من المؤكد لكل هذا أن يتضاعف معه احتمال ناتج حملٍ غير اعتيادي أيضاً. مهما كان السبب فقد اعتاد مشعل ومشاري على قول نفس الشيء معاً وفي نفس الوقت. يتحدثان وكأنهما على رأس صخرة عظيمة شاهقة في وادي رم. يخفت صوتهما تدريجياً عندما ينحسر السؤال أو تقصر الجملة المتكررة. يغدو أي حوار مع والدتهما كالتالي حيث يبدأ أحدهما الحديث ليرتد ويسترجع الصدى بينهما:

«ماما، ممكن نأكل بيض على الإفطار؟»

«بيض على الإفطار؟»

«على الإفطار؟»

«الإفطار؟»

«فطار؟»

«ار؟»

«يوم ثاني يا أولاد»، قد تقول ماما حياة.

«بس يا ماما!»، يبدأ مشعل قائلاً.

«ماما!»

«اما!»

«ما!»

«!ا»

«ليش لأ؟»، يكمل مشاري الجملة.

«ش لأ؟»

«لأ؟»

«أ؟»

«لأن الحر شديد اليوم»، تقول ماما حياة، «فإن أكلتما بيضًا في يوم قائط كهذا فستفرخ الدجاجات في بطنيكما وستجدان أنكما تبيضان بيضًا تأكلانه. ستصبحان ولدين صغيرين على شكل بيض مستدير كالكرز وتعيش كالكوجا. ومع أن من المفيد لي أن يبيض ابناي كل يوم، أتساءل إن كتما ترغبان في قضاء ما تبقى من حياتكما الطويلة هكذا».

«لا يا ماما، ليس بهذا الشكل».

«هذا الشكل».

«الشكل».

«كل».

«ل».

«ظننت ذلك. أما غداؤكما فسيتألف من الدجاج المحشي
بكعكة الفواكه المجففة. والآن سأضيف مزيداً من السكر إلى كأسَي
الشاي حليب».

لم تلاحظ ماما حياة يوماً أن ولديها يكرران بعضهما بعضاً
كالصدي. ربما لاعتقادها أنها وُلدا هكذا، فمناغاتها وقرقراتها
في المهد بدت كترجيع صدى أحدهما للآخر. عندما تطرأ الحوادث
الغريبة في حَيِّزٍ محدد تفقد غرابتها على الفور بل يبدو الشذوذ عن
القاعدة أمراً طبيعياً. تكلم مشعل ومشاري كإنسان واحد، وهكذا
سمعتهما أمهما: واحداً. «الواحد يصبح اثنين. الاثنان يصبحان
واحداً». آمنت بذلك ولربما كانت هي من اختلق الفكرة، هكذا
أمضت حياتها وصوتٌ ولديها يتألف داخل رأسها من دون حرج.
لكن الأمر اختلف عندما غادر الاثنان عشهما الصغير بُعيد السنوات
الأولى الثماني من عمرهما وخرجا من جنتهما المبنية من طوب طيني
إلى عالم مُحدَّق إليهما فيه العيون وتُنصِت الآذان. شُده كل من
شاهدهما وسمع صوتيهما: صائدو اللؤلؤ وهم يطلون من سفن
الداو العظيمة التي بنوها بأيديهم، صيادون بسلام عامرة بالريان،
نساء بوجوه لוחتها الشمس يبعن حنة عُمان وكبريت السويد في
السوق المغطاة، رجال يجلسون بعد صلاة المغرب على مقاعد صُفَّت
أمام جدران ديوانيات عديدة على طول البحر يُزجون الوقت بتبادل
الأخبار والأحاديث. كلهم ذهلوا لدى سماع الشقيقين التوأمين
والكلمات تتأرجح بينهما نطقاً وترداداً تنطلق بعفوية بادية.

يولّد التكرارُ الغريبُ شعورًا بالضيق. فعندما يرى أهل البلد، نساء ورجالًا، التوأم وهما يجولان في أحياء المدينة بدشدشتين بيضاوين نظيفتين يفركان أعينهم بأصابعهم ليتأكدوا من أن ما يبصرونه ليس ازدواجًا في النظر بل مجرد ولدي حياة وقد خرجا من البيت ثانية. كل ما في الأمر على الأغلب هو أن سكان المدينة لم تقع أبصارهم على الولدين لثماني سنوات تلت ولادتهما، ولو فعلوا ذلك لكانوا تعودوا تدريجيًا على وجودهما معًا كالظل والقرين، أو تغلبوا على دهشتهم لرؤية توأم بشعر أشقر وبشرة بيضاء يسيران على طول الزقاق الضيق الظليل في أمسية باردة شذّت عمّا اعتادته أمسيات أكتوبر من عام 1946. فهم حتى بعد مرور السنين وبعد أن بلغ الصبيان الثامنة عشرة من عمرهما ظلوا يتعودون ويسملون تعجبًا كلما مرّ بهم. وقد يعود السبب الحقيقي للضيق الذي شعر به الناس كلما أبصروا الشابين اليافعين إلى أن رؤيتهما تذكرهم بأمر مؤلم كانوا قد اتفقوا فيما بينهم على أن يودعوه طي النسيان. وفوق كل هذا، فقد كانت تغمرهم رغبة قوية بذلوا الجهد لكبحها كلما سمعوا كلام التوأم الغريب وترجييعها المتكرر للكلمات في أن يمسكوا فورًا بأي شيء في متناولهم كحزام جلدي أو نعل يقذفونه كي يعيدوا بالقوة الاثنين إلى واحد، ويحطموا الدليل الصارخ الذي يذكرهم بخزيهم وعارهم ليس مرة بل اثنتين.

كانت ماما حياة قد عاهدت نفسها أن تعزل ولديها عن العالم إلى أن يطلبها هما منها رؤية ما يقبع وراء جدران المنزل. وكم شعرت بالرضا للثماني سنوات التي قضتها معهما بين تلك الجدران فقد كانت تتوقع ألا تطول المدة أكثر من خمس أو ست سنوات على الأكثر. قد يجد البعض في مثل هذا القرار ظلمًا وقسوة، أن يُسجن الأطفال في بيوتهم ويمنعوا من اللعب مع أقرانهم أو من اكتشاف أطراف بلدتهم والتخطيط لمغامرات تخصهم هم وحدهم. لكن ماما حياة كانت تعلم تمام العلم أين يقع الظلم والقسوة، فالظلم كان أكثر جلاء خارج أسوار البيت عن داخله، أو داخلها هي أيضًا. بذلت جهدها لتحيل منزلها واحة ساحرة تسعد طفليها فنسجت من الكلمات عالمًا يبهجها صارت معه حكاياها عقودًا من الذهب تزين رقابها، وأشعارها لآلئ تُودعها في قبضات يديها المحكمة. غنت لهما أهازيج البحر القديمة كي يخلدا إلى النوم فانساب صوتها في أرجاء البيت ترافقه الريح. وحتى إعدادها للطعام كان مختلفًا عن المعتاد إذ ابتكرت أصنافًا غريبة احتار الولدان في تكهن محتوياتها. فبينما تحتسي هي إستانات من الشاي في فترة ما بعد الغداء وقبيل القيلولة تشغل الولدين بلعبة اخترعتها ليست سوى تخمين ما دخل في وجبتها من مكونات.

«سمك، أرز وهيل؟»

«رز وهيل؟»

«هيل؟»

«يل؟»

«ليس سمكًا وليس أرزًا ولا هيلًا».

«قمح ودجاج وكمون وقهوة؟»

«كمون وقهوة؟»

«وقهوة؟»

«هوة؟»

«ة؟»

«نعم للقهوة. لا للقمح والدجاج والكمون».

وحتى تثقل أجفانُ والدتهما وتطبق رويدًا رويدًا كالسكر الذائب يُهَيِّلُ الصبيَّان تكهنًا تلو الآخر أملًا أن يصيبا في تخمينهما.

هكذا، أبقت ماما حياة ذهني ولديها في حالة تيقظ وفضول وانتباه. علمتهما القراءة فصرفا الساعات الطوال كل يوم وهما منكبان على قرآنهما. قرأا الروايات أيضًا، أجزاء منها على الأقل، وقرأا الأشعار ومقالات تحكي عن أماكن وبشر وأشياء لم يسمعا بها من قبل، قرأ كل ذلك في صفحات أودعتها كل أسبوع أسفل الفراش. لم يسألًا والدتهما كيف وصلت أكوام الورق الممزق والصفحات المتغضنة إلى هناك. لا شك أنها ماما حياة من فعلت ذلك، وتمنيا أن يكون هذا ما جرى فعلًا. ومع ذلك فطالما رَغِبَا في فُسْحَةٍ من خيال يسمح للغز أو لسر شخص ما (قد يكون والدهما؟) أو أي

شيء آخر (كجذور الشجرة مثلاً؟) أن ينسل إلى غرفتهما ليلاً ليترك أكواماً من ورق فلربما يجدان في طياته دليلاً ينشغلان في تفسيره. لقد تركت سنوات العزلة الطويلة بصماتها على الصبيين تجلت في خيال جامع لم تألفه الكويت حينئذ. هذا ما اكتشفاه ما إن غادرا جدران الكوت الصغير، حصنهما أو القلعة التي حمتها، الأمر الذي أعطى أهل البلدة سبباً إضافياً للارتياب في ولدي حياة الغريبيين.

أدرك مشعل ومشاري بالفطرة، حالهم حال الأطفال، ألا يسألاً والدتهما عن أبيهما، بل راحا يقتفیان خيوط اللغز، خيوطاً لم يصعب العثور عليها هنا وهناك: في همسات وغمغمات والدتهما عندما تصحو من قيلولتها، في أشعارها وحكاياها حتى المضحكة منها، في الطعام الذي كانت تعده، وفي الصفحات التي كانت تتركها أسفل سريريهما، بل في كل زاوية من زوايا بيتهما الآمن. لم يطلبها مغادرة المنزل إلى العالم الخارجي فقد أدركا أن في أركان البيت نفسه أجوبة لتساؤلاتهما. كانت ماما حياة هي من ولدت لديهما هذا الشعور، ولفترة طويلة من الزمن لم يعرفا أن هناك عالماً آخر يمتد خلف الجدران. عندما بلغا الرابعة أو الخامسة من عمرهما بدأ يلحظان أمهما في أواخر المساء وهي تلف طيات ثوب نومها حول جسدها وتنسل هابطة السلم. يسمعان صوت القفل والمزلاج الثقيل وصرير بوابة البيت الخاملة، ويصل إلى أسماعهما صوت والدتهما وهي تتبادل الهمس على عجل مع شخص ما. في تلك الفترة من حياتهما لم يُلحَظا على والدتهما بالسباح لهما بمغادرة المنزل. لكنهما بدأ

يتساءلان بطريقة غير مباشرة عن المزلاج وأصوات الجوار وما يصلهم بانتظام من مؤونة. عرفا من الحكايات التي تروى لهما أمهما ومن قراءتهما أن هناك شخصاً يسمى والدًا، وتساءلا عن سبب غياب أب يخصهما.

ليست قصة حياة قصة معقدة. هي قصة علاقة لا شرعية، حكاية اجتياز خطوط في الرمل لم تحدد وإن عرفها الجميع. لم يكن الشعر الأشقر الذي كسا رأسي الصغيرين مهقًا. كان أشقر لأن الأشقر ساد في تركيبتها الجينية. في عام 1937، العام الذي التقت فيه حياة والد الصبيين، كانت الكويت وجهة عديد من الباحثين عن النفط وكان معظمهم إنجليزًا شقرًا. وعلى الرغم من أنهم كانوا يشيدون معسكراتهم في الصحراء ويلزمونها معظم الوقت فقد كانوا من حين إلى آخر يرتادون أطراف البحر ليغسلوا أظافرهم وخصلات شعرهم المتشابكة مما علق بها من رمال ثم يتجولون في أرجاء المدينة وأعطاف أسواقها ليذكروا أنفسهم بما افتقدوه من صخب وجلبة وليشترى تبغهم المفضل والكيروسين والمراهم السوداء لعلاج البثور وزيت تثيت الشعر. كانت الكويت ميناء، واشتهرت بصيد الأسماك واللؤلؤ. كما كان على الرجال أن يمضوا شهورًا طويلة في البحر ما اضطرهم إلى ترك نسائهم خارج دائرة الوصاية الذكورية، أمر استفادت منه النساء فخرجن بأنفسهن لانتقاء أفضل سمكة طازجة يجدها في السوق وأفضل أرز بحبات طويلة ناصعة وأجمل قطعة قماش مزخرفة. ووجدت بعض النساء،

من كن أرامل أو جدات اضطرتهن الظروف إلى إطعام عديد من الأفواه، أن يشرعن في أمور البيع والشراء بأنفسهن، فافترشن حصراً صغيرة مربعة مددنها على الأرض ورصفن فوقها بعض الأغراض والمستلزمات اليومية لعرضها فيما عرف لاحقاً باسم سوق الحريم. اعتادت النساء على التعامل مع تجار من خارج البلاد فتعاملن مع من قَدِمَ منهم من عُمان والهند، ولم يمنعهن الحياء من المساومة في الأسعار والوصول إلى أفضلها. ارتاد رجالٌ بيضُ السوق بحثاً عن مقص يشترونه، أو خيوطاً، بضع مسامير، أو أقفالاً، أو علب كبريت، جميعهم أتوا إلى سوق الحريم بحثاً عما يحتاجونه من أغراض، وليحدقوا بفضول إلى البائعات المسربلات بالسواد وبعيونهن الكحيلة. وكم فاجأتهم مبادلة النساء لهم في التحديق وكركرات ضحكاتهن من وراء حُجْرهن، بل شعورهم بأن هؤلاء النسوة كن يغازلنهم نوعاً ما. كانت نساء الكويت عنيدات جامحات ولم يكن للبيوت التي شُيِّدَ واحدُها لصق الآخر أن تستوعب ذاك الجموح.

حياة بائعةٌ في سوق الحريم. يتيمة الأبوين. كان من المحتمل أن تجعلها صروف الدهر عاهرة أو ابنة عاهرة إذ لم يكن هناك مكان في الكويت القديمة للأيتام، مثلهم مثل التوائم والمختلين عقلياً. وإن كان اليتيم نصيبٌ أنثى فعندها تغدو موضع شك دائم. نظر الكويتيون فيما غبر من الزمن إلى الأيتام كخصوم ومثيري شغب، أناس يأخذون من الغير من دون أن يعطوا من أنفسهم شيئاً.

عوملوا بتعالٍ وبازدراء في أحسن الأحوال أو ضُربوا واستُغِلُّوا في أسوأها. الفارق بين حياة وغيرها من اليتامى البائسين الذين ثبت بينهم في بناء متهاالك يقع في أطراف المدينة هو أنها كانت تملك دارًا ورزمة مال معتبرة وضعتها جانبًا وكان الجميع يعرف ذلك. ولم يكن أحد ليجرؤ أن يمس تلك الدار بأذى أو يبتز ذاك المال على الرغم من محاولة الكثيرين، فقد وُضِعَ الكلُّ في عهدة مُلّا المدينة الذي كان الصديق الصدوق لوالدها في حياته. كان والده حياة، مثلها، وحيدى أبويهما، وعُرفَ عنهما شدة الشغف والولع ببعضها ببعض، غير أنهما في عصر يومٍ اتشح باللون البرتقالي ركبا قاربًا صغيرًا امتطى بهما البحر ولم يعودا قط. لم تقذف الأمواج بجثتيهما إلى الشاطئ ولم تعثر أي من السفن العديدة المبحرة في المنطقة على أي أثر للقارب. وجدت الطفلة نفسها في سن الرابعة فقط وحيدة من دون أم أو أب يمسح على رأسها، من دون جدود أو أعمام وعمات، أخوال وخالات، ومن دون صديق في هذا العالم الواسع الشاسع.

حكمت حياة على طفولتها بالنسيان فلم تشأ أن تُشرعَ لها بابًا للذكرى. لم يأت لها أي من سكان المدينة على ذكر اختفاء والديها ولم ترغب هي يومًا أن تحكي لهم عن سني طفولتها البائسة. وعندما بلغت الثامنة عشرة من عمرها انتقلت إلى البيت الذي ورثته عن أبيها واستلمت من المُلّا ما كانت ورثته من مال، وقررت أن تستعين في حياتها بالكتمان. بهدوء وروية أدخلت في خدمتها بضع سواعدَ قادرة من عمال بناء وصباغين ونجارين لكنها لم تفتح

أبوابها للجارات ولمن حولها من نساء سواء الفضوليات منهن أو الشغوفات بنقل الأخبار والنميمة أو حتى التقيات والورعات. أرادت أن تحرق كل جسر يصلها بالعالم الخارجي أو يقيد بها بصداقة حميمة أو تقاربٍ غير محبب. على كل حال كانت ثقةً حياة بنفسها كافية لتحبط أي ساعٍ للتقرب إليها. لكن استقلاليتها الفاضحة والتي اعتبرت إثماً وخطراً غدت مصدر حسد شديد. في مشيها كانت واثقة الخطوة واسعتها، غالباً ما تُخَلِّف وراءها منديلها الأسود أو برقعها الذهبي كي تعرّض وجنتيها الجميلتين للشمس. لم يكن من حولها أب أو أخ أو عم أو زوج يردعها عن مثل هذا التصرف الذي لا يجوز. تُيَمِّمُ وجهها نحو مقصدها من دون أن تتوقف هنا وهناك كما يفعل البعض للثرثرة مع الجوار. تساءل أهل البلدة فيما بينهم إن كان هناك من يسمح لنفسه أن يبلغ من الضعة منزلة تسمح له بالزواج باليتيمة الوقحة. خشيت النساء من أن تراود أزواجهنَّ رغبةً في اتخاذ حياة كزوجة ثانية فملأن أسماعهم بروايات عن عنادها وصعوبة مراسها وسلوكها المشاكس من دون أن يدركوا أن تلك الروايات لم تفلح سوى في إذكاء رغبتهم بدلاً من إخمادها.

لكن حياة لم تكن لتكثرث بمن يطلب يدها فقد عاهدت نفسها أن لا تتزوج قط. فقط عندما يسربل الليل المدينة تنسل من بيتها وتغذُّ السير نحو جزء منعزل من الشاطئ لترتمي في أحضان مياه الخليج الدافئة السمحة. وفي بعض ليالٍ حالكة يغيب عنها القمر

كانت تتجرأ أن تنضي عنها ثيابها وتُسَلِّم جسدها للبحر الغفور.
خشيت أن يجرمها الزواج من سباحة منتصف الليل ومن شمس
تمسح وجهها وتضرج وجنتيها. لم يكن الزواج يستحق أن تفرط
بفضاء اغتنمته تمد فيه قدميها وتنعم بفردانيتهما. لهذا فضلت أن تبيع
سلعها في السوق، وأن ترعى أزهارها، وتطهو وجبات تمزج فيها
كل ما يخطر ببالها، وترجي وقتها بصبر.

لم تدرك يوماً أنها كانت في انتظار إسكندر وفي انتظار توأم يُرَجَّع
أحدهما صدى الآخر. زار إسكندر يوماً سوق الحريم ليتجول في
أرجائه يتأمل ما عرض فيه من سلع ولينتقي منه ما يحتاجه طوال
شهر قادم يعينه في صحرائه القاسية. توقف فجأة عند بسطة حياة،
في بحر من السواد أطل وجهها السافر كمنارة. حلق إليه في دهشة
وذ هول. كانت تلك أول عينين يراها لامرأة كويتية علتاً وجنتين
وأنفاً وثغراً وذقناً. جلس القرفصاء أمامها ومال نحوها أكثر مما
يُسمح أو يُوصى به. لم تحرك حياة ساكناً. غرز إصبعين في وسط
صدره وقال: «ألكسندر، ألكسندر».

لم تنبس حياة ببنت شفة. فقط نظرت إليه نظرة فضولية حيرى
وإن وشت ببعض الود.

«اسمي ألكسندر. ما اسمك؟ ما... اس... م... ك؟» قال
متهجياً الكلمة بالعربية.

لم تجب. لاحظ أنها تملّته من لمة شعره الذهبي إلى عينيه
الزرقاوين. لم تكن نظرات الإعجاب بشعره غريبة عنه فقد اعتادها

نوعاً ما بدءاً بمن عمل معهم من الرجال ممن طالما اقتربوا منه ليلمسوا شعره أو حتى لينتزعوا بضع شعرات أو خصل كي يراها أبناءؤهم. بدا أن حياة افتتنت بدورها بالشعر الأشقر لكنها لزمت الصمت. انتقى ألكسندر بضع حاجيات من بساطها وأجزل لها ثمن ما انتقاه رافضاً أن يأخذ ما تبقى له من مال. وقفت حياة وهزت رأسها رافضة بشدة وقد انسدت عباؤها الفضفاضة على كتفيها. بحزم وإصرار دفعت بالمال المتبقي إلى الشاري في راحة يده فتلامست الأصابع.

«اسمي حياة».

كان ألكسندر يعرف تماماً أن نساء السوق يبدأن في جمع حاجياتهن استعداداً للذهاب إلى بيوتهن حوالي الظهر فقرر انتظار حياة خارج السوق المغطى. شاهدها وهي تغادر المظلة المصنوعة من القش وقد شدت هامتها واثقة الخطوة رافعة الرأس. لحق بها عبر الأزقة الضيقة من دون أن تعكس قامته ظلّاً في وهج الظهيرة. لم يحاول أن يتوارى عن الأنظار وإن لم يجذب الانتباه له أيضاً. كان بيتها يقع على طرف البحر تنتشر على جدرانها زهور المجنونة الياقة. وما إن فتحت الباب الخشبي الثقيل حتى استدارت لتلقي نظرة على ذلك الألكسندر الجسور الذي تجرأ على ملاحقة امرأة عربية في عقر دارها ليقف أمام منزلها ويتجرأ على النظر إلى وجهها كمن ينتظر شيئاً ما. مشت في اتجاه العتبة المرتفعة قليلاً وتركت الباب موارباً وكأنها تتحدى ألكسندر أن يتهاذى أكثر.

ولم لا؟ فهي شابة، مثلها مثل غيرها من النساء الشابات في أي بقعة من بقاع الأرض. لم يحترمها أحد لاستقامة خلقها فقد نشأت في مأوى أيتام عفن كان شاهداً على كل أصناف السلوك البغيض. الآن ها هي ترغب في ألكسندر، الزائر الغريب، بشعره الذهبي الذي يضاهي أكثر رمال الشاطئ بهاء وصفاء، رمال تغلغت بين أصابع قدميها في هزيع الليل. الاستقامة؟ هل يتحتم عليها أن تعيرها اهتماماً وهي الفتاة اليتيمة لأبوين عشقا بعضهما بعضاً بإفراط، أبوين فرطاً بها، وها هي تجد نفسها مثلها على استعداد لأن تفرط بحصنها الصغير الذي يقف الآن على شفا كارثة سوداء كثيفة، كارثة يكشف عنها ألكسندر في صحراء ليست له. قَبْلَ الرجل التحدي غافلاً مُغَفَّلاً، وتجراً على اجتياز العتبة نحو الطرف الآخر من عزلتها المزدهرة وحياتها الخفية.

ليلتها، وليلة واحدة من كل شهر من الشهور الستة التالية، كانت حياة وألكسندر يهجعان معاً على سطح البيت. لو تسنى لأحد أن ينظر في اتجاههما للَمَحَ وميض ذؤابات جليدية بيضاء تشع قرب غصون زيتون غضة. لو تسنى لأحد أن يلقي نظرة من فوق جدران خلت من النوافذ وصولاً إلى فناء الدار لرأى خيوطاً شقراء وسوداء تنسج بعضها بعضاً على مقاعد من خشب الساج. لو تسنى لأحد أن ينصت لسمع أصدااء:

«اثنان يصبحان واحداً».

«اثنان يصبحان واحداً».

«اثنان يصبحان واحداً».

«اثنان يصبحان واحداً».

عندما شرحت له بالإيماء حيناً وبجرس كلمات وامضة حيناً آخر أن اسمها يعني الحياة، بدأ يناديها لايف، بالمرادف الإنجليزي للاسم. أما هي فقد نادته باسم إسكندر، بالعربية.

«إسكندر ذو القرنين».

«إسكندر ذو القرنين».

«إسكندر ذو القرنين».

«إسكندر ذو القرنين».

الإسكندر الأكبر ذو القرنين. حياة من الحقائق المعلقة. لسبع ليالٍ، باسميهما الجديدين، إسكندر ولايف، شع الاثنان حباً. لو تسنى لأحد أن يتشمم أخبارهما لاستشعر رائحة هواءٍ بملح البحار ونسيمٍ بعبق البهار وتوقٍ يهجع في عمق محار أبيض أتيا به من الشاطئ. في بداية الأمر لم يكن هناك من يرى أو يسمع أو يشم. لم يشك أحد في الأصوات الصادرة من خلف الأزهار النضرة فوشية اللون، أو من صوت المزلاج وهو يوحد الباب الكبير. في حنايا وزوايا البيت كانت تولد حياةً مرة تلو المرة من دون أن يشهد أحد على ولادتها، من دون أن يميزها أحد. تَحْدُثُ الأمور هكذا باندفاع محموم أو بسكينة وادعة، بسرعة أو ببطء، تاركة القوامين على الاستقامة في جهلهم. غير أن هؤلاء سرعان

ما يستفيقون من غفلتهم فيتأجج غيظهم ويضربون بقسوة ويبد من حديد.

بحلول الشهر السادس بدأت حياة تخرج متدثرة بطبقات من ملابس لم تخف ما تحمله. كالريح العاتية كانت الغربان بالمرصاد تحوم حول الفريسة بتشوق. بعد زيارته السابعة، وما إن خطا خطوة عبر العتبة المرتفعة والفجر يتهاى ليشق الظلام بنور بنفسجي حتى امتدت إليه أذرع وقبضات أمسكت به وجرت به إلى زقاق مجاور ليس بعيداً عن الأعين. أُسجِي بلطف على الأرض المغطاة بالرمل كما يُسجى طفلاً في مهده قبل أن تنهال عليه الأقدام بالرفس ثلاث مرات في الأضلاع ومرتين في الفخذ. ضُرب على جانبي رأسه واستقرت لكلمات على عينيه وفكه. ومن خلال شففتين متورمتين انساب مزيج من اللعاب والدم والأسنان. دعكوا شعره الأشقر وجلده الأبيض الساخن بالطين. ولم يغادروا المكان قبل أن يمتطوه ببصاقهم ويتركوه وهو يتلوى من الألم. زحف إلى طرف المدينة ميمماً وجهه نحو صحرائه ماراً بالبناء المسكون الذي شهد طفولة حياة (والذي كثيراً ما حدثته عنه بتفاصيل مؤلمة وبكلمات تفيض بالدمع)، وهو يهمس: «الواحد يغدو اثنين. الواحد يغدو اثنين. الواحد يغدو اثنين. الواحد يغدو اثنين».

لقد أوقعوا في قلبه الرعب مؤكدين ملكيتهم التي لا تدحض. تجنب أهل المدينة الاتصال بحياة مباشرة، لم يهددها أحد ولم يؤذيها أحد بأي شكل من الأشكال. تُركت وحدها وقد أُفرِغت

من نشوة التحدي كما يُفرغُ عظمُ الماعز من نقيه. كان هذا على الأقل ما فضلوا وأرادوا تصديقه. أُوصِد بابُ البيت، وغدت جدران المنزل درعاً يصد الجميع وغابت حياة عن عيون المدينة. لم يقع بصر أحد عليها لثماني سنوات طوال لم يزرها فيها إنسان فيما عدا إحدى رفيفات السوق القديم ممن أبت إلا أن تزودها خلصة ببعض الزاد والمؤن تحت جناح الظلام. وحتى بعد أن انصرفت السنون وخرج التوأم إلى العالم الخارجي لم يكن يبين منها إلا النذر القليل عبر الباب الموارب. لقد أفسد أهل البلدة علاقة حميمة أينعت لستة شهور وأثمرت حباً لوالد طفليها، لإسكندر ذي الشعر الأشقر. بذلوا الجهد كي يفرضوا إرادتهم عليها كما فعل العالم الخارجي، بما فيه ألكسندر، لفرض الإرادة على السم الذي كان يجري في عروق بلادهم. لكن حياة أدهشتهم بقدرتها على النجاة. نفتهم هي، وتركتهم في فضولهم يلهثون رغبة في معرفة ما يجري خلف جدران بيتها والتقاط أخبار عن حياتها وحملها، هل قرب موعد الولادة وهل الوليد ابن أم ابنة، ما الاسم الذي أطلقته عليه. وما خططها المستقبلية. تساءلوا عن الصورة التي رسمتها لهم في ذهنها. هل استوعبت ما اقترفوه أم أنها تنظر إليهم باحتقار وازدراء. ساءهم أنها لم تفارق ضمائرهم، فقد أصبحوا سنة وراء سنة يكثرثون لرأيها أكثر فأكثر. وضعت تلك اليتيمة المنزوية خلف الجدران مشاعرهم على المحك فتعرفوا من خلالها على قسوتهم وطبيعتهم معاً. اعتراهم الخجل مما اقترفوه، خجل لا يبدده مرور السنين.

لم تسمع حياة أي خبر عن إسكندر ولم تعرف تمامًا ما حل به، بل لم تحاول قط أن تتقصى مصيره. بعد لقائهما الأخير بأسبوع عثرت على صندوق معدني صغير لف بموسلين أبيض ووضع بعناية أمام بابها. كان أثقل مما بدا، ثقلاً استشعرته وهو يرقد في راحة يدها اليمنى. وشت أناملها التي التفت حول الصندوق ييقين ساطع أنها لن ترى إسكندر مرة أخرى. وفعلاً لم تره ثانية قط.

«ماما، ما الذي في الصندوق؟»

«في الصندوق؟»



«صندوق؟»

«دوق؟»

«وق؟»

كان السؤال عن الصندوق أقرب ما تجرأ التوأم على طرحه لكنه حمل في طياته تساؤلاً أكبر عن والدهما. سؤال ردداه كل ليلة كما تُرَدَّدُ الصلاة أو يُسترجع التاريخ. أرتها ماما حياة الصندوق في صباح اليوم الذي طلبا فيه الخروج إلى العالم الخارجي. ضمت ولديها إليها وقد بلغا سن الثامنة، اشتمت فيهما رائحة رحهما وأدركت تمام الإدراك أن طلبهما يعني انتهاء الطمأنينة ونهاية الملاذ الأمين وانقضاء حياة عاشاها كالنعام. كانت تدرك أن بيوت الطين زائلة لا محالة وكذلك الشيطان الممتدة بلا انقطاع ومياهاها البلورية الرقراقة، مثلها مثل الذاكرة ومثل ما عبر من

زمن، جميعها سيزول وبسرعة تمس الكل وليس ما يخصها منها وحدها فحسب. كثيرة هي الأشباح القادمة. كان في وسعها أن ترى نفسها وقد تلاشت في واحد منها. كان في وسعها أن ترى أيادي تمتد بالمال لشراء الأراضي. كان في وسعها أن ترى الصحراء وقد قسمت، وطوقت، والتمعت بألسنة برتقالية اللون وأخرى حمراء في عتمة الليل الحالك. تخيلت ما قد يحصل للكوت الصغير وحاولت أن تتخيل أولادها فيه. أُلْقَت الرؤية في قلبها الرعب ولم تتخيل لنفسها مكاناً فيما هو قادم. فكرت في صندوق إسكندر، وفجأة أرخت ذراعيها عن الصبيين مشعل ومشاري وقد عقدت الدهشة لسانيهما لما أظهرته من محبة يائسة، وانطلقت تبحث عن الصندوق.

«حبايبي، هذا الصندوق هو إرث أبيكم. عندما يتوفاني الله سيصبح لكم لكنه يبقى ملكي الخاص ما دمت على قيد الحياة».

«ماما، ما الذي في الصندوق؟»

«في الصندوق؟»

«صندوق؟»

«دوق؟»

«وق؟»

جثت حياة على ركبتيها لتقابل ولديها وجهاً لوجه ولتنظر في أعماق عيونهما ليعرفا أن ما ستقوله لهما لن يعاد مرة ثانية.

«مشعل ومشاري، يا ملاكيّ الأشقرين، في هذا الصندوق جواب لكل ما على هذه الأرض. في داخله نهاية الحرب ونهاية الجشع، نهاية الحكم على الآخرين ونهاية الغيرة، نهاية الأنانية والأهم من هذا وذاك نهاية القسوة والظلم. غير أن عليكما الانتظار حتى أنتقل إلى العالم الآخر، عندها فقط يمكنكما النظر إلى ما في داخل الصندوق. وإلى أن يأزف ذاك الوقت، ليس عليكما سوى التخمين. اخرجا إلى العالم الهاجع وراء هذه الجدران مرورًا بطرف المدينة وصولًا إلى قلب الصحراء. تحدثا إلى أكبر عدد من الناس، واطرحا تساؤلاتكما. اجمعا الملاحظات ودوّناها. وعندما تعودان إلى البيت ابدأا بجمع الخيوط وحبكها. لا أستطيع أن أساعدكما أكثر من هذا فقد أصبحتما الآن سيدي نفسيكما. تحليا بالشجاعة. تحليا بالشجاعة».

على الرغم من أنهما طرحا على حياة نفس السؤال ليلة بعد أخرى في محاولة خداعها عسى أن يفلت منها ما يدهما على سر اللغز لكنها لم تزد حرفًا عمّا قالت في السابق. تجيب فقط بقولها: «تصبحون على خير يا حبالي الشقراء الجميلة. أحبكما حتى نهاية العمر حبًّا يفوق المألوف والمعروف».

«تصبحين على خير يا ماما. نحن نحبك بنفس القدر».

«ماما. نحبك بنفس القدر».

«نفس القدر».

عندما عبر ولداها حدود الدار شعرت حياة بالوحدة للمرة الأولى منذ سنين. لم تشكّ أبداً في قدرتها على خوض معترك حياتها الجديدة فهما ورثا عنها الخطو الواثق، وعن أبيهما الشعر الأشقر. تركا وراءهما فراغاً جعلها تفتقد إسكندر أو ما كان يُقدّر له أن يكون عليه لو أعطي الفرصة. شرعت تحلم بعينيها المغمضتين وبأهداب كالذهب الموشى على جفنيه. في غيابها بدأت تصرف مزيداً من الوقت في تفحص صندوقها المعدني، تفك غلالة الموسلين وتفتح قفله الصغير لتتملى في الشيء الأليف داخله. تحال نفسها كأنها تطفو في ثنايا البحر الدافئ عارية مع السلطعونات والقريدس وأسماك الهامور. تجلس تحت شجرة السدر تتردد في أسماعها زقزقة العصافير وشدو البلابل، وتنداح في عينيها أكثر السموات زرقاء وهي تحتضن بين يديها هدية إسكندر، عندها يتلاشى الزمن ويتحول إلى شيء آخر ينأى وينفصل عن اللحظة الراهنة. تنسل بعيداً عن خطوط الرمل نحو ألق متوهج لشيء تكاد تتبينه أو تراه بوضوح، يخاتلها كمن يقفز في قلب الموج أو يندفع نحو الشمس. تكاد تصل، مقاومة تثبت ولديها بها وحبها الذي تتردد أصداؤه في أعطافها. لكن حياة لم تستطع أن تلين، أن تخطو نحو ذاك المدار، نحو وعد قُطِعَ ولم يكتمل. تلفُّ إرث إسكندر وتخفيه في مكان

تتيقن أن الولدين لن يكتشفاه، ثم تمضي بقية يومها بل بقية أيامها وهي تصفر مع الريح وتعد وجبات خاصة للتوأم.

كانت البلدة التي خرج إليها الصبيان بعد أن اجتازا عتبة البيت لأول مرة في حياتهما بلدة تعيش على شفا التغيير. لقد وجد إسكندرُ العربِ وأصحابه في البلاد ما أتوا بحثاً عنه. فبحلول عام 1946 كان النفط قد كُرِّرَ وعُيِّنَ وأعدَّ لبدء رحلته عبر بحار ومحيطات اعتادت ولثات السنين على نقل البهار والجواهر والأقمشة والماء. الكل ينادي بالتغيير وبالرخاء ونهاية العذاب. سينهال المال قريباً كما لم يشهده أحد من قبل، وسيبدأ معه تدمير التاريخ. ستندثر الممرات المقنطرة وساحات الدور المخفية وأسطح كان يتشاطرها الجميع. بعد الصدمة الأولى التي تلت رؤية التوأم لأول مرة، بدأ أهل البلدة يتقبلون وجودهما بينهم. وعلى الرغم من أن أيّاً منهم لم يغمرهما قط بعناق حميم أو يحتضنهما بين أذرع مرحّبة، فإن سكان الكويت القديمة بدءوا يجدون في ظهورهما المفاجئ تباشيرَ معجزات آتية. شوهد مشعل ومشاري بشعرهما الأشقر وهما يطلان في أماكنهما الثلاثة المفضلة، أزقة المدينة الضيقة، أحواض سفن الداو، أو مياه الخليج حيث يسبحان في لجته. نظر إليهما الجميع كبشارة خير وحظ وافر آتٍ لا محالة.

بمرور الوقت تغير الأمر ولم يعد الناس يتعاملون مع التوأم بكثير من الارتياح. كائنان غريبان ينسخ أحدهما الآخر ويردد صدها، كائنان تجسدا كرمز لازدواجية أخرى بدأت تخط علاماتها

بين سكان البلدة الحيارى إزاء حقيقة جديدة لنفط يُنتج ويُصدَّر.
ثروات مجنونة واعدة تلوح في الأفق وإن كان يلوح معها دمار
مزلزل. كلاهما آتٍ. بعدما بدأت ذكرى التوأم تضمحل وتتلاشى
في أذهان الكويتيين بوقت طويل وتلوح واهنة في أذهان كبار السن
منهم استمرت الزلازل في التواتر واحداً تلو الآخر، متصاعدة
متنامية. غابت المياه العذبة الرقراقة، غابت سماء لا تضاهيها
سماء أخرى زرقة، غابت حبات الفقع -الكمأة- النضرة البيضاء
المتفجرة في الصحاري، غابت أشجار السدر. اقتُلعت واستبدلت،
اجتثَّ كل قديم من دون أن يدري أحد وإلى الآن ما الذي حل
مكانه. زُرِع كل خبيث مؤذٍ. زُرِعت الفوضى. زُرِع الفقد.

أمضى التوأم سنِّي شبابهما كما أوصتهما والدتهما سائلين الناس
من حولهما متسائلين إن فاتتهما معلومة أو غابت عنهما تفاصيل لا
يجوز أن تُنسى. جمع مشعل ومشاري نتفاً عن حياة والدتهما: يتيمة
تملك ميراثاً، والدان فُقِدا في البحر، فتاةٌ عنيدة مشاكسة بوجه سافر،
وجنتان تشرئبان في اتجاه الشمس. لم يكن سرّاً ما عرفه الناس
وأدلوأ به عن حب والدتهما للسباحة كولديها. لكن معظمهم التزم
الصمت في شأن الوالد. قلائل، واحد أو اثنان فقط، عادا بالذاكرة
إلى صحراء وتنقيب وبريتانيا. جاء ذكر الشعر الأشقر والليل. أتوا
على ذكر الحب. لم يأت أحد على ذكر ما انتهى إليه الأمر. لكن
مشعل ومشاري بنباهة صَقَلَتْهُمَا لهما والدتهما في طفولتهما لم يعجزا
عن فك الطلاسَم واجتراح المعنى.

«واحد يغدو اثنين».

«يغدو اثنين».

«دو اثنين».

«ثنين».

«ين».

ردد التوأم حكاية والدتهما في السكيك الضيقة في الكويت القديمة، ررداها وهما يسبحان في مياه بحرهما، وردداها وهما يتأرجحان من أطراف هياكل سفن داو خشبية انهمك العمال في صنعها. تبادلا الروايات بينهما حول ماما حياة وحول والدهما وأنفسهما وأكثر فأكثر حول من عايشاه من بشر. صاغا قصصًا وحكايا نسجها ذهن جموح لا تثنيه حقائق. حلّقا بعيدًا متجاوزين حدود وقيود المكان والزمان. أحسا بنشوة حرية تنسما أنفاسها عميقًا. لقد وجدا لهما في اللغة موطنًا أصبح الموئل والملجأ يحملانه معهما أنى يَمّا وجهيهما، فيسحر كل من التقط أصداء موسيقاها وجَرَس ألفاظها.

لم ينسَ التوأم الصندوق قط، فلا بد وأنه احتوى جوابًا لكل تساؤل دار في خلدتهما فهذا ما أكدته لهما ماما حياة. الآن وقد انتقلت إلى جوار ربها سيبحثان عنه وإن لم تحدد لهما موضعًا يرشداهما إليه. هما يعرفان المكان لا يمكن أن يكون سواه.

غسل مشعل ومشاري جسد والدتهما ولفاه بالكفن الأبيض وأعداها لرحلة في صباح الغد يذهبان بها إلى عمق الصحراء وإن لم يتحملا فكرة التخلي عنها في صحراء نخرتها آلات التنقيب وغاب عنها الأمان. أسندا رأسها المغطى فوق وسادة وسجّياها فوق الفراش الذي طالما سحباه معاً إلى أرض السطح. في وقت لاحق من ذاك المساء، وثقل الجسد المحمول لم يبارح أيديهما، نزلا إلى فناء المنزل وجلسا على أحد المقاعد المواجهة للشجرة الأليفة، تلك العدو القديم، والصديق الأقدم. الصندوق هناك من دون ريب في مكان ما بين الجذور الملتفة. وقد أزف الأوان لفتحه.

في هدأة ليل يضيئه نور قمر أبيض يحيل الأمواج سهولاً يغمرها ثلج ناصع، راح التوأم يحلان رباط إرثهما. قطعة موسلين غدت بنية اللون لما وطئها من سنين حملت عواصف وأمطاراً في أعطافها، فاستحالت نتفاً ومزقاً تهاوت بين الأصابع. الصداً يعلو علبة القصدير، والقفل لم يعد قفلاً. أمسك الأخوان أنفاسهما وهما يسحبان شيئاً ثقيلاً لم تتجلى بعد ملامحه في الظلال المتراقصة على الشاطئ. أمسك مشعل به يتفحصه في ضوء القمر.

«بوصلة».

«وصلة».

«صلة».

«لة».

بوصلة في غلاف نحاسي ثقيل. الصانع: ف. باركر وأولاده. العلامة التجارية: لندن. نقاط سوداء واضحة فوق قرص أبيض تشير إلى جميع الاتجاهات: شمال، جنوب، شرق، غرب، شمال شرق، جنوب شرق وأربع وعشرون نقطة بينها. كرة زجاجية ثقيلة تلتقط النجوم الوامضة وضوء القمر. راح الأخوان يتبادلانها فيما بينهما بسعادة غامرة. فجأة أصبح العالم دانيًا يهجع في راحتيهما. نقشت على الغطاء النحاسي حروف أولى للاسم: ASK. كان ألكسندر من حَضَنَةِ الأخوان بين راحتيهما. إسكندر أمهما، الحبيب الذي يعلو رأسه قرنان، إسكندر والدهما. أصبح لحياة أمهما معنى يشير إلى اتجاه لم يتوقعاه من قبل.

«حان وقت الذهاب»، همس مشاري.

«نعم»، ردد مشعل موافقًا.

3

ومضة ضوء غريبة يصعب تفسيرها. لم أعرف مصدرها وأنا
أجلس أسفل الدرج. حاولت أن أنظر إلى أعلى محدقة في العتمة.

«أليس غريباً أن يتكرر الوميض؟»

«يتكرر ماذا؟»

«ذاك الوميض. أراه يتكرر بين فينة وأخرى».

«أنا لم ألاحظ شيئاً».

لم يفاجئني عدم ملاحظته لشيء، فكل ما كان يشغل باله هو
فتاة هجرته، وحبه الوحيد التي تخلت عنه. انتقل هذا الصبي المكتنز
والجدّي المظهر إلى مدرستنا مؤخراً، المدرسة الأمريكية في الكويت:
ASK. لا أدري كيف أصبحنا أصدقاء - هو الصبي الكويتي الوحيد
الذي صادفته في حياتي وإن لفترة قصيرة - لكنّ تحمّلي لمآسيه التي
كان يرويها لي بدأ ينفد. وحتى هنا في هذه الحفلة الرائعة (التي كانت
بالفعل رائعة بكل معنى الكلمة: فيلاً خلت من الأثاث، حراس

على الباب لطرد المتطفلين، بار في كل دور من أدوار الفيلا)، كان كل ما قام به هو بث لواعج قلبه ووصف الألم الذي يعتصره وما يستبد به من حزن. كم وددت أن أحشر في قلبه الكسير باقة من أزهار القرنفل الوردية اللون.

في نهاية العام الدراسي أضفت إلى آلامه شيئاً من عندي. اتفقنا أن أرافقه إلى حفل راقص كصديقة فقط، لكنني تخليت عنه هناك لأبقى مع جوناس، الأمر الذي أغضبه كثيراً. لكن هذا حدث بعد شهور وشهور، بدت لنا بعيده كالأبد في سن مراهقتنا.

«سأذهب إلى الداخل لأرقص قليلاً، أترافقني؟»

«تمتعي. أفضل أن أبقى هنا قليلاً».

وقف لما وقفت - كم هو مهذب هذا الصبي - ثم جلس ثانية وأشعل سيجارة أخرى. لم أره ثانية تلك الليلة. لم أستوعب كل هذا الحزن الذي كان فيه لمجرد أن فتاة هجرته بل وجدتُ تصرفه غير لائق بفتى في السادسة عشرة من عمره. حاولت كثيراً أن أعامله بلطف فقد كان حديث العهد بالمدرسة، لكن للصبر حدود. شعرت كمن استيقظ فوجد طبقات من أغطية السرير وقد أهيلت على صدره فكاد يخنق. كنت مثل قبضة يد مشدودة.

يممت وجهي عائدة شطر الغرفة المعتمدة في أعلى الدرج وشعور بالارتياح يغمرني. لم يكن هناك ما يميز المكان، مجرد علبة كبيرة سوداء بنوافذ أعتمت، مكان مظلم ورطب، وشباب يتكئون

على الجدران. ومع هذا فقد تميّز عن كل شيء آخر. اتجهت وسط
الغرفة إلى قلب حلبة الرقص. جموع الراقصين يفترقون للحظة
هاربة فاسحين لي المجال كي أمر. ترتفع أيدٍ تضرب الهواء، وتتمايل
أجذع بعزم وتصميم. فجأة تمسك بي ذراعان غريبتان. صوت
يدندن مقطّعا من أغنية: «أيتها الفتاة المقدسة، شفاهك المصنوعة
من الفخار». أنفاس رطبة تلفح رقبتني. يومض ذاك الضوء مرة ثانية
تشتعل معه كرات الثريا الكريستالية تسبح فوق رؤوسنا، تلمع، ثم
تختفي. دفعت برأسي إلى الوراء واستقبلت أنغام الموسيقى هادية
بين ذراعين غريبتين. «ستهمس بكلمات الأمس»، تابعت الأغنية.
ها قد نجوت من أحزان قلب الفتى المكسور. أنا حرة. سأحمي نفسي
من حائط مبكاه ولن أتبنى سقمه المرهق. «فليكن مبدؤك الأكبر أن
تجعل قلبك لا يقهر»، تدندن الأغنية. أرقص في العلبة السوداء إلى
الأبد، ألوح بيدي، أهز ردفي: انظرنني.

ومضة ضوء أخرى وأراه واقفاً هناك يستند إلى الجدار وقد
ربط منديله الأبيض حول عنقه. «فتاة تحيل الحلم حقيقة.» رأيت
جوناس وقد وقعت عيناه عليّ.

~

مذكرات

لم يكن في نيّتها أن تشرع في تدوين مذكراتها. كل ما في الأمر هو أنها بدأت تكتب في ما يشبه السجل ملاحظات حول أشياء رصدتها بهدوء وبشكل ممنهج.

الاثنين، 16 يونيو، 1980. هناك شق في كيس القمامة الأسود تفوح منه رائحة كريهة. سائل لزج على طول الرصيف. عصافير صغيرة تزقزق هامسة خلف الزجاج. السماء صفراء بعد الظهر قبل العاصفة. صاعقة باهرة تضرب بعد رعود ساحقة. أصابع السمك المقلية ليست مقرمشة دائماً.

بقي السجل لفترة لا بأس بها يضم تفاصيل ليست بذات الأهمية وإن دونت بعناية وترتيب زمني صفحة بعد صفحة. حملت مينا الدفتر المصنوع في الصين والمجلد بلون أسود وزوايا مثلثة حمراء أينما ذهبت وحتى في أكثر الأوقات والأماكن غرابية، قبل أن تنزل على الزلاقة بدقائق، أو لحظات بعد أن تبدأ صالة السينما بخفت

أضوائها، أو لحظة إطفائها شموع عيد ميلادها، تفتح الدفتر سريعاً، تسجل فيه شيئاً ما ثم تغلقه بقوة.

الأربعاء، 11 مارس، 1981. المرايا تعكس الضوء وكذلك الباذنجان. يرتفع الدخان حتى عندما ينخفض مستوى الشمع. تغبّر البلي عند اللعب بها. تبدو الشمس أحياناً وكأنها على ارتفاع منخفض وتكتسي لوناً وردياً. لا تقبّض الأقفاص على الضوء.

وجد والدّها انهاك ابنته في سجلها مقلّقاً ومحيراً. شجعتها والدتها في البداية وإن تحول التشجيع فيما بعد إلى فضول ومن ثم إلى شعور متزايد بعدم الارتياح.

غيّر ضمير المتكلم كل شيء. فبعد مضي سنتين من تدوينها الملاحظات في دفترها، اكتشفت مينا، ذات الغرة المقصوفة والرمشة البطيئة، أن وصف الأشياء ليس الأمر الوحيد الذي تقدر الكلمات على نقله. بدأت كلماتها خجلى لكنها سرعان ما اكتسبت جرأة بدأت تطالها ومن حولها.

السبت، 25 سبتمبر، 1982. لا يمسح فمه دائماً بالمنديل الذي تضعه له أمه في صندوق غدائه. يقايض علبة حليبه السادة بالشوكولاتة. عندما يرفع يده اليسرى ليحجب على سؤال يضع اليمنى على قلبه مثل نابليون. أتساءل إن كان يلحظ أنني أراقبه وأني أحمله معي عندما أعود من المدرسة.

كانت اللغة تنسل نحو زوايا مصقولة معتمة، أمكنة ذات شقوق حادة تنضح بالفوضى والفتنة. شقت طريقها من خلال الفوضى، ببطءٍ أحيانًا وبسرعةٍ أحيانًا أخرى.

الثلاثاء، 7 فبراير، 1984. لا تزال الهواجس تتناوب حول ما يتذكره الآخرون من أشياء. فكلنا يحمل في جعبته رزمًا صغيرة من ذكريات. بعضنا يودعها في صناديق صغيرة. والبعض يجعل لهذه الصناديق مفاتيح يعلقونها أحيانًا حول رقابهم بخيوط جلدية كالقلادات، أو يضعونها في خزانة في بنك تفتح هي الأخرى بواسطة مفتاح، ومرات يتركونها داخل درج مليء بالحلي الرخيصة والكراكيب. بعضنا ينضد هذه الرزم فوق أرفف والبعض في الخزائن. أظن أن رزم ذكرياتنا قد رُبِطت ببعض كي لا تضيع إلى الأبد إن سقط أي منها أو تُرك في غير موضعه أو دُفن في مكان ما، وإن كان بعضها قد لا يعود إلى صاحبها الأصلي. أنا أتعثر دائمًا برزم سقطت ومفاتيح ضاعت.

امتلات الدفاتر التي تُصنعُ دائمًا في الصين وتفوح منها دائمًا رائحة صيدلية ما في بكين أو شنغهاي على نحو غير مسبوق. وعندما بلغت مينا الرابعة عشرة من عمرها كانت مذكراتها قد منحتها جلدًا آخر يكسو جسدها، كما لو أنها حياة عاشتها مرتين.

في تلك السنة أعطاها معلمها كتبًا لتقرأها وتطلع على كتابات الآخرين. استطاع أن يميزها من بين أربعين طالبًا في الصف وإن

لم تكن لتلحظه هي، وهل يُلاحظ من يكبرها بكل هذه السنين؟ حاول أن يقنع نفسه بأن هذا لا يهم. لا يهم لأن رائحته تشبه رائحة ملح البحر. لا يهم لأنها تعض على شفثها السفلى في كل مرة تحدق إليها بطريقة مثيرة للأعصاب رغم أنه متأكد أنها لا تنظر إليه البتة بنظاراته وإطارها المدبب كالقرن، وبنطاله البني، وقميصه ذي المربعات، وشنبه. أي من هذا لا يهم. لا يهم أنها لم تتعلم بعد كيف تضم ساقها تحت تنورة المدرسة الكحلية. لا يهم أن عينيها عندما تسقط أشعة الشمس عليهما تتراءيا بنيتين وليس بلون الزيتون الأسود كما تبدوان داخل المبنى. جُلّ ما همم هو إدراكه أن إمكانيات هائلة تهجع داخل هذه الفتاة وتعتصرها كما تعتصره معدته كل مرة تمر بها أمامه، وأن هذه الإمكانيات يجب أن تُحرَّر وتُطلق من عقالها. لم يكن ليترك الأمر في عهدة والديها، فأتى لهما أن يدركا مستقبل الفتاة التي أنجباها؟ يتعلق الآباء بماضي أطفالهم، فهذا ما يمتلكونه وليس المستقبل. قليل منهم يدرك أن أبناءهم ليسوا لهم بل أبناء الحياة. يتمسكون بهم بمخالب وإن لطيفة دمثة، مغرقين إياهم بالمحبة أو بالشعور بالذنب. لهذا، وتخوفًا من ردود فعل الأهل وحسن أو سوء تقديرهم، بدأ يُحرّر ما هجع داخلها ويفك عقده شئًا فشيئًا. اختار لها عددًا من الكتاب لتقرأهم: كافكا، وولف، داريل، ماركيز، وكونديرا. قرأت كل واحد منهم وهي تجلس متكورة عند أسفل الدرج المغطى بالسجاد في منزل العائلة وقد أدفأتها أشعة الشمس المائلة بعد الظهرية.

لم تكن القراءة بالأمر الجديد عليها فهي تقرأ طوال حياتها منذ أن بدأت تفك الحرف. قرأت عليها والدتها، التي بدورها ورثت جين القراءة عن والدها، من دون كلل أو ملل كل ما وقع تحت يديها من قصص للأطفال بدءًا بالإوزة الأم وليس انتهاء بالدكتور سوز. وعندما توفي جدها أهدتها والدتها النسخة الأولى من كتاب ساحر أوز الذي كان يفتنيه. كانت مينا تشم رائحة حياة جدها من بين صفحات الكتاب القديم، هذا الكتاب الذي وجد طريقه إلى البيت الصحراوي لا شيء سوى أن رجلًا عربيًا يمتلكه الفضول افتتن في شبابه بقصة طفولة كان يتمنى لو كانت طفولته هو. من بين أوراقه فاحت رائحة تبغ غليون وسجائر وويسكي وماء الغريب. شمت رائحة الغبار الذي كسا جهاز العرض القديم وأشرطة أفلام لوريل وهاردي التي بليت من كثرة الاستعمال والتي كان يفضلها بعض الشيء عن أفلام الإخوة ماركس. شمت غرفة نومه المرتبة رغم كثرة الأغراض فيها بأرضيتها الرخامية الرمادية وستائرهما المخملية السمينة التي تسدل دائمًا وبإحكام فلا تسمح إلا بخيط من الضوء يخترق شقًا رفيعًا ينسل منه فيُنيرُ الغبار العالق في الهواء. شمت رائحة سريره وسمعت صريره وقد غطته أكوام من الورق، وشمت حتى رائحة بلاستيك جهاز التليفون العاجي اللون الذي كان جدها فخورًا به والذي لا يبين منه قرص الأرقام. كما شمت رائحة طفولة والدتها في مدينة بيون في الهند، وأكواز مثلجات المانجو المملوءة حتى الشفة بشرائح البابايا والكاكايا.

حملت صفحات ذاك الكتاب أحزان ما خسره الجد في حياته. فقد أفلست الشركة الصغيرة التي أنشأها في الهند. خلال رحلة العودة إلى الكويت كانت هناك خسارة أكبر تمثلت في فقدانه ما كان يخلج في قلبه من جسارة وشجاعة. لا، لم تستهوه الصحراء يوماً ولا العمل لدى شركات النفط الوطنية التي بدأت تستقطب الكثيرين من الساعين إليها فهذا النوع من العمل لم يكن ليتفق وحس المغامرة لديه. لم تعد حياته تدور حول ما يقوم به أو يتتوي القيام به بل حول ما أنجزه في الماضي. في كل عطلة من عطلات نهاية الأسبوع كانت مينا وأبناء وبنات عمومته يتقاطرون نحو مملكته: مكتبة وغرفة نوم وحمام ببلاط أخضر بلون الأفوكادو سقط عليه يوماً جثة هامدة عندما أصابته نوبة قلبية صاعقة تركته جثة هامدة. بقي بالقرب من المغسلة كأس ماء يسبح فيه طقم أسنان طالما أخاف وأضحك به الأطفال معاً. كان يقص عليهم حكايات عن رحلته إلى الهند في إحدى سفن الداو، عاصياً مشيئة أبيه بعدم الذهاب، مصرّاً على البحث عن الياقوت الأحمر والأزرق والزمرد وكل ما يبرق ويلمع. يخبرهم عن التقائه جدتهم، وأين؟ في الحديقة طبعاً، تحت شجرة بانيان عملاقة، ويحكي لهم كيف أن أباهما، جدهم الأكبر، استنكر بجلاء أن تقترن ابنته الجميلة الغالية بتاجر مجوهرات عربي لا يمكن الوثوق به مهما كان على درجة من الذكاء والثقافة. لكن الحب انتصر في نهاية المطاف وأثمر عديداً من الأطفال.

«أمي منهم؟»، تتساءل مينا دائماً.

«أمك بالتأكيد. صغرى بناتي و»، يهمس في أذن حفيدته الغالية،
«الأحب على قلبي. وددت أن أسميها مينا لكن جدتك لم تسمح
بذلك ولم يكن لأحد أن يعصي سلطتها المطلقة. لذلك أردتُ يوم
مولدك أن تطلق عليك والدتك الاسم الذي تمنيته لها وحرمتُ من
إطلاقه في زمن مضى. وهذا ما فعلته يا عزيزتي. ها أنت هنا يا مينا،
مينا، تملئين أحلامي حبًا وحنينًا». كان يردد هذه الكلمات منشدًا لها
وهو يمازحها، كلمات بدت لها معجونة بالحنين. «مينا، مينا، تملئين
أحلامي حبًا وحنينًا».

بينما التهمت مينا في طفولتها كل ما وقع تحت يديها من كتب،
كانت الفترة التي شبت فيها عن الطوق، والتي وسمت شخصيتها
كتب انتقاها لها بكل جدية معلم متزلف، هي الفترة التي بدأت
معهما الكلمات تنسل إلى أعطاف حياتها. وإن لم يخلُ الأمر أحيانًا من
بعض الحيرة والقلق.

الثلاثاء، 1 يناير، 1985. عليّ أن أسعى إلى حياة أستطيع
أن أستعيد ذكراها، حياة أبحث عنها في المستقبل، عن زمن
حاضر سافقده من دون شك في المستقبل، أضيعه كي أعثر
عليه ثانية. عليّ أن أحيا حياتي ثم أكتب عنها. أو ربما أكتب
عن حياتي ثم أعيشها.

وكجدها من قبل، شعرت مينا بالحاجة الماسة إلى الحراك وتوق
إلى السفر. لكن مينا كانت أصغر بكثير من جدها الذي أبحر على

متن سفينة مصنوعة يدويًا راکضًا وراء حلم رومانسي بحثًا عن المغامرة. فضلًا عن أنها لم تكن شابًا عربيًا بل شابة عربية تترصدها القلاقل في كل خطوة من رغباتها الجامحة.

بدأت مينا تخطط لمغامراتها في تلك السنة التي شهدت ورود الكتب المتتقة. في صباح يوم شتائي قفزت من نافذة غرفة نومها وأوقفت شاحنة عابرة يقودها بدوي اعترته الدهشة والذهول عندما طلبت منه إيصالها إلى البحر. أخبرها أن أيًا من بناته الثلاث لا يمكن أن تغيب عن بصره لحظة ولا يمكن أن تفكر في أن تترك سيارة يقودها رجل غريب.

«لكنهن بعيدات عن نظرك الآن».

«صحيح، لكن أمهن معهن».

«وماذا لو لم تكن معهن؟»

«هذا غير وارد أبدًا».

«لكنها بعيدة عن نظرك أيضًا».

«نعم، لكنني أراها بعين فكري وذهنِي».

«ولكن هل تستطيع هذه العين أن ترى فعلاً؟»

«العين ترى ما هو مهم». نطقت بالقول الفصل وإن لم يبدو أنها ظفرت باستحسانه. لاحظت مينا تكشيرة حادة بدأت ترسم على جبينه فأدركت أنها قد أزعجته. أوصلها إلى حيث طلبت،

تتم بكلمات غير مفهومة، وانطلق بشاحته. كانت الصخور التي جلست عليها أكثر سخونة والمكان أكثر وحشة مما توقعت. سجلت ذلك في دفتر مذكراتها.

ثم كان هناك الفتى الذي كانت تمضي معه بعض الوقت والذي كان يحتفظ في جيبه بحقيبة جلدية صغيرة وغامضة. كانت تنتظر قدومه كل صباح قادمًا من بوابة المدرسة، يراها بطرف عينه وإن تظاهر بعدم ملاحظتها. يصل عادة لحظات قبل أن يقرع الجرس وكم تمنّت لو بكَر في المجيء. في أحد الأيام وفي فترة ما بعد الظهر بعد فرصة الغداء ركضت أمامه فتبعها. اندفعت نحو غرفة تبديل الملابس الخاصة بالأولاد والتي كانت خالية. هرعت إلى كبائن الدوش وتوقفت. اصطدم بها من الخلف، رفعها عاليًا ثم أنزلها. نظرا بعضهما في أعين بعض.

«ما الذي في الحقيبة؟»

بدلًا من إجابة سؤالها، قام بعَضْ ذراعِها وكأنه يرغب في انتزاع قطعة من لحمها. ركض خارجًا. دعت آثار اللعب على جلدها. عليها أن تقدم تفسيرًا لآثار الكدمة التي خلفتها العضة على زندها. قدمت تعليقًا مختلفًا في كل مرة سئلت فيها.

«عضضت على ذراعي في نومي من شدة ألم في سني».

«هذه آثار أسنان قرد ابن عمتي الذي يعض أذرع كل فتاة لا ترتدي ثوبًا قطنيًا».

«علقت ذراعي بشفاطة فأذتها».

فيما عدا دفتر المذكرات لم يكن لأي أن يعرف ما الذي حدث في الواقع.

أحياناً، بدل قضاء ليلة لدى إحدى صديقاتها كما تكون قد أخبرت والديها، تنسل مينا إلى إحدى الحفلات التي تقام في نهاية الأسبوع في إحدى الفيلات التي تكون فارغة لسبب ما وتصبح مرتعاً للشرب والرقص يزود بحراس خصوصيين يقفون عند الباب الرئيسي لرد المتطفلين. تحاول مينا أن تلتقط سرّاً بعض الصور. أتها الفكرة لدى حضورها إحدى الحفلات عندما لاحظت وميض ضوء يظهر ويختفي ظنته برقاً أولاً ثم خمنت أنه قد يكون شيئاً آخر. انطوى أخذ الصور على بعض المخاطرة فهناك، مثلها، من أتى إلى الحفل من دون علم ذويه ولم يكن ليرغب في دليل مادي يثبت حضوره. كانت تتوقف في منتصف الرقصة تمسك بكاميرتها الصغيرة، ترفع يدها عالياً ثم توجهها إلى الأسفل وتلتقط أطياف صور. كان معظم الحضور في حالة من السكر لم يميزوا معها ما ومض في العتمة، وإن فعلوا فعلى الأغلب لم يعرفوا ما هو.

مرة وجدت مينا نفسها في أحد الطوابق الذي لم يكن مخصصاً للحفلة. بدا وكأن المكان خلا من الناس وهو أمر غريب في مثل هذه الحفلات. كانت العتمة تلف المكان وإن تجلى لها ما يشبه ممراً ضيقاً يمتد نحو أعلى الدرج ويفضي إلى باب مفتوح. تحسست مينا طريقها على طول الممر. بدأت تسمع أصوات خربشة وقرقعة واضحة. في

نهاية الممر مدت رأسها عبر الباب وميزت جسمًا عريضًا تكور في العتمة ولم يبين منه سوى يدي امرأة.

«من أنت؟» سألت مينا بالإنجليزية، ولما لم يردّها جواب أعادت السؤال بالعربية.

وعلى الرغم من أن المرأة كانت تجلس على بعد متر واحد بعيدًا عن مينا فقد أتى صوت المرأة العجوز عميقًا وبعيدًا كأنه يعبر وديانًا فسيحة. «عليّ أن أنتهي من تنقية الأرز من هذا الحصى إذ يجب أن يكون جاهزًا».

«جاهزًا لماذا؟»

«جاهزًا للغداء. سيُحضر الرجال السمك. ما إن يخرج السمك من الماء حتى يجب غمسه في أرز وافر».

«هل تقطين هنا؟ من أنت؟» لاحظت مينا أن الصوت يصدر عن أصابع المرأة وهي تجوب صحنًا معدنيًا فارغًا. لم يكن هناك أرز في الصحن ولا حصى منقاة. أخذت صورًا للفراغ كي تكتب عنه فيما بعد.

طالما افتُتنت مينا بمجموعة الطيور التي كانت لدى جدتها. لقد وافقت الجدة يومًا على ترك الهند والعودة مع زوجها إلى موطنه شريطة أن يسمح لها باصطحاب طيورها معها، كل واحد منها بلا استثناء. وهذا ما كان. إن كانت غيوم من غبار الكتب وجهاز

العرض تسبح في فضاء ركن الجدة في بيته، فقد كان ريش الطيور هو ما يسبح في ركن الجدة، خضراء فاقعة أو زرقاء زاهية، الأصفر الصارخ والوردي الحالم. ما إن تخطو مينا داخل الغرفة حتى تشعر وكأنها قد دخلت إلى قلب صندوق حاوٍ يزخر بكل أصناف الحيل. تُصْرِفُ الجدة أوقات الصباح وحدها مع طيورها، تحتسي شيئاً به كثير من السكر والحليب، تحدثُ ببغاء المقو وطيور المينا وببغاوات ذات حلقات وردية وببغاء الكوكاتو ذا العرف، كلّ واحد في دوره. تنصت مينا إلى جدتها من خلال شق في الباب وتلتقط نتفاً من كلامها بصوتها الجزل الجميل. هل سمعت جدتها تخبر الطيور بأن الجنون يطارد العائلة كنعامة في سهوب السافانا؟ ألهذا أرادت أن تهرب من الهند؟ وهل يمكن للإشاعات التي تدور حول أبنائها أن تكون صحيحة؟ قصص حاكتها مينا حول جدة محبة للطيور كانت من نسج خيالٍ حلّق فوق صفحات دفتر مذكراتها فقط. أما الآخرون فلم يروا في تصرفات الجدة أي عيب. كانت امرأة تحب الطيور وحسب.

في بداية الأمر لم تكن مينا تدرك أنها تحيك الحكايا وتختلقها، وحتى بعد إدراكها لذلك لم تستطع أن تفسر الأسباب الدافعة. فقط بعد أن تعرفت في نهاية ذاك العام إلى الفتى ذي الحقيبة الجلدية وبعد أن أطلعها على محتوياتها بدأت تستوعب الأمور. طالما اخترعت أحداثاً تنسج منها قصصاً وحكايا تبقيك يقظاً طوال الليل تقرأها حتى يدب النعاس في عينيك، قصصاً تتمنى ألا تنتهي حتى وهي

تشوقك لتمضي حتى النهاية، قصصًا تزخر بالأبواب المغلقة وإن ترك المفاتيح بين يديك، قصصًا لا يصدقها إلا البعض وحتى البعض يصدقون بعضًا منها. هكذا كانت طبيعة القصص التي خطتها يراع مينا في مذكراتها طوال العام. أحداث تغدو قصصًا دون جهد واع منها. كل ما في الأمر أن تدوين المذكرات أصبح هاجسًا تملّكها فاستحالت مقاومته. لم تدون ما هو عبثي أو ما اتصل بجو معين. مرّ كل شيء عبر عدسة مذكراتها، كل حديث، كل تجربة، كل فكرة، وكل شعور. خواطر شتى تراوحت بين موضوع فقد الدين إلى فقد العذرية. أصبح دفتر المذكرات شاهدًا على ما يختلج داخل شابة صغيرة تعيش في مجتمع فظ نزق على مفترق طرق وتقاطع غايات. ما ساعد مينا على تجنب حم هذا المجتمع الغاضب هو أنها لجأت إلى الكتمان وأن أيًا لم يكن ليكثرث لما تدونه طفلة لا تتوقف عن الخربشة. وعلى الرغم من أن ما مرت به مينا من تغيرات لم يفق سرعة تلك التي حلت بالبيئة الصحراوية التي انتهكتها مشاريع البترودولار، فقد اعتُبر تغيرها أخطر مما يروق للقيّمين على العادات والتقاليد ممن نصّبوا أنفسهم أولياء على البشر ما لم يتدخل المال في حساباتهم.

لم يكن هناك دفتر مذكرات واحد بل دفاتر بدأت تغزو غرفة مينا. احتلت كل ركن وزاوية دفاتر وقصاصات ورق أرادت أن تنقلها إلى دفاتر أخرى. منها ما وجد طريقه إلى تحت السرير، أو بين المسند والفراش، وراء المزيّنة، أو على الأرفف بين الكتب. كانت المخابئ وعدًا بالسرية، فهي لم ترد أن يقرأ أحد كلماتها وإن

تلذذت بتخيل ما سيكون عليه الأمر إن استبد الفضول بأحد. فما الذي ستكون عليه ردود فعله إن اكتشف قصص الهروب الصعب، ومغامرات النجاح والفشل، وقرارات الآن الآن وليس غداً. لطالما تخيلت أعيناً تحوم حول كتفيها ترقبها وهي تكتب وإن اعتبرت هذه الأعين كمصدر تحدٍّ وليس مصدر تهديد. ولم تتنبأ بأنه عندما يصبح المتخيل واقعاً ستختلف الصورة وستغيب لذة التحدي لتحل محلها دوامات الخزي والشعور بالذنب.

أتت الكارثة الأولى بعد مضي عامين كاملين وفي نهاية صيف زخر بنزهات سرية في سيارات الآخرين وحفلات موسيقى صاخبة حتى ساعات متأخرة من الليل في غرف الأصدقاء. عادت مينا بعد ظهر أحد الأيام القائظ لتجد دفاتر مذكراتها وقد نُصِّدت بأكوام مرتبة في كل أركان الغرفة حتى بدت وكأنها ناطحات سحاب في مدينة نيويورك. جلست أمها صامتة فوق السرير وقد أشرعت في حضنها آخر مذكرات كتبتها مينا. قد يسهل وصف التعبير الذي علا وجه الأم بالصدمة وإن لا تفيه الكلمة حقه، فقد كان أقرب إلى ما يعقب الصدمة عادة. كانت صامتة بلا حراك كذروة جبل من جبال الهيمالايا، كأن الأعصاب المتفرعة تحت جلدها لم تعد قادرة على الاستجابة لأي تحفيز، ولا خلايا دمها قادرة على الانسياب المنتظم في أوعيتها الشعرية. لم تتحرك الوالدة من مكانها عندما دخلت مينا الغرفة، لكن عينيها المرهقتين حدقتا إلى عيني ابنتها كما لو كانتا تبحثان فيهما عن شيء أَلِفْتُهُ.

«أصحيح ما كتبته؟ أهذه كلماتك؟ وهذه القصص المروعة عن عائلتي هل هي صحيحة؟ هل قمت فعلاً بهذه الأفعال الشنيعة؟» وجدت مينا من الصعب جداً أن تقطع صمتها وتقدم تفسيراً معقولاً، وكيف تستطيع ذلك والدليل الدامغ أمامها باهر كضوء الشمس، كيف لها أن تشرح لها أن الصدق يمكن أن يأخذ أكثر من بعد ويمتلك أكثر من وجهة نظر، وأنى لها أن تقرر فيما إذا كانت الكلمات التي سالت من قلمها والتي ما فكرت يوماً في كبحها قد انطوت على ما يتصل بالصدق. وإن تكُ كتابة المذكرات فعل صدق فهي في الواقع المكان الذي طالما تُفككُ فيه الحقيقة، تُقوَّض ليعاد تركيبها على شكل يغير ما كانت عليه. لكن المقام لم يكن ليسمح لمينا أن تقدم مثل هذه الفلسفات. كان صمتها علامة إقرار بالذنب. أقرت في نفسها بأن ما تسببت فيه كتاباتها من انهيار لدموع سخية على وجنتي والدتها هو عقابٌ أشد إيلاماً من رب شديد العقاب لم تكن تلجأ إليه أصلاً. لن تتمكن مينا أبداً أن تعيد إلى وجه أمها ما تحطم، على الأقل ليس في ذهنها، ذلك الذهن الذي وصفه يوماً بدوي معتدٌ بنفسه بأنه ذهن متقد.

هناك حل واحد لا غير، هذا ما فكرت فيه مينا: أن تحرق المذكرات. أن تحرق كل دفتر وكل قطعة ورق وقصاصة تركت عليها كلماتها لعل ذلك يمحو خيانة العهد والشعور بالخزي. أحضرت أكياساً كبيرة من النوع المخصص للقمامة والذي تفوح منه رائحة النفط وبدأت بملئها بالمذكرات طبقة فوق طبقة. كان هناك بالضبط

مئة دفتر، جميعها أسود، مجلد، وله زوايا حمراء. لم تسمح لنفسها بأن تتحدى في التفكير في ما احتوته الدفاتر فقد كان ذهنها كفراشة صحراوية كبيرة ذات أجنحة سميكة، وبكل رفة ترفها نحو الأسفل كان يلتف في داخلها حبل يعتصرها عصرًا. هذا ثمن الخيانة وكفارتها. لو عرفت مينا أن الموت آتٍ دون رادٍّ له، وأن الحياة يمكن أن تُختلس في غمضة عين، هل كانت ستمضي في حرق مذكراتها؟ ربما.

كان مشهد النار المتأججة احتفائيًا. لم تنتقص الرائحة الكريهة المتصاعدة من الأكياس البلاستيكية المحترقة واللغة المغتصبة من مهرجان الولادة الجديدة المتخيلة. دعت مينا والدتها الحزينة ووالدها الحائر إلى المشاركة في طقوس الاحتفال الليلي. عبرت أمها عن امتنانها للفتة التي قامت بها ابتتها باحتوائها بين ذراعيها برفق وضمها. أما والدها الغافل عمًا اكتشفته زوجته مؤخرًا فقد عجز عن تفسير ما يجري. لم يكن لأحد، بما في ذلك مينا، أن تخبره بما حصل، ولم يلحّ هو في السؤال. في صباح اليوم التالي لم تستطع مينا أن تغادر فراشها. ارتفعت حرارتها، وتأججت أحشاؤها وأحست برئيتها ومعدتها وكأنها تنخلع من مكانها. أدركت كم كانت أحداث الأمس عنيفة ولم تكن متأكدة إن كان في مقدورها التغلب على هذا الشعور القاسي الذي تملكها. شعرت بأنها تنكمش فتصغر وتصغر حتى تصبح في حجم فرخ ضفدع في حوض سباحة عفنة. راحت تنن طوال فترة بعد الظهر.

بعد الحدث المدوي الكبير الذي شهده عام 1987، أصبحت

حياة مينا أكثر تنظيمًا. استمرت في تدوين مذكراتها وإن لم تعد تحتلق الأحداث وتنسج الحكايا. فمذكراتها الجديدة رصدت الأحداث اليومية وإن لم تخلُ من بعض الإضاءات الخفية. فقد اخترعت لنفسها شيفرة سرية ورموزًا غامضة لا يمكن لأحد غيرها أن يفكها وإن انغلقت حتى عليها ذاتها أحيانًا فقد كانت من الإبهام ما جعلها بعد سنين أو حتى ساعات تنسى دلائلها. الأربعاء، 19 إبريل، 1989. كان درسًا ممتعًا حول الشعر الرومانطيسي يعني ببساطة أنها فعلاً استمتعت بالمحاضرة أو أنها أقامت علاقة جنسية مع الفتى ذي النظرات اللاهبة، الذي يجلس في الصف الرابع من الفصل. الثلاثاء، 29 مايو، 1990. رغبة قاهرة. قد تعني كبح جماح شوق غير متوقع قد انتابها فأربك شعورها بالرضا، أو قد يفيد بأنها مجرد تمتعت بوجبة فطور لذيذة.

لأكثر من عقد من الزمن لم تتعدّ المذكرات بضعة سطور مشفرة، ثم، حلت الكارثة الثانية، كارثة ما كان لها أن تدون بشيفرة ولا أن يختصرها رمز.

الأحد، 9 سبتمبر، 2001. ماتت أمي. عبارة عَنَت أن المرض قد أنهك جسد والدتها الداوي لعشر شهور طوال، وأن الأنابيب والأجهزة الطبية قد وجدت طرُقها إلى هذا الجسد. رحلت إلى الأبد بعد ظهر يوم هادئ بعد أن استكانت في نوم عميق مُبَيَّت لا عودة منه، قط.

بعد مضي خمس عشرة سنة على إحراق مينا طفولتها ومراقتها بل ذاتها، بدأ شعور الندم ينبض في داخلها مُلِحًا لجوًّا. شحَّت كتابة المذكرات وقَلَّ مَعِينُهَا وتفاوت انتظامها. لم تُعد هناك حاجة إلى الكلمات في زمن أغلقت فيه أبواب الأحلام المشرعة كما تغلق واجهات المحلات في سوق الذهب وقت صلاة الظهر. القُدُرات المكبوتة الكامنة في داخلها تصلبت كعقدة لا تلين. توقفت دوامة الحكايا التي استُلِهمَ نصفُها من الواقع ونُسِجَ النصفُ الآخر من الخيال. نضبت. أحست بنفسها محبطة كسراب يُومي ولا يروي. أصبحت، ما كان يخشاه الأطفال الموهوبون الواعدون وما يقض مضاجع مدرسيهم: فتاة عادية. وغدت حياتُها من دون كتابة لا طعم لها كوجبة بائنة من حبوب الصباح. كان من الممكن أن تتعايش مع هذا الوضع الجديد، ذلك أن الأحداث الاستثنائية استمرت في تواترها حتى لو لم يكتب عنها أحد. لم يكن غياب كلمات تكتبها في الحاضر ما أرهقها بل كان جَزَعُها وأسفُها على كلمات مضت.

انتابها هذا الشعور في الصباح الباكر وهي في حديقة والدتها التي لم تكن ثرَّة بما يبهر على العكس من غرفة جدتها. جذبت الحديقة أعدادًا من العصافير التي كانت تألف المكان لتشرب الماء باردًا من الصحن الفخاري الذي يتدلى من غصن شجرة السدر الوارفة. كانت والدتها تتعمد ألا تنسى ملء الصحن بالماء كل صباح عند الفجر. بعد موت الأم، حرصت مينا على القيام بنفس المهمة وإن لم يرق لها الاستيقاظ المبكر. من وقت إلى آخر كانت تتأخر في النوم

فتروح العصافير الصغيرة تنتظر لاهثة ناصبة لعدة ساعات ينظر بعضها إلى بعض في دهشة عبر الصحن الفارغ. في صباح أحد الأيام استيقظت مينا مبكرة لتُجَنَّب نفسها الشعور بالذنب تجاه العصافير الظمأى. قدمت إليها الماء البارد ثم استلقت على العشب ومدت أطرافها.

لم تكن الشمس عمودية بعد وكانت هناك نسائم منعشة من الهواء تجعلك تنسى أنك منذ شهرين فقط لم تكن تجرؤ على الجلوس في الهواء الطلق ولو لخمس دقائق فقط بعيدًا عن المكيفات. وكما يفعل الجميع عندما يكتشفون أن لديهم فسحة صغيرة من الزمن، نصف ساعة أو أكثر أو أقل، قبل أن يباشروا عملهم أو ينشغلوا بمهام صغيرة أو يقوموا بواجبات كان غيرهم يقوم بها في الماضي، راحت مينا تسرح بأفكار خطرت في بالها كيفما اتفق. تتزاحم الأفكار المتملمة في ذهنها لدقيقة أو اثنتين لتغادره سريعًا بعد ذلك. أخذت إصبعها تداعب سررتها، ذلك الكهف المضحك الصغير الذي ربط جسدها يومًا بجسد أمها بحميمية آسرة. حطَّت بتلة شاردة من زهرة المجنونة على جسدها العاري.

الاسم الذي يُطلق في الكويت على شجرة الجهنمية هو المجنونة، والذي يرد دائمًا بصيغة المؤنث. نعم، مجنونة لأن أزهارها فوشية اللون تتكاثر بوفرة مذهلة إلى حد الجنون على الرغم من الحر الشديد والجفاف. أعجبت مينا بهذا النوع من الجنون وبربطه دائمًا بالمؤنث، فهي - كاتبة المذكرات - طالما تخيلت نفسها منذ صغرها

وهي تدون ملاحظاتها ورؤاها المهيبة المتهيبة على مئات، آلاف، بل ملايين البتلات المجنونة بحبر من ذهب قبل أن تطلقها في سماء ذات زرقة مأساوية كزرقة البحر الأبيض المتوسط. ثم تتخيلها وقد استحالت غيمة ضخمة قوامها بتلات وردية وريش مذهب من دون أجساد طيور. فكرت فيمن يمكن أن ينظر إليها من الناس متوقعين أن يجدوا حمامة فحسب ليكتشفوا بدلاً من ذلك كرة فوشية ذات حفيف بادٍ تحوم فوق رؤوسهم منخفضة بما يكفي لأن يمد أحدهم يده إليها ويمسك بها. سينتهي بهم الأمر بأن يمسك كل واحد ببتلة واحدة فقط، فمن كان محظوظاً وجد في البتلة معنى وعبرة، وإن لم يحالفه الحظ وصادف أن يقف بجانب شخص تلقف البتلة الوردية السابحة الاستثنائية، فإن نوعاً من التبادل يمكن أن يحدث. فعلى سبيل المثال، يمكن لعبارة -قد يكون من غير المنطق أحياناً أن تتوقع أن يعكس العالم ردود أفعالك ويماثلها- أن تستعاض بفكرة أخرى هي -أن الصبار الذي يشبه الخرشوف ليس سوى نعمة لُفَّت بعناية. أو أن تستبدل الفكرة القائلة -أن تترك وحيداً في مكان موحش لا يعني سوى أن الفرح خفي وليس غائباً- ويفضل عنها عبارة -قد لا يقود الدرج إلى أي مكان وقد تؤدي الأبواب إن فُتحت إلى هوة سحيقة. ملأت مينا مذكراتها بأقوال كهذه تصطنع الكرم وإن ينقصها التواضع ظانة أن أفكارها ستلهب سماء الصحراء وتؤججها في يوم من الأيام كما لم يحدث من قبل قط.

حاولت مينا أن تزيع زهرة المجنونة عن سرتها بسبابتها وإيهامها من دون أن تصيبها بسوء، لكنها لم تفجح. انسحقت البتلة تاركة وراءها غبارًا وردّيًّا أثريًّا كالذي تُصنَعُ منه الذكريات. انتشت في البداية وهي تعبُ أنفاس غبار الذكرى. بتلات فوشية اللون وحرير ذهبي وريش ببغاء وحقائب غامضة وكتب مقترحة وساحر أوز. لكن ذكرى أخرى راحت تغطي على كل ما جال في ذهنها من ذكريات. ناطحات سحب من ورق تهوّم أمام عينيها ثم تتهاوى. بدأت تتراءى زوايا بمثلثات حمراء تنزف دمًا ملطّخةً غلالة الذكريات الرقيقة رقة الموسلين الأبيض. أحست بضياح كل دقيقة مرتين، ضياحها بين ألسنة النار أولاً، وضياحها في الزمن الذي ولّى ثانيًا. وما بدأ بشعور بسيط بعدم الارتياح استحال قلقًا رهيبًا كأنه كتلة عملاقة استقرت في حنجرتها. لم تعد قادرة على البلع وتمنت لو كان في وسعها أن تتقيأ الصفحات التي احترقت وصارت رمادًا. ما الذي اقترفته؟ ما الذي ارتكبته؟ ها هي تهبط داخل جحيم من صنعها، جحيم على شكل دفتر مذكرات. ها هي في الثلاثينيات من عمرها بماضٍ ضائع وولّى إلى الأبد، ومستقبل لم تتضح معالمه. لقد نضت عنها جلد الكتابة بسهولة فائرة. وها هي الآن تدفع ثمنًا لم تتوقعه في البداية. هي لم تعرف كيف تكنس الرماد وتعيده إلى حيث كان كلمات.

بعد ذاك الصباح في الحديقة، بعد الغصة في الحلق، أصبح الهلع يصيب مينا في أي مكان وأي زمان. لم تكن هناك محفزات معينة كما

فعلت زهرة المجنونة على الرغم من أنها بدأت تعتاد قراءة العالم
وكأنه سلة تزرع بعلامات ورسائل أرسلت خصوصاً لها. تغلغل
هذا الإحساس إلى اللاشعور يستحكمها كما الحركة العصبية:
تستعرض في يومها الأشياء من حولها محاولة أن تحدد أيًا منها
سيقذف بها ويعيدها إلى السنوات التي تعجز عن إعادة كتابتها.
أي دلالة ستملاً فمها بطعم أسمنت لا تقدر على التخلص منه مهما
غسلت فمها؟ هل ستجدها في شق تنورتها الكحلية ذات الثنيات؟
أهو الضوء الذي ينسل من ثقب الباب؟ أم قلم الرصاص الأحمر
الذي طحنته الأسنان والذي تدلّت منه بوصلة بلاستيكية صغيرة؟
أهو ذاك الصندوق الكرتوني الأبيض الذي رمي مع القمامة والذي
يبلى كل يوم أكثر من سابقه؟ أم هو القارب الورقي الذي يحمل
آثار لطخ الأصابع؟ السمكة في الصينية الفضية الثقيلة؟ أعدت
في ذهنها التعليقات والمسميات المناسبة للدلالات التي بدأت
تتضاعف من حولها وسجلتها كمشاهد التقطتها عدسة كاميرا
بولارويد الفورية:

شق في قماش كحلي

ضوء متسلل

قلم وأسنان طاحنة

صناديق تبلى

قارب مطوي

سمك

بينما احتفظت بهذه العناوين في ذهنها فقط، فقد دونت تلك الأخيرة بعناية في دفتر رخيص من ورق أعيد تدويره اشترته مؤخراً من السوبرماركت. سمك.

لكن المزيد، ويا للغرابة، جاء ومن غير سابق إنذار، بعد سنتين من قوائم التعليقات والعناوين، بعد نوبات ضيق النفس، بعد سبع عشرة سنة من موت المذكرات.

الأربعاء، 21 يوليو، 2004. عندما توفيت أُمِّي قام سمك البحر بعملية انتحار جماعية. قذف البحر إلى الشاطئ بملايين الملايين من السمك النافق وفاحت رائحة الأجسام العفنة في كل أرجاء البلاد. كان ينبغي أن تعلن حالة الطوارئ، لكن هذا لم يحدث. فقط المواطنون المدنيون استجابوا كلٌّ بمعرفته مهما كانت هذه المعرفة بسيطة أو غريبة. سار بعضهم على طول الشاطئ الفضي وهم يهزون رؤوسهم حزناً وخيبة وقد غطوا أفواههم وأنوفهم بأغطية رؤوسهم وبأيديهم. وبقي البعض الآخر في بيوتهم ليجنبوا أنفسهم استنشاق الهواء الفاسد كما فعلوا أيام الآبار المحترقة. أعلنت السلطات العامة أن رأس السمكة فقط هو الضار بينما يمكن استهلاك لحم باقي السمكة من دون أن يضر ذلك بالصحة. لا لحساء رأس السمكة، نعم للذنب المقلي. اعترض خبراء الصحف على ادعاءات الحكومة لكن أياً منهم لم يقدم تعليلاً أو شرحاً. لم يهم الأمر لأنه لم يكن قد تبقى في البحر رؤوس أو أذنان سمك لتؤكل.

تهامس الناس في زواياهم الخاصة وتبادلوا أفكارهم القلقة.
لكن معظم الشعب تأقلم مع العيش من دون سمك. لكنني،
كشبح منسي في نهاية ممر معتم، لا أستطيع أن أستمّر في حياة لا
سمك فيها. أرثيهم وأرثي أمي وأرثي ضياع حياتي في صيغة
الحاضر.

جليد في الصحراء. لا في سويسرا ولا في ألمانيا ولا في
وسكونسون. ليس في مكان تتخذ فيه البحيرات قوامًا حليبيًا حيث
تتباطأ المياه في أواخر الخريف ثم تتوقف لبرهة من الزمن. أن تتزلج
في قلب الصحراء اللاهبة وأن تتوهج وجنتاك بالحمرة لأمر عجائبي
فعلاً يجعلك تعتقد أن أي شيء على الإطلاق يمكن حدوثه.

كنا نجتمع جميعًا في صالة التزلج في الساعات المبكرة من مساء
كل يوم أربعاء، وهو آخر يوم من أيام الأسبوع عندنا. نتحلق أمام
الصالة قبل أن تفتح أبوابها، نحدق إلى ما يخبئه الآتون من مدارس
أخرى من ضروب المنافسة ونتلقف أخبار ما يمكن أن يقام من
أنشطة في عطلة نهاية الأسبوع متسائلين إن كانت هناك حفلة تقام
هنا أو هناك. صالة التزلج فسحة متميزة، نجد فيها ألد بطاطس
مقلية ونسمع أغاني مايكل جاكسون وهي تلعلع في أرجاء المكان.
بطل، نجم، وحبیب بیللي جين كما أجمعنا على ذلك من دون شك
أو تردد. هناك في الحلبة نتعلم كيف نربط أنشطة حذاء التزلج،

نعرف أنَّ تبادل القبل ينطوي على بلل ولسان ووقت يُحتَلَسُ من الزمن. هناك في الحلبة فتیان وفتیات بأناملهم المرتعشة تتلامس أيديهم بارتياح تام. يغطي صوت مايكل على الأذان المترامي من المسجد في الخارج.

يأتي أليكس إلى الحلبة ليتزلج بكل جدية. هو يلعب الهوكي أيام الآحاد والثلاثاء، أما أيام الأربعاء فيستعرض مهارته في التزلج مندفعًا كالريح العاتية من أمامنا، يطلق نصلُ حذائه الحاد قوسًا من رذاذ متطاير كلما توقف بقوة من دون سابق إنذار. لا شك أن هناك أشباه أليكس في كل مدرسة، وسيمٌ مثله ورياضي وذكي. لكن أليكس مدرستنا كان في حاله ينأى عن الآخرين وكأنه يخفي سرًا ما وهو الأمر الذي زاد من سحره في نظرنا. افتتِنَّا جميعنا بأليكس، معبودُ ألماني فلسطيني. عرفنا بعد بضع سنين أن ابن عم له فجر نفسه عن طريق الخطأ في إحدى الحوادث. كان أليكس القاسم المشترك بين الفتيات وساحرهن الذي لا يقاوم. وكانت قبله منه في حلبة التزلج وإن لمرة واحدة لم تتكرر تضاهي قمة الفرح الوضاء. كنت في الرابعة عشرة، ربما في الخامسة عشرة، رفعت ذقني إلى الأعلى لألامس شفتيه. قبله عابرة فوق الجليد كمن لثم ثغر المجد نفسه. لم نتبادل الكلام. ما تبادلناه كان عنفوان شباب عُبِّي في رزم صغيرة خاصة. فجأة وللحظة عابرة كان أليكس بسترته العسكرية البالية لي وحدي، مُلْكَائي. لم يكن أليكس يبتسم كثيرًا، طويل القامة، كامل الأوصاف، قرين أدونيس، لكنه في تلك الليلة، وللمرة الوحيدة، ابتسم لي.

بعد سنوات سمعت أحداً، لا أذكر من، يقول إن أليكس قد أصيب بأذى، وأنه مهزوم مقهور. لم يكن هذا بعيداً عن التوقع فقد كان أليكس من الكمال بما لا يسمح له العالم بأن يستمر أو يبقى هكذا. في تلك الليلة وأنا عند إيلسا، لم أتمالك إلا أن أقفز على الفراش صائحة: «أنا قبّلت أليكس! أنا قبّلت أليكس!» لا شيء يضاهي قبلة أليكس في حلبة التزلج لا الآن ولا في أي يوم من الأيام.

~

اللهو بالمتفجرات

لم يكن الموت ضمن وعودهم. لم تكن هناك بطاقة سفر بلا عودة
وُجهتها الجنة، أو تعويض يناله الشهداء، أو حوريات يفترض بهنَّ
أن يكنَّ فائقات الجمال. بحثتُ عنهن في كلِّ مكان عقب الانفجار.
لا أثر لهنَّ. يمرُّ الوقتُ هنا من دون أن أدرك كيف يمرُّ. أعتقد أنني،
تبعًا لحساباتهم الزمنية، ما زلتُ فتى في الخامسة عشرة.

كان لدي أصدقاء يعرفون القنابل قطعة قطعة، وكنت أقفُ
بينهم مشدوهمًا وهم يهدرونَ بأسمائها وأرقام كلِّ طراز منها وقدراتها
التدميرية. يُمضي بعضهم اليوم بطوله وهم يعدُّون قوائم تشبه ما
يُعدهُ الفتية في أماكن أخرى من العالم، بفارق أن هذه الأخيرة تمتلئ
بأسماء نجوم الرياضة والغناء المفضلين. فاجأني أنهم لم يخفوا صورَ
الأسلحة والمدافع التي هجعت تحت وسائدهم، بدلًا من صور
نِسوة عارياتٍ ينتزعونها من مجلات مثل بلاي بوي. لدى صديقي
المفضل، رامي، صور منسوخة عن هذه المجلة... وكانت، أستغفر
الله العظيم، صورًا رائعة.

لم أكن أعير المتفجرات اهتمامًا. كرهت آثارها، ولم يستبد بي ما يكفي من الغضب كي أرغب في استخدامها ضد أعدائنا حتى. كلُّ هذا جعلني مختلفًا عن الآخرين. انعزلت عنهم، وبقيت غريبًا يرنو إليهم من بعيد، وكم راقني ذلك. كنت في الخامسة عشرة، يافعٌ يقرأ ألبير كامو ودوستوفسكي فما الذي تتوقعه مني؟ قبل بضع سنوات انطلقت الانتفاضة، ومعها تفجرت البراكين داخلي حممًا لا تقلُّ عمًا أصابَ أصدقائي. كلُّ مَنْ عرفني سخر متسائلًا عمًا أصابني من تغيير أيقظني من سباتي ليقذف بي من ركني المنسي إلى جحيم الشارع. «أخيرًا استفاق نمرٌ من كتبه وأمسك بالحجر! أهذا ما كنت تحتاجه لتُنزل رأسك من طيات السحاب؟» لولا أصدقائي، الذين تحركوا وانتفضوا وأيقظوا في داخلي ما أيقظوه، ل بقيت حَجَرًا مستكينًا. قد يكونُ الحجر سلاحًا، لكنه ليس قبلة. يمكنني أن أرمي حجرًا ويبقى ضميري نقيًا. لكنني أصدقك القول إن الطرف الآخر لم يكن يردُّ بالحجارة. ولجعل المعركة أكثر تكافؤًا لجأ البعض إلى إضافة أشياء أخرى أقلَّ براءةً من الحجر. عندها انكفأت عائدًا إلى أحضان سُحبي، فأنا ممَّن لم يُخلَق للقتال.

كنتُ أصغر إخوتي الأربعة، وكانت أُمي تقول دائمًا: «ثلاثة لي والرابع للقضية». وبما إنني كنت الأصغر فقد افترضت أن الأمر لا يعنيني. وكم كنتُ مخطئًا. لا تسيئوا بي الظن فقد كنت مهتمًا بالقضية وتمنيت كغيري أن أرى فلسطين محررة. ضقتُ بكوننا سجناء المكان، ضقتُ باضطرارنا إلى إبراز الوثائق الشخصية كلما تحركنا بين نقطتي

(أ) و(ب). أمّا أشدُّ ضيقٍ اعتَمَلَ في قلبي فكان أمام مشهد والدي يستذكرُ باستماتةٍ صورةَ قريبته مقطَّعةَ الأوصال، أو رُكبتِي جدِّي وقد هَشَّمَتِها الحجارة. ومع ذلك، فقد كانت لديَّ همومي الخاصة التي شَغَلَتْ معظم الوقت، كالفتيات والتقرُّب منهنَّ. تُقْتُ إلى مصاحبة واحدةٍ، واعتقدتُ بأنني أحرزت تقدُّمًا في تقرُّبي من سيرين. كان لسيرينَ شَعْرٌ طالما ذكرني بشعر ميدوسا في أساطير الإغريق، والتي رأيت صورةَ لها في كتاب عن الفنِّ احْتَفَظَ به والدي في مكتبته ذات الأبواب الزجاجية، التي احتوت أيضًا، من بين ما احتوته، قاموسَ أكسفورد الإنجليزي، وأطلس تايمرز للعالم، وكتابًا عن تشريح جسم الإنسان ذا غلاف لامعٍ. أخافتني سيرينُ قليلًا فقد وجدتُها جامحة بعض الشيء، رغم أنني كنت متأكدًا من أننا خُلِقْنَا لنكونَ معًا. كانت تسكن بجوارنا ما سهَّلَ لقاءنا، تتأملها عيناها، فتشبح ببصرها سريعًا، لترجعَ النظرَ برويةٍ ما أوحى لي بأنها تكنُ مشاعر تُجَاهِي.

ذاك ما كان. لكنني كنت أرغب، أيضًا، في أن أصبح كاتبًا أو أستاذًا جامعيًّا أدرِّسُ الأدبَ. ربما بدت هذه الرغبة غريبة لمن هم في سني المبكرة تلك، لكنها كانت حُلْمًا تمنيتُ تحقيقه أكثر من أي شيء آخر. لم أستطع أن أخبر أحدًا بحلمي، ليس لأن طلبَ العِلْمِ لم يكن من أولويات والدي، فلطالما سمعتُ والدي يردُّدُ أن باستطاعة الآخرين انتزاع كلِّ ما تملك، لكنهم لا يستطيعون اختلاس ما لديك من معرفة. الشَّهادةُ الجامعية جوازُ سَفَرٍ إلى كل مكان. ومع ذلك،

فكل ما يُحَصِّلُه شابٌ فلسطينيٌّ من عِلْمٍ وما يحرزه من شهادات لن يؤمِّنَ له عملاً في لندن أو نيويورك، أو حتى في الكويت. إضافةً إلى أنني أصلاً لم أُرد أن أغادر الضفة الغربية. كانت جامعة بيرزيت في نظري مثيلة هارفارد، أو أحسن. آمن والداي بأهمية التعليم وتمنيا أن أحصل على شهادة في الطب أو الهندسة أو الحقوق أو الهندسة المعمارية. أحبّ والدي الأدب ولكنه لم يجد فيه المهنة المناسبة لأصغر أبنائه، وأكثرهم ذكاء. حاولتُ أن أوارى عنهما آمالي، فلم أكن على استعدادٍ أو قدرةٍ على المواجهة. ما لم أستطع أن أواريه عنهما هو زيارتي المتكررة للمكتبة، ورأسي المدفون في الكتب. حتى الآن، يمكنني أن أركزَ بصري وأطيلَ النظر مُدَقِّقاً في نقطة أمامي لأعود إلى الوراء، مُستذكراً جلستي، حيث اتكأتُ على الجدار في زاوية من زوايا حديقة بيتنا الصغيرة، قرب رف تُخزَّنُ والدتي فوقه زجاجات خُصراً. أغرق في رواية أقرأها أو أخطُ صفحاتٍ في دفترتي، بُنيّ اللون، تاركاً العالم يتفجّر ورائي. تصرخ أُمِّي وتلحُّ عليّ أن أبتعد عن جدران المنزل: «يا الله يا نمر، تحرّك!» لم أكن لأتحرك من مكاني إلّا وأنا متأكد من أن سيرين ذاهبةٌ أو عائدةٌ من مكان ما في تلك اللحظة.

بالمناسبة، أعتقد أن اسمي أجمل اسم في الكون. فمن لا يريد أن يكون نمرًا؟ أتخيلُ قهقهةَ والديّ يومَ سَمَياني، أو حين ينصتانِ إلى إعجابي باسمي. لستُ متوحشًا كالذي أحمل اسمه، ومع ذلك فقد كنت جسورًا مندفعًا إلى حدٍّ ما. لي عيانان داكتان خارقتا النظر،

مسبلتان كهلالين صغيرين. شفتاي بالحجم المناسب، ليستا ممتلئتين
كشفتي فتاة، ولا رقيقتين كشفتي مسنّ. أنفي معقوف قليلاً،
ولكنني أراه أنيقاً كأنوف قدامى الرومان. كنتُ طويلًا أتجاوز
الـ180 سم بقليل، ونحيلًا، بل هزيلًا ربما إن قارنتني بأصدقائي
مفتولي العضلات وممتلئي البنية. لم يكن ذاك يضايقني على الرغم
من أنه قد ينتقص من النمر الذي وددت أن أكونه اسمًا على مسمى.
العيْبُ الوحيد في شكلي هو أنني كنتُ أجردَ. لا تسىء فهمي! كنتُ
كثيفَ شعر الرأس، أسودّه. بل كسا الشعر الكثيف، الداكن،
مناطقَ أخرى من جسدي إلّا وجهي الذي خلا سوى من زغبٍ
خفيفٍ، وكذلك صدري الذي بقي أجردَ بكامله، وساقَيَّ اللّتين
خَلَّتَا سِوى من بضع شُعيرات متناثراتٍ. ألمني ذلك، وأشعرتني
بنقص في رجولتي خاصة أني حملتُ اسم «نمر».

أحبني أصدقائي فقد ظنوا أن لدي روح دعابة سوداء تناسب
حياتنا البرزخية المجنونة. كنت أسليهم وأدخل السرور على قلوبهم
حتى ولو أثار نيرانَ غضبهم عدمُ استظهارِ قوائم الأسلحة
أمامهم أو عدم تدخيني سجائر المارلبورو. في الأغلب كنت أقرأ
لهم مقاطع مما كنت أدونه في دفثري على سبيل تمضية الوقت. إليك
مثالًا على الأشياء التي كنت أحب كتابتها:

مع كل ثانية تمرّ كانت كرش عمو موسى تكبر. يقسم إن
السبب في ذلك يعود إلى الماء، فالصّهانية في رأيه يحقنون الماء
بهرمونات تؤدي إلى الإصابة «بمتلازمة البطن المنفوخ». أمّا

تعليل ذلك فهو التآمر على الفلسطينيين الذين إن انتفخت بطونهم لن يسعهم القتال. وعندما أذكرُ عمو موسى بأنه الوحيد الذي يحمل كرشاً تضاهي قبة الصخرة يطلبُ مني أن أصبر، وأنتظر حتى أرى كلَّ من هم حولنا يترنحون في مشيتهم مثله تماماً. لا أستطيع أن أنزع من ذهني صورة عمو موسى في مقدمة حشود تشابهه في كروشها موثقي الأطراف من وراء ظهورهم، بحبالٍ من حرير، يخلِّقونَ بسلامٍ في سماء فلسطين على هيئة مناطيد.

ولأنَّ أصدقائي كانوا يعجبون بسردي لهذا النوع من القصص، ويكنُّون لي المحبة والودَّ، فقد تعاطفوا في معظم الأحيان مع حقيقة كوني أجرد، وإن كانوا قد ألمحوا بشكل غير مباشر إلى أن المشكلة الوحيدة الممكنة هي في احتمالية عدم تقبُّل الجنس اللطيف لهذا الأمر. قلقتُ لهذا وأنا في الرابعة عشرة من عمري، وفي معظم سن الخامسة عشرة، إلى أن همست لي سيرين مرةً بأنها تحبُّ وجهي الناعم الصَّقيل، خاصة أنه لم يكن ليخدشها عندما نتبادل القبل. لكنني أستبقُّ الأحداث في سردي.

السؤال الذي يطرح نفسه: كيف لصبيٍّ في الخامسة عشرة من عمره، يطمح إلى أن يكون كازانوفازمانه وأن يحصل يوماً على جائزة نوبل، أن يفجر نفسه؟ لأجيب على هذا السؤال يتحتم عليَّ أن أعود بالذاكرة إلى عشرة أشهرٍ سبقتُ يوم وفاتي. كنت في الرابعة عشرة منشغلاً، كما فعلتُ في سنتي التالية، بأموري الصغيرة: الفتيات،

المستقبل، جسدي ومشكلة الشعر. حدث ذلك في صبيحة أحد أيام شهر ديسمبر من عام 1989. كان الجو مُنعشًا والسماء شديدة الزرقة تكادُ تبدو سوداء. كنا نقف، أنا ورامي، خارج سور حديقتي، رامي الوسيم كأحد رُعاة البقر يدخن، وأنا أقف بجواره وقد وضعت يدي في جيبِي بنطالي الجينز. أغلقتُ مدرستنا مرة أخرى، ولم يكن لدينا الكثيرُ لنفعله. تمنيت لو أغلقتُ مدرسة سيرين أيضًا كي أتمكّن من رؤيتها أكثر. انضمَّ إلينا بعض الصبية أملًا في السطو على سجائر رامي. أعرفهم منذ نعومة أظفاري. غسان وطارق، الصبيان اللذان شاكسانا طوال مرحلة المدرسة الابتدائية. لم يكونا كأَي مشاكس يتعرض لك في باحة المدرسة. ثمّة شرٌّ ما يكمنُ داخل كلٍّ منهما. رأيتهما بأمّ عيني وهما يضربان الصبية في مواجهتهم ويطعنانهما أعلى أذرعهم بسكاكين الجيب. كانا صبيين يملأ الحقد والغضب قلوبهما، نشأ من دون أب يرعاهما، إذ قُتل والدُ غسان، وفقد والدُ طارق ولم يعرف أحدٌ إن كان ميتًا أو سجينًا. بذلت والدتهما ما في وسعهما لتقويمهما من دون أن تحرزا أي نجاح، فهما امرأتان أرهقتهما الحياة وغلبتهما، فتلقف الشارعُ الولدين يقضيان فيه وقتيهما منذ طلوع الشمس حتى مغيبها. عندما بدأت الانتفاضة وجد الصبيان قضيةً يتبنّاها. نظرًا صبيةً الحي. ادّعى معرفة شخصيات متنفذة، ولربما كان هذا صحيحًا فقد أجادا الدور. لم أكن لأسائل أحدًا في توجهاته الوطنية، وإن وجد غسان وطارق أخيرًا مخرجًا لما يعتمل في قلوبهما من غضب، فمن أنا لأشكك في نواياهما؟ من موقعي الراهن حيث أنا، أجد تلك العريضة المبهرة أمرًا تافهًا من دون أدنى شك. كان

غسان وطارق يبعثان الخوف في قلبي، ولم أرد أن أتعامل معهما من قريب أو بعيد. في ذلك الصباح كان جُلُّ ما أراداه بضعَ سجائرٍ من رامي لِيَمْضِيَا بعدئذٍ في طريقهما. انتابني شعورٌ مقيت.

تكرّر المشهد في الصباح التالي. أنا ورامي في نفس المكان. يتهدى غسان وطارق نحونا، يأخذان السجائر ويمضيان من دون تعليق أو سؤال. ضاقَ صدري. أدركتُ أنهما كانا يحاولان تقدير ردود فعلنا المحتملة ويُطِئنان أمرًا ما يتعلق بنا نحن الاثنين. في صباح اليوم الثالث، السابق ليوم افتتاح المدرسة لأبوابها، جاءا وبقيتا هذه المرة. أشعلا السجائر وأخذتا نفسًا عميقًا، نفثا الدخان من بين أسنانهما، أدارا النظر، بيني ورامي، ثم سألانا إن كنا نؤمن بفلسطين! فاجأني السؤال. توقعت منهما ابتزازًا، مضايقةً وإزعاجًا، استغلالًا من نوع ما، أي شيءٍ غير هذا السؤال المجنون حول ولائنا لأرضنا وأرضِ آبائنا وأجدادنا. أَسْقَطَ في يدي، فتركتُ المجال لرامي كي يجيب.

«بالطبع نؤمن بفلسطين!»، انبرى رامي قائلاً، ثمّة جِرسٍ غريب لصوته. كان رامي ولدًا طيبًا تمامًا كما تتمنى كلُّ أسرة، وكما ينشد كلُّ الأصدقاء. ارتاحَ له الجميع لهدوئه الدائم، ولُطفه وتهوينه كلِّ أمرٍ. فضلًا عن كونه غايةً في الوسامة، أكثرَ وسامةً مني حتّى، كان سارقَ قلوب العذارى. معًا، بدّونا مثل روبرت دي نيرو ومارلون براندو في شبابه (وإن أطول وأنحف). لم يرتح رامي لغسان وطارق فقد تعرضا له في السابق كما تعرضا لي ولآخرين من أصدقائنا. لكنه، على النقيض منا، لم يكن يخشاهما.

«من تظنان أنفسكم؟»، أجابها بإصرارٍ وانفعال. «فلسطين وطننا، ونحن مستعدّان لبذل الغالي والرخيص من أجلها». «طيب، هل أنتما مستعدان لتقديم الروح فداء لها؟» سأله غسان وهو ينظر إليه من شقّ عينيه.

«طبعًا نموت من أجلها! ألسنا نغامر بأرواحنا ونحن نذرع الطريق إلى المدرسة جيئةً وذهابًا كل يوم، ألسنا مهددين بالموت حتى عندما لا نحرك مؤخراتنا كلّ ليلة؟ ما الذي تتحدث عنه؟» أجابه رامي من دون أن يتوقف ليلتقط أنفاسه.

«ليس هذا النوع من الموت. هل أنت مستعدٌّ للتطوع وبذل الروح من أجل فلسطين؟»

سألته: «وكيف يكون ذلك؟»

«كأن ترتدي حزامًا ناسفًا لتفجّر جسدك في مقهى أو محطة باصات أو مدرسة».

ما كان عليّ أن أسأل. لم أجب، لكنّ الغضب بلغ برامي مبلغه. «بالطبع نحن مستعدان. سنفعل أي شيء». وجبّ عليه ألا يسمح لتلك العبارة بمغادرة شفثيه. أعرف رامي جيدًا وأعرف أنه لم يعنِ ما قاله. لكنه قال ذلك، وليته لم يفعل.

«حسنًا، أنتم الفلسطينيون الذين يهاثلوننا في الرأي. ستتصل بكم ونعلمكم في حينه. يا لكم من شباب طيبين».

يا له من أهبل ومعتوه طارق هذا. ما الذي جال في ذهنه ذاك

الأحق؟ لم يكن يكبرنا سنًا وبدا الأمر برمته أخرق بل يجب أن يتوقف في الحال.

«وداعًا!»، انبريت قائلاً، «علينا أن نذهب إلى البيت فوالدتي تنتظرنى». أدركت سخافة قولي، وعرفت كم هي قديمة حُجَّتِي.

«اذهب إلى أمك الآن أيها النمر الشرس، يلا! سنعاود الاتصال بك، سنُعَلِّمُكَ... في... الوقت... المناسب».

أدركنا أننا في ورطة.

انشغلت في تفسير الجملة. ما الذي سيعلمنا به؟ مضتُ شهوْرَ من دون أن نسمع منهما كلمة واحدة، ومع ذلك فقد شتتَ لقاءنا ذهني وتركني في حالة من التوتر الشديد. كنا نراهما في الجوار بعض الأحيان، وكانا يغمزان إلينا بعينين دنيئتين أو يطلبان السجائر من رامي. ومع ذلك فهما لم يُسرّا لنا بشيء. أنفقتُ ساعاتٍ مستعرضاً في ذهني ما الذي يبتغيانه منا. أفضل سيناريو تخيلته هو أن نكون مراسلينَ لهما، تنتقل بين الأطراف المعنية، الرفيعة منها والأدنى. تخيلتنا ننقل البنادق من يدٍ إلى أخرى، تخيلتُ فناجين من القهوة التركية تعلوها طبقة من الرغوة الفائرة تقدم إلى رجال مُهمّين. تخيلتُ خرائطَ وهوياتٍ مزورة تُحمل بسرية من ملاجئ تحت الأرض إلى منازل الأصدقاء والأسر. لم تكن تلك الخواطر سيئة. في وسعي أن أقوم بهذه الأعمال، بل كنتُ على أتم الاستعداد لها، حتى ولو كلفني ذلك كثيراً من الوقت. سأعتبرها مغامرةً ومساهمةً

مني في القضية. لم لا؟ قد يزودني ذلك بمادة لموضوع بحث أقوم به. حاولت أن أقنع نفسي بأن هذا هو أقصى ما سأقوم به. لم أستطع أن أبعد منظر عيني غسان الحولاوين الشبيهتين بعيني خنزير، وصوته الأَجَش عن ذهني. لقد أشار إلى قبلة وإلى تفجير أنفسنا في مدرسة أو مقهى. هذا ما يريدان إخبارنا به. أدركت ذلك من الحموضة التي راحت تتسلق جدار معدتي.

نسجت مخيلتي صوراً لأصابع ديناميت شددت على حزام مطاطي يحيط بخصري. تخيلت رامي وهو يقوم بمهمة تخزيمي، ثم تخيلتني أحزّمه بدوري. رأيتنا يقبل أحدهما الآخر على الوجنتين، ثم نرّبت بقوة على الظهر تشجيعاً. رأيت نفسي الهلعة ترقب ما تبلى من مقدمة سروالي. رأيت رامي يشيح بوجهه بقرف. رأيت نفسي أقرر البقاء ومع ذلك أمضي قدماً. رأيتنا ونحن ننسل بين الجنود متجهين نحو إحدى المستوطنات قاصدين مدرسة ابتدائية أو حضانة أطفال. رامي دائماً في المقدمة. أتمسّر في مكاني مراقباً رامي وهو يفجر نفسه. يتمزق صدره ويتطاير نتفاً، تنكشف أضلاعه المتكسرة. ينفجر رأسه فيصدر صوتاً كقطعة فقاعات بلاستيكية. تتناثر أحشاؤه من فتحة رقبته أشلاء. أرى جسده وقد صار هباءً. ثم أرى الأطفال. كُتلاً من أسنان وشعر وأصابع وأقدام. أرى كراتهم الممزقة ومجلاتهم الهزلية المحروقة. أرى أعينهم وقد أغمضت وصدورهم الصغيرة وقد همدت. وألحظ ضباباً شفيفاً وردي اللون يغشى المكان. أسمع صراخهم، وأشم جلودهم المتفحمة. ثم أتوقف. وسعني تصور

صديقي الحميم رامي وهو ينفجر ومعه كل الصغار الذين تخيلتهم.
كما وسعني أن أتخيل الأحداث وهي تتصاعد وأعيد تصورها بل
أستمع بقدرتي على التخيل. لكنني لم أكن قادرًا على رسم صورة
لموتي أنا، فهو ما يفوق الاحتمال. لقد كنتُ جبانًا.

بنهاية شهر يوليو كنت متأكدًا من أننا لن نفلت من قبضة غسان
وطارق وإن صرفتُ وقتًا أقل وأنا أهجس بما يخططانه لنا. أما رامي
فبدا وكأنه قد نسي الأمر برمته بعد انقضاء أسبوعين أو أقل من ذاك
اللقاء المشؤوم. استهزأ بمخاوفي كلما سَرَزْتُ إليه بها، وإن خَفَّتْ
وتيرتُها بمرور الشهور. ومع أنني أصبحت أقل توترًا وأصبحت
أمضي الأسابيع من دون أن أُلقي للمسألة بالًا، فقد عرفتُ، بل
تيقَّنتُ، أن الأمر لم ينتهِ بعدُ.

بحلول شهر أغسطس بلغتُ الجَنَّةَ. لا، ليس الفردوس الأعلى،
فأنا لم أمت بعد. أقصد جنتي على الأرض برفقة حورية تدعى سيرين.
ذكرت سابقًا كيف أنني وسيرين كنا في البدء نتبادل النظرات لا
أكثر. فعلنا ذلك مذ كنا في الحادية عشرة تقريبًا، في ذاك العام الذي
افترق فيه عالمي عن عالمها. ففي تلك السن فضلت الفتيات أن
يلعبنَ مع بناتِ جنسهنَّ فقط، وأن يبتعد الفتية عنهنَّ تمامًا. افتقدت
صحبة البنات، وبالطبع لم أعترف بذلك لأصحابي ممن انشغلوا
بصور النساء عوضًا عن الفتيات الحقيقيات. أعتقد بأنني أحبيتُ
سيرين مُذَّاك، بل منذ أن كانت طفلة صغيرة. لم أخبرها بعواطفني
ولم أُسرَّ إلى أحد من أصدقائي بمشاعري نحوها، لكنني أذكر أنني

أخبرت أمي عندما كنت في السادسة أو السابعة، أنني أنوي الزواج بسيرين عندما أكبر. لا أزال أذكر الابتسامة الصغيرة التي ارتسمت على شفتي أمي آنئذٍ معبرةً بحنانٍ فائق عن تأييدها. لأربع سنوات طوال لم تتخطَّ علاقتي بسيرين حدود النظر. ذاك الصيف، كنا نتوق إلى شيءٍ أبعد من ذلك.

كنا نقف، أنا ورامي، كعادتنا أمام بيتي. وكان الجوُّ حارًّا والعرق قد استبدَّ بنا. رأيت سيرين تمشي وحدَّها عائدةً من مكان ما. وكان رامي، أمير الأمراء، قد اختارَ تلك اللحظة بالتحديد كي يدخلَ إلى البيت لقضاء حاجة. لم أطلب منه ذلك ولا أعتقد أنه دخل البيت عن قصد ليخلي لنا الجو. ولم يفعلْ ذلك؟ لم أبادل سيرين كلمةً منذ دهور. وكما يعرف الجميعُ لم يكن بيني وبين سيرين أي شيء. ما إن رأيتي سيرين وحيداً حتى اتجهت نحوي كما لو كانت تلك عادتها. اقتربت منِّي جدًّا، اقتربت إلى درجةٍ صارَ في وسعي معها أن أشم رائحتها. كانت تتعرق بدورها، لكن عرقها، على عكس عرقي، يفوحٌ بالياسمين.

«كنتُ أراقبك».

«حقاً؟»

«هناك شق في سور حديقتنا أَسْرَقَ من خلاله النظر إليك. ما الذي تكتبه على الدوام في ذاك الدفتر؟»
«أشياء. عن الناس، وأمور أخرى».

«هل تكتب عني؟»

«نعم».

«ماذا كتبت عني؟»

«إنَّ شعرك يشبه شعر ميدوسا».

«هل تعرف أن شفتيك حمراوانِ كفلقتي رمان؟»

أتذكَّرُ كيف حاولتُ تهدئة أنفاسي. شعرت بقذيفة في أحشائي.
وشعرت بكتفيَّ وقد أصابها الخدر.

«لا، لا أعرف».

«هل تعتقد بأنك ستموت في ريعان شبابك؟»

تردَّدْتُ. لم أتبيَّنَ مقصدَ سؤالها. إن أجبتُ بالنفي فقد يقلَّل ذلك
من شأني في نظرها. وإن أجبتُ بنعم فقد أبدو لها أصوليًّا متعصِّبًا.

«لستُ متأكدًا. أتمنى ألا يكون ذلك».

«هل أعجبك؟» يا لها من فتاة جريئة.

«نعم، جدًّا».

«طيب، هل سنبدا إذا بالمواعدة؟»

«نعم».

وجدتُ الشَّقَّ في سورِ الحديقة. عبَّره كان في وسعها رؤيتي
وأنا في ركني الحميم. أما أنا فقد اعتمدت رؤيتي لها على مزاجها

هي. فأحيانًا كانت تجلس بخفيّ على أحد كراسي الحديقة تقرأ كتابًا. وأحيانًا أخرى، عندما يخرج أهلها ويخلو لها البيت، كانت تستلقي على العشب بحيث يرتفع قميصها قليلًا، بما يسمح لي أن أختلس نظرة إلى خصرها وإلى شهقة نهدتها أحيانًا. غدوت أحفظ عن ظهر قلب كل قطعة من جسدها: قدميها، ذراعيها، رقبتها. ودون سابق تخطيطٍ تبادلنا الأدوار، مَنْ سيستلقي ومَنْ سينظر من شق السور. وجب علينا أن نتوخّى الحذر كي لا يدركنا ذوونا بالجرم المشهود. كان الأمر مثيرًا. أمضيتُ أيامًا وليالي لا تسعني فيها الدنيا. كنا نمرر الرسائل عبر شق السور. كل ما كتبته في الماضي أتى لنجدتي الآن. إن وقعت سيرين في غرامي فهو بفضل ما كتبته لها من رسائل. أما رسائلها، التي لم تكن بمثل بلاغة رسائلي، فقد نمت عن اندفاع جامع طالما استشعرته في شخصها. في ذلك الوقت من شهر أغسطس جمعنا سرّ غرسناه في طيّ جلدينا. لم يلمس أحدهما الآخر، نادرًا ما اجتمعنا وجهًا لوجه، لكننا كنا معًا فيما نخطّه لبعضنا، ومن خلال شق السور.

في بداية شهر سبتمبر، قبل أيام من موعد بدء الدراسة المفترض - وأقول «المفترض» لأننا لم نعرف على وجه الدقة متى يعتبر الإسرائيليون دوامنا في المدارس خطرًا على أمنهم فيؤجّلوا الموعد أيامًا أو أسابيع أو شهورًا كاملة - مرّرت لي سيرين الرسالة التالية: قابلني هنا عند منتصف الليل. أحسست بركبتني تحذلاني بينما كنت أتمعّن في كلماتها. دفعتُ بجسمي نحو فجوة السور أسدّها لكيلا تلاحظ ارتعاشي.

كانت الساعات التي فصلت بين قراءتي رسالتها وحلول الساعة الثانية عشرة أسعد ساعات مرت عليّ طوال حياتي. بدا كلُّ شيءٍ مُحتملاً. نسيْتُ غسان وطارق، وتوقفت القنابل والقذائف عن السقوط. بدا لي أصدقائي الميتون وآباؤهم المفقودون وكأنهم يتزهون في حدائق مَلاي بأزهار المجنونة التي أينعت أواخر الصيف. بدا لي أنني أسمع أصوات أمواج البحر، وأنا لا نعيش في الضفة الغربية بل في مدينة ساحلية حيث وُلِد جدي. أنا وإخوتي أربعة لا حاجة إلى أن يُضَحَّى بواحدٍ منا كخروف العيد من أجل القضية. أَعَدَّ أصدقائي قوائم بأسماء نجوم الرياضة والغناء المفضلين. لم يعرف أحدهم شيئاً عن الأسلحة. كنا متفائلين وكنا متميزين. سنصبحُ أطباء ومحامين ومهندسين وكتّاباً، وسنغير العالم ومن فيه وطريقة تفكيرهم فيه. كنا من الرفاه بحيث أمكننا التفكير في الكون الفسيح خارج حدودنا: مشاكل المجاعات والأمراض، البيئة وإجراء التجارب على الحيوانات الحية، حروب الآخرين، وفي نفس الوقت كان هناك جمال النجوم وعجائب الطيور والأسماك التي تعرف طريق العودة إلى مواطنها بمحض غريزتها. فلسطين وطن كغيره من الأوطان تسير الحياة فيه بشكلٍ طبيعي وتجري فيه أحداث رائعة.

لم يصعب عليّ، ولا على سيرين أن ننسل من بيتينا عند منتصف الليل لنتقي عند سور الحديقة. لم يصعب علينا أن نتجاوز البوابة ونجدَ ممراً هادئاً تلفه العَتمة. لم يصعب عليّ أن أنظر في عينيها وأن

ألمس أخيرًا حواف شفتيها، رقبته، كتفيها، خصرها، وكل قطعة حفظتها في ذاكرتي. لم أستطع أن أحضنها بين ذراعي كما في الأفلام. فبعض الأشياء تبقى عصية على الفعل. فاحت أنفاسها برائحة البرتقال أو المشمش، لربما بكليهما. كانت ترتدي قميصًا أبيض - هل كان قميص نوم قصير؟ - فوق بنطال من الجينز. بقينا معًا في حدود عشرين دقيقة، لم ننس خلالها بكلمة واحدة، لكنها همست لي قبل الوداع: «غدا، في نفس المكان».

وهذا ما كان. نفس المكان والزمان. طوال الأسابيع الأخيرة من الصيف أو تلك الأولى من الخريف، نكرر ما بدأناه. نلتقي في الممر المعتم، أقبل أجزاء من سيرين، ألمس مزيدًا منها، ونبادل تساؤلًا تنامسين.

«هل تأكل الزيتون عند الفطور؟»

«نعم، هل تحبين السباحة؟»

«نعم. ماذا تريد أن تصبح في المستقبل؟»

«كاتبًا. وأنت؟»

«عالمة رياضيات. أفكر دائمًا في الأرقام والأشكال. بم تحلم؟»

«بك. وأنت؟ بم تحلمين؟»

«بالرقص على الشاطئ حتى الفجر مرتدية ثوبًا فضيًا».

«هل كنت تعلمين أن أصابعك تشف في الضوء؟»

«نعم. هل تعلم أن لك وجهًا صقيلاً كالزجاج؟ يجعلني أرغب في أن ألعقه».

شعرت بالخزي (وجهي الأجرد!) وفي نفس الوقت بالإنارة (تريد أن تلعق وجهي!).

يمكنك أن تتخيل كيف كانت حياتي في شهر سبتمبر، كمن يقفز من فوق بناء شاهق، أو يسير تحت الماء. لم أكرث لشيء مما يدور حولي طوال اليوم حتى يحين منتصف الليل. الآن أعرف أن الجزء الثاني من قصتي قدّر له أن يحدث تمامًا كما حصل. فالشيطان يدخل حين تشعر الملائكة بالاطمئنان. أشير إلى الشيطان والملائكة لا لأنهم هنا، فهم كالحوريات لا أثر لهم، وإنما لأنهم على أفواه الجميع. أن أنظر إلى عالمكم من مكاني هذا، وهو أمر يصعب عليّ فعله، يتطلّب مني بحارًا من التركيز وجبالًا من الصبر. لكنني، الآن، أدرك أن لكل شيء إذا ما تمّ نقصان. ففي اللحظة التي يتحقق فيها الخير تنهال تلال من الشر. هذا واحد من الأشياء التي تبصّرتها وأنا في مكاني الخاوي على عروشه. يدفع والداك كل ما ادّخراه من مال لشراء بيت جديد، تأتي الجرافات لتسويه بالأرض وتسحق أخاك الأصغر. تجد العمل المناسب، فتمرض والدتك وتتركه لتفرغ لرعايتها حتى اليوم المشؤوم. بعد سنين من الانتظار والتأخير يعثر الأطباء على كبدٍ يناسب صديقك الحميم، يموت الصديق في السيارة وهو ينتظر في نقطة تفتيش يتحكّم فيها جنودٌ غيرُ مبالين، المشفى على بعد خمس عشرة دقيقة. هذه الأمور تحدث

طوال الوقت. لو عرفت وتيرة حدوثها لما رغبت في العيش أو قدرت عليه. أو لعشت ربما ولأول مرة دون شياطين أو ملائكة.

على أي حال قد يتأخر الشرُّ لكنه يأتي، وقد أتى تمامًا كما توقعت. منتصف شهر أكتوبر، الطقس بديع، منعش يحمل كثيرًا من التوقعات. كنا، أنا ورامي، وقد غدونا أمراء الصِّبا والمجد، عائدَيْنِ من المدرسة. من طرف عيني لمحت غسان وطارق. أولاد المنيوكة. أردت أن أعجل في مشيتي، أن أطلق ساقِيَّ للريح، كنت مستعدًّا لمواجهة خزبي وعار هروبي وجُبني. أي شيء أفضل مما سيقولانه لنا. تفجير أنفسنا في مدرسة أو محطة باص. سيسخرانِ مني ويشيرانِ إليَّ بأصابع الاتهام. أمّا أنا فأردت أن أرقص مع سيرين حتى الفجر، وأن أرقبها وهي تلحق وجهي. أردت أن أوقف الزمن وأمدّه حتى يلتقي بالمستقبل مُقْصِيًا الماضي. لكنهما وقفا هناك، وَغْدَيْنِ من الضفة الغربية، ليفجّرا جسدنا ويطحّنا عظامنا. طلبا السجائر من رامي. أنا أردت أن أُعَبَّ في عروقي رائحة الياسمين والبرتقال. حاولا أن يبتسما بأسنان رمادية ومن خلال شقوق أعينهما أخبرانا أنهما يدعماننا، يدعمانِ موطن أجدادنا وأننا معًا سنستعيده. سمعت كلمة «مُهْمَّة» و«عملية». سمعت ذكر «مقهى في الهواء الطلق» و«ويك إند» و«حزام ناسف» و«حوريات الجنة». سمعتهما يرطنان بكلمات ما تخيلت أن لهما يومًا علم بها: «زيادة في الإصابات البشرية»، «الشهداء المقدسون»، «مكاسب تكتيكية» و«الغاية المثلى». أعلمانا بالأمر وأنها سيعودانِ إلينا بمزيد

من التفاصيل في مقبل الأيام. «أَكْتُمَا الأَمْرَ! لا تخبرا حتى بعضكما بعضًا!» انتهى اللقاء بسرعة البرق.

الآن قد أُعْلِمْتُ. بَسِطَ الأَمْرُ أُمَامِي من دون مواربة، ورقة خاسرة. ولن أفعلها! أخبرت رامي بذلك وشعرتُ بالراحة إذ تمكنت من البوح بها بعد كل هذه الشهور. أحسست أنني تحررت من عبءٍ ناءٍ عن كاهلي، انتابني شعور بالرجولة لكوني تجرأت ورفضت. على كل حال، أَلَسْتُ نَمْرًا حَقًّا؟ نظر رامي إليّ وكأنني قد فقدت صوابي. «لن يتركوك حيًّا».

«أرفض القيام بذلك. وأنت أيضًا يجب أن ترفض».

«لا، أنا سأفجر نفسي يا نمر. عليّ القيام بذلك. علينا القيام بذلك. لقد قطعنا على أنفسنا وعدًا. هو واجب نَفِيهِ حَقُّهُ وعلينا أن نقوم به من أجل فلسطين».

حاولتُ خلال اليومين التاليين ثني رامي عن قراره. لم أعتقد أن غسان وطارق سيقتلاننا إن نحن رفضنا قتل أنفسنا. هذا هراء. اهترأتُ أذنا رامي من إلحاحي. كنتُ كمن مَسَّه هوسٌ وجنونٌ لا حدَّ له. طففتُ حوله في كلِّ ثانية من هذين اليومين. وحافظَ رامي على رباطة جأشه، بقي هادئ الأعصاب، مسترخيًا كنجم سينمائيٍّ. دفع برأسه إلى الوراء وأطلق ضحكة عالية. لم أستوعبُ قدرة رامي على الاستسلام بهذا الشكل فما حدث تجاوزَ حدود المنطق في تقديري. لمْ نحن على وجه التحديد؟ ألا تحتاج مثل هذه الأمور لتدريب يمتد لشهور طوال؟ كيف يمكن لرامي أن يقبلَ بمثل هذه

البساطة، كما لو أنه يدهن خبزه بالعسل أو يضيف السكر إلى كوب من الشاي. ربما لم ينسَ رامي غسان وطارق. ربما أعدَّ نفسه طوال هذه المدة.

اعترضانا، في اليوم الثالث من لقائنا بهما، حيث كنا في طريق عودتنا إلى البيت. «كلُّ شيءٍ جاهز. غداً نعطيكما المتفجرات والخطة المرسومة. تُنفَّذان الخطة في اليوم التالي». وهذا ما كان. بكلِّ تلك البساطة. سلَّما الحزامين في كيسيْن من بلاستيك أزرق ربما كانت والداتهما قد أحضرتهما من سوق الخضار. هناك أمام بيتي، كالمقطب المسترخية، شرحا بكل هدوء طريقة الإعداد والاستخدام. أعطيانا تفاصيل المكان وسُبل الوصول إليه ووقت المغادرة والطرق التي يجب أن نسلكها. كان ذلك هو الموجز. فتبعًا لغسان وطارق بحلول الغد - في هذا الوقتِ تحديداً - سنكون في عِدَاد الموتى، أنا ورامي ومعنا عشرون بل ثلاثون عدوًّا صهيونيًّا، إنْ حالفنا الحظُّ. الله أكبر.

كان من المفترض أن ألتقي سيرين في زقاقنا المعتم تلك الليلة. تساءلتُ عمَّا سيكون عليه رأيها بكلِّ ما يحدث. هي عصيةٌ على التنبؤ كما الحرب. فكرت في إخبارها ثم أحجمت عن ذلك. تلك الليلة بدا كل شيءٍ مبالغًا فيه: العتمة أكثرُ عتمةً والصمتُ أشدُّ صمتًا. كانت سيرينُ يومها في غاية الجمال وكنت أنا في غاية الإثارة. قد تتساءلُ عمَّا يجعلني أفكر في الجنس وأنا في هذا الوضع. أذكرُك بأنني كنت، ولربما لا أزال، في الخامسة عشرة من عمري. لم يكن الجنس والموت في نظري أمرين مختلفين. فالجنس والموت يبعثان فيَّ

الرغبة في الحياة. ثُمَّ إِنِّي أفكر في الجنس طوال الوقت، حتى هنا في العالم الآخر الشاسع المترامي. في ذلك الجو المحموم من تلك الليلة المشهودة رغبتُ من سيرين أكثر مما طلبتُ منها خلال شهر ونيف.

«بس شوي، سيرين. بس شوي». كم من شابٍّ همس بمثل تلك الكلمات في آذان الشابات المترددات؟ كنت على طبيعتي تلك الليلة، قبل أن أستقبل يومًا ليس فيه من الطبيعي شيءٌ. أردت تمامًا ما تاق إليه كلُّ فتى في عمري. القليلُ الذي أعطتني إياه سيرين تلك الليلة سيكون جُلَّ ما حصلت عليه في حياتي. لهاث وضربات قلب متسارعة هي قاسمنا المشترك مع كلِّ من هم في مثل عُمرينا في أي بقعةٍ على ظهر الكوكب حتَّى يفنى الوجود. كانت تلك الليلة سرمدًا لا ينقطعُ. ظننتها البداية فقط. وظننت أن المزيد سيأتي مع الأيام. عدلتُ وضعيةَ سروالي، وهندمتُ هي ثيابها، وضحكنا معًا أعلى ممَّا ينبغي لنا، فأهلنا وجيراننا قريبون جدًّا. لم نُعر ذلك بالآل. لم يكن أحدٌ ينصتُ في تلك الليلة.

صحوتُ في اليوم التالي متأخرًا قُرابة الظهر. كان البيت كله ملكي يومذاك، فنحنُ في نهاية الأسبوع ولا بد أن أُمي في السوق وأبي في المقهى يلعب الطاولة مع أصدقائه. أمَّا شقيقاي العازبان فقد كانا يتسكعان معًا في الشوارع. أخذتُ الكيس البلاستيكي الأزرق وجلست حيثُ ركني الصغير في الحديقة. لم يكن معي هذه المرة كتبٌ ولا دفاترُ. أخرجت القنبلة من الكيس بحذر كما لو كنت أطوي أشكالًا صنعتها من الورق على طريقة الأوريغامي اليابانية.

بدتِ القنبلةُ مأمونةً غير مؤذية، أداة بسيطة، كان في وسعي تركيبها بنفسي لغرض التسلية. كانت سيرين تحتلس النظر من خلال الشقّ. لم أعرف ذلك في حينه، ولكنني أعرف الآن. راقبتني سيرينُ وأنا ألمس القنبلة بلُطفٍ أداعبها كما لو كانت حبيبتي. كانت لها أسلاك ملونة. لم تكن كبيرة الحجم وتساءلت في نفسي عن مدى الأذى الذي يمكنُ لها أن تُحدثه. فكرت في كيفية التخلص منها. أستطيع أن أدفنها في مكانٍ ما. أستطيع أن أجِدَ أحدًا ينزع فتيلها. أستطيع أن أفجّرَها في حقلٍ ناءٍ. أستطيع أن أعيدها إلى غسان وطارق فلا بد أنهما سيتفهّمانِ موقفِي. أستطيعُ أن أخبرَ والذي فهو سيقدر ما يجب عليّ فعله.

علقتُ إصبعي بأحدِ الأسلاك. لم أنتبه. كان ذاك آخر شيءٍ تمكنت سيرين من رؤيته وآخر ما سمعته. هرعت إلى المكان سيارة إسعاف، فات الأوان لإنقاذي، يمكنها نقل سيرين إلى المستشفى لعل في الإمكان إنقاذ سمعها وبصرها. وصلتُ سيارة إطفاء. وأتى جنودُ الاحتلال كما هو متوقع، يهدّدون ويتوعدون، ولا يأتي تهديدهم ولا وعيدهم بجديد. فرحتُ لسماعي نبأ إلغاء العملية الفدائية. لقد عاش رامي لبضع سنوات أخرى قبل أن يُتوفى في الثامنة عشرة متأثرًا بنزيفٍ دماغي جرّاء إصابته برصاصةٍ مطّاطيةٍ في الرأس.

هاك ما تعلمته حتى الآن: الحياة شفتانِ بلونِ الرُّمان. لا يجوزُ للحياة أن تُفقدَ سيرين سمعها وبصرها. نشوةُ الحياة، لقاءٌ مثير في ممرِّ

معتم منتصف الليل، لا فتية ببنادق يلهون بالمتفجرات. ليست ثمة
وعودٌ بجنةٍ ولا بحورياتٍ. كفى. نريد أن نرى ونسمع كلَّ شيء، أن
نرقصَ حتى مشرق الشمس رفقةً فتياتٍ يرتدين ثياباً بلونِ الفضة.
نريد أن ننطلق إلى الأمام بأقصى سرعةٍ، نحن أمراء الصِّبا والمجد.
لا لهذه العتمة والثقلِ الجاثمينِ على صدري. لا لنهايةٍ كهذه، ليس
لأمثالنا.

ثمة ضوء ينسرب على حوض صناير المياه الأسمنتية يحيل
 خصلات الشعر ألسنة لهب. في وقت معين من الصباح، حتى لو
 كان لون شعرك بنيًا قليلًا، فهو يستحيل إلى شعلة متقدة. يشبه ذاك
 الضوء ما التقطه جراهام ستيفنز في عمله الفني «أجواء»، ضوء
 السبعينيات الذي يتوهج ثم يخبو غائماً، يتمدد ثم يتلوى. ضوء
 يشع من داخل مجسمات بلاستيكية عُبِّتَ بالهواء تراقص على أنغام
 فوغا باخ المتسللة والمتشابكة. ولِدْنَا في زمن يتوهج فيه ذاك الدفء،
 في سنة الكلب، على الرغم من أنه بحلول منتصف الثمانينيات بدأ
 يذبل ويذوي أمام سطوع حاضر رقمي متَّقد وإن غير غفور.

نلتقط الضوء بشبكة واهية الخيوط في باكورة الصباح وقبل بدء
 الدروس. يحررنا نحن الأربعة. إيلسا، رولى، سارة، وأنا، الفرسان
 الثلاثة زائد واحد. نأتي تباعاً تنتظر الواحدة الأخرى عند المنصة
 الأسمنتية. أصل وسارة أولاً بحكم جوارنا، تليها إيلسا ثم رولى التي
 تصل دائماً آخر الجميع. تهلُّ من باص أصفر مشرق كبقية باصات

السالمية وفي جعبتها أخبار لا تنضب تصاحبها ضحكات أو دموع.
تعانق إحدانا الأخرى، نقارع الأيدي، نشبك الأصابع وكأننا لم نلتق
من سنين، نستعد لبداية جديدة نخطها معًا في جديد كل صباح.
كان ذاك الضوء كحقيقية من الخدع الماكرة تُركت مفتوحة إذ أغفل
حزمُها. كنا في انشغال لاهٍ غفلنا معه عن قصص الهروب فلم نطمع
أبدًا في امتلاك أدواته. في تلك الأيام، كانت لنا أساليينا التي تسمح
لنا بالتحليق عاليًا، بالقفز والوثب، نتقلب ونتشقلب نحن الأربعة
بشعر كألسنه اللهب. أواسط شهر أكتوبر يبرد الجو، تتمدد جذوة
الصبا وتتوهج في عروقنا. في طيات أحشائنا الغضة تستفيق الغرائز،
تنهش، تصرخ، تُحفِّزنا أن نطبع القبل على أفواه الفتيّة، أن ندفعهم إلى
البكاء، أكبر عدد منهم، بسرعة وسرعة، تخرضنا خصلات شعرنا
المتوهجة. من طرف عيني ألمح جونا س أمام البوابة، كنجم البحر،
كنورس، كموجة بحر بلطريقي ترتجُّ في قلب ضوء موشى بالذهب.
لقد حضر. فغدا الكون سرمديًا، أبديًا.

~

دب

هذه قصة حب. تدور أحداثها في الكويت رغم أن السويد تتجلى في معظمها. هي حكاية مصادفة غير متوقعة بين فتاة من الصحراء وصبي من بلاد الثلج. ثمة سر أُميط الغطاء عنه بعد فوات الأوان كان يهجع في حقيبة جلدية صغيرة حُمِلت كل يوم من أيام عام كامل. هذه قصة نهايات.

هل تكتب هذا من أجله؟ يمر عام، خمسة أعوام، عقدان من الزمن. مواكب زمن لا تستكين. شعر قصير بني اللون وقميص قطني أحمر ربطته حول كتفها فارتدَّت أكمامه إلى الخلف كالشال. في كل محطات حياتها بقيت مينا كما هي. بعد مرور خمس عشرة سنة كتب لها قائلاً: لا زلت في ذهني فتاة في الرابعة عشرة من عمرها جميلة كزهرة نضرة تتطلع إلى الحياة والحب والمستقبل وترسم الآمال العريضة. أتذكّر فجأة، وأنا أخط هذه الكلمات قُبلتنا على ظهر السفينة. يمر الزمن ويتوقف لكن بعض الأحداث تتجمد لتبقى

خبيئة الجيوب نخرجها إلى النور، نلمسها، بعد خمس أو خمس عشرة سنة. حتى بعد عشرين منها.

تجلس مينا وجوناس فوق شجرة يتبادلان ال-ق-ب-ل. يأتي الحب أخيرًا. بعد فوات الأوان.

قبلة على ظهر سفينة راسية. قبلة في المصعد. قبلة في الباص قبل الوداع.

ومنذ فترة قريبة، حُلِمَ بقبلة أخرى تم تصويرها. حُلِمَ لِلْقُطْعةِ ضاعت لِحُت بين صفحات كتاب، أما بقية الحلم فهو بحث عن طيف صورة، في طيف كتاب. محاولة يائسة لاستعادة الصورة، لإيقاف الزمن، والقبض على مزقة من سرمد مستحيل.

ارتبطت صورته في مخيلتها بثلج السويد، ولم تبارح تلك الصورة ذهنها حتى الآن، جوناس وقد عقد منديلًا أبيض حول رقبته مرتديًا قميصًا مخططًا بالأبيض والأزرق. كم تمنّت أن تحل ربطة ذاك المنديل الأبيض من حول رقبته. كان يأتي متأخرًا، خمس دقائق قبل الجرس. ثلاث دقائق. دقيقة. تأتي هي مبكرة ترقب بوابة المدرسة. يرافقه دائمًا صبي طويل نحيل. يسرع يندّر المشرق في خطوه بينما يمشي جوناس الهوينا رأسًا ابتسامة ودودة على شفثيه. كان يندّر هو مَنْ يرفعها عاليًا، يطير بها، مَنْ يطبع قبلة على وجنتيها بينما تتراقص أكام قميصها الأحمر على كتفيها. قبلات مشرقة كل صباح وإن لم تأت من جوناس صاحب المنديل الأبيض. هل اكتشف يندّر الأمر في أكتوبر، ديسمبر، أم يناير، أكانت قبلات

يَبْدُر هي قبلات جوناس؟ لم يكن يَبْدُر قادرًا على مقاومة رفعها من تحت إبطيها ليتبع ذلك بقبلة بل قبلات تزيد على الحد. لم يعد يَبْدُر مشرقًا، تلاشى الإشراق. حل محله جوناس الآتي من بلاد الثلج.

قال لها: «بعد عشر سنوات ستكونين هنا في نفس المكان، ستتزوجين وسيصبح لديك أطفال. في نفس المكان»، بعفوية وثقة كبيرة بالنفس. ستثبت له خطأه وستجنب الوقوع في الفخ *Je refuse!* رفضت أن تستكين، أن تتزوج وأن تنجب أطفالًا. لكنها عادت بعد مرور أكثر من عشر سنوات، بل تكاد تكون خمس عشرة. عادت وهي ترغي وتزبد. عادت لتحمل مسؤولية شخص آخر. لتطعم الطيور وتهدي القلوب وتستعيد الذكريات. كيف له أن يستوعب ويدرك والأمر يتطلب كثيرًا من الشرح وفك الخيوط. الاستيعاب يتطلب زمانًا طويلًا والزمن مرّ ومضى. خمس، خمس عشرة، عشرون. سيبتسم مرة أخرى ببطء ودعة. ستكونين هنا بعد عشرة سنوات. ستكونين هنا دائمًا. لكن لا أطفال هنا، وكلمة دائمًا تشير إلى زمن طويل. لا يفوت الأوان قط. سيفوت الأوان لجوناس ومينا ليجلسا معًا فوق شجرة.

لم تستطع أن تستوعب لون جلده، شعره البني المسترسل، عينيه الرماديتين المائلتين إلى الزرقة، عينيه بلون البني الفاتح، عينيه الخضراوين العسليتين. كان جلده أكثر حيوية وسمرة مما يفترض في سويدي آتٍ من بلاد الثلج، ولم يكن شعره أشقر تمامًا، أما عيناه المقوستان المسبلتان، وقد نسيت لونها الآن، فقد كانتا الأشد حزنًا.

لربما كان الحزن حزنها هي. فقد كان هو إنساناً سعيداً وهادئاً. سويدي يغني. يحتسي الشراب ويغترف شمساً عربية مذهلة. تلك شمس لا تخصه، شمس لا يمكنها أن تغدو فخاً تبقى في أسرها. كانت فسحة من زمن يقضيه لعام واحد بعيداً عن الثلج. ومع ذلك فقد كانت تلحظ من دون ريب لمحات تفكر وتملّ تطل من هاتين العينين اللتين تكشفتا عن عنفوان الشباب وكبريائه وسخريته ومقدار نزير من قلق يتبدى عادة لدى شاب في مثل سنه. ولكن سرعان ما يتبدد شعور القلق هذا ليفسح المكان لشعور بثقة بل تبجح يثير السخط. يتلاشى الجمال الأنثوي لهذا الشاب اليافع.

تعتقد أنها تعرفت عليه رسمياً بعدما وقعت في حبه وهي تنتظر قدومه عبر البوابة. ربما جذبها هدوؤه الذي كان على نقيض حماسة بيدّر الفائضة. ربما كانا في نفس الصف ونفس المقرر. أو ربما أحبه لما كان يحمل في جيوبه من أشياء صغيرة غريبة عليها يخرجها الواحد تلو الآخر ينظر إليها ثم يعيدها مكانها. كان لديه دفتر صغير أسود سمح لها أن تسترق النظر إليه عندما أصبحت أصدقاء، وإن استغرق الأمر بضعة شهور قبل أن يأتي هذا السماح. ما دونه في الدفتر الصغير كُتب بخط متناهي الصغر كصغار نمل فوق صفحة ابتُسرت. ولم تكن الرسوم في الهامش بأكبر حجماً. منمنات فارسية بألوان مائية أصغر من طابع بريد بل بحجم حبة أرز رُسم عليها. فنان كما يبدو من النوع الذي يميل إلى التأمل أكثر من التراخي. لربما أحبه قبل حكاية الدفتر. لكن الدفتر حسم الأمر.

كانت قد نسيت أمر البنك وأمر الجزيرة التي سيلوذان بها. أحبها، بكلمات أخرى، بعوالم أخرى. ذكّرها فيما بعد عندما انصرمت السنون خمسًا، عشرًا منها، خمس عشرة، أنها كانا قد اتفقا أن يسطوا على بنك معًا ليهربا بعدها إلى جزيرة ما ينعمان فيها بالبحر والرمل الوفير والزمن الأثير والحب الكبير كما يردد العشاق الصغار من عبارات وكليشيهات. هما لم يكونا عاشقين. والأمر لم يكن قد حان وقته. هذا ما أدركه هو، وما غاب عنها هي. لم يحن الأوان وإن فات الأوان في نفس الوقت. تصبح الكليشيهات حبل نجاة. الجزيرة وشاطئها الرملي، والشمس، وأنسام الهواء، وأرجوحة، ومستقبل يتكشف أمام عينيها. «ربما نسطو على بنك معًا. ربما نستطيعين في نهاية المطاف مغادرة هذا المكان. ربما أستطيع أن أصطحبك إلى جزيرة تشرق عليها الشمس». هي أسرار تقبع داخل محفظة جلدية في جزر لا تزال تأسر اللب حتى يومنا هذا. هي عرفت سحر وسر المحفظة الجلدية منذ البداية.

كانت المحفظة في جيبه كما كان الدفتر وغيره من أشياء. يخرجها، تتلمسها أصابعه برفق. «ما الذي في المحفظة يا جوناس؟» الجفنان المسبلان، الجلد المتوهج. «ما الذي في المحفظة؟» ابتسامة كابتسامة قطعة تشيشر. يتنقل ببصره إلى أعلى وأسفل. كان هذا يحدث ربما مرة في الأسبوع. يكون أحيانًا جالسًا أو واقفًا أحيانًا أخرى. وإن بقي اللمس اللطيف الرقيق ذاته. والسؤال يتردد ذاته: «ما الذي في المحفظة يا جوناس؟» يبتسم ابتسامة القطة تلك حتى ينفد صبرها

وتبدأ برشه بالماء من صنوبر المدرسة أو تركض بعيداً فيركض خلفها إلى الباحة كالأطفال الذين لم يعودوا أطفالاً وإن تمنا أن يبقوا كذلك، حتى يصلوا إلى غرفة تبديل الملابس الخاصة بالأولاد المعتمدة مرة لم تتكرر.

كانت عضه الذراع فعل حب، وكانت الكدمة التي تُخلفها شعار وفاء. هذا ما غفلت عنه يومها. يلي ذلك تراكض أثناء الغداء وتسابق نحو غرفة التبديل حيث لا يسمح بوجودهما هناك. المكان معتم كغرفة فندق. يلهثان ويضحكان ويتعثران لكنهما يدركان أنها وصلا إلى اللحظة التي تشبه دوامةً في لحظة استكانة. يبقى اللهاث ويغيب الضحك، تنظر إلى الأعلى نحو عينين تحدقان إلى أسفل وينظر إلى أسفل ليرى... ما الذي يراه بالفعل؟ هل لفت ذراعيها ذلك اليوم حول رقبته التي خلت من منديله الأبيض؟ وهل أحاط خصرها يومئذ بذراعيه؟ هل رفعها نحوه وقبلها؟ لا بد أنها كانت ترتدي قميصاً بأكمام قصيرة. كيف خفض رأسه شيئاً فشيئاً حتى تجاوز الشفة والذقن والرقبة والكتف؟ هل قبلها أولاً؟ قبله على ذراع عارية كشف عنها قميص مدرسي أبيض؟ عتمةٌ وصمتٌ، وأولاد المدرسة يضحكون ويتراكضون في الباحة ويرشون الماء بعضهم على بعض، البنات يركضن أمام الصبية وهؤلاء يحاولون الإمساك بهن. ثلاثة، اثنان، واحد. دورك. هل رفع ذقنها بأصابع الفنان؟ صمتها الأول. لا لهاث، فقط تنفس أو إمساك نفس. أربعة، خمسة. سيقرع الجرس قريباً. ثم وثب. انخفض رأسه أكثر مما توقعت، اقترب بفمه، أطبقت

أسنانه بشدة على لحم ذراعها الغض الطري. صرخت مبددة الصمت المطبق. هذه المرة كان هو من ركض. أما هي فلم تبارح مكانها إذ بقيت تحديق إلى شعار الحب الغريب ذاك الذي دُمِعَ ذراعُها به. فركت لعبه كي يتغلغل في مسام جلدها، ولأسبوع بطوله حملت ما خلفته أسنانه من وشم حبيب بافتخار المنتصرين. طيف قبله.

مرَّ فبراير و مرَّ مارس وهي تطبع قبلاهما على أفواه الآخرين في الرمل، في الجليد، وفي بيوت الأدراج المخفية عن الأعين. كانت تعلم أن لديه صديقة، لربما اثنتان أو ثلاث. مع ذلك فهي ستنتظره، بقلب يخفق، إلى أن يبين من خلال البوابة، وما إن يبين حتى تغادر موقعها قبل أن يقترب. فلربما هناك فرص أخرى تنتظرها. لربما يصدف أن يجلسا جنباً إلى جنب في حصص الجبر. لربما يمشيان نحو غرفة الصف معاً. تذكرُ كيف تعثر مرة بإحدى الدرجات وكم ضحكت يومها لعثرته غير المتوقعة. عنت تلك السقطة كثيراً لها فقد أظهرت هشاشته وخجلاً اكتشفته فيه فيما بعد. تباعدت أطرافه كحشرة سُمِّرَت على لوح. لقد كان جسمُه جسمَ راقص، وأناملُه أناملَ فنان. ضحكت هي لكنه لم يجاريها الضحك ما أكد لها أنه ليس إلا فتى يافعاً، صبيّاً على أعتاب الشباب. فالشاب في الثامنة عشرة من عمره لا يزال صبيّاً. لربما كان شهر فبراير أو هو مارس عندما توقفوا عن الركض، وأصبحا صديقين.

بدا الأمر خفياً لأشهر عدة، مارس وإبريل. قد يكون مرد ذلك طقس بدأ يميل إلى الدفء حاملاً معه شمساً ورملاً ورائحة حرية

ومرّحٍ وانعتاقٍ من همّ لدغات الحب وكليشيهاته المنمقة. فأيام الربيع المشرقة تغري بأكثر من رفعها عاليًا. تجد نفسها في عالمها. موسيقى الموجة الجديدة وصبية وعلاقة حب مع الشاطئ. سعادة تلفعها الشمس هي وصديقاتها فيبدأن بالضحك معًا في أحضان الرمل والزبد. أمواج الخليج الخضراء المائلة إلى الزرقة. ينتشرن كالأشعة في النادي البحري. جزيرة يلذن بها. لن تنصاع للتقاليد. سترتدي البيكيني فارتداؤه رفضٌ وفعلٌ مقاومة *Je refuse!* في العالم العربي يستدعي ارتداء البيكيني صفة على خد، غرض بصر، مواجهة ومجابهة تستدعي التهديد بالجحيم وبئس المصير. تعلمت يومها أن الجسد ليس عارًا تواريه بل ثوبًا ترتديه. انظروا إليّ. أنتم غير موجودين في نظري. كان يكفيهن الضحك وتقيل الصبية في لجج البحر والنسيم العليل يهددهن. ابدءوا بالعد: واحد، اثنين، ثلاثة.

هي في عالمها.

هو في عالمه.

صديقة فرنسية شعر أشقر متطاير، *Oui*. دلوعة على الطريقة الفرنسية. على شاطئ النادي البحري يمكن أن تلاحظ أحيانًا لمزة هنا أو غمزة، *Voilà!* هل هناك أدنى فرصة للمنافسة؟ لقد سلبت الفتاة الفرنسية ذات الضحكة الزجاجية لُبّة. لقد وقع جوناكس في حبال الثلج المُدلىّ الأشقر، وقع في غرام الحسناء الفرنسية الرقيقة كالتول المهفهف. فعل ذلك على الأقل لفترة قصيرة ومن دون

اندفاع شديد. يجلس في الشمس يحتسي الشراب كعادة السويديين.
هو في عالمه يسترق النظر إليها في عالمها.

اختفت الحقيقة. لقد نسيتهَا (بعض الشيء).

كانت تلك السنة سنة الهمسات الماكرة لرجال بلغوا من العمر
ما يجعلهم يُقدِّرون ما يفعلون. سنة شابته فيها رائحة مينا رائحة
عشب نضر جُزَّ للتو في بلد لم تزل فيه الحدايق المنمقة ضربًا من
ضروب الترف. تفتحت براعمها وتفتقت آمالًا وحيوية. لم يشب
حياتها بعد مرض أو موت أو قيودٌ وحظر. ولم تكن هناك بعد
محاولات لكسب الوقت، أو سبب يدعو إلى تعقب شبح الرغبة،
أو العثور على صور فقدت. كان كل شيء على وشك أن يبدأ. نقطة
الدوامه. سكون يهجع في أعطاف جسد نابض. كانت مينا تودع
آخر سنة من سنوات الطفولة وتستقبل الفتاة اليافعة التي ستكونها
مستقبلًا إذا استثنينا الأذى الذي سيحل بها وهي تمضي قدمًا. كان
هناك ترقب ورعشة. موسيقى تنسل من نوافذ تركت مشرعة عن
قصد. ستائر بيضاء تصفق مرفرفة كأكمام حمراء في النسيم الجاف.
عاشقة الكلمات بلحمها ودمها. وكانت أيضًا سنة مطارات متخيلة
لزمن قادم. ورحلات تُقْلَع. في غضون عشر سنين ستكونين هنا.
امرأة متزوجة. وسيكون لديك أطفال. ستبقى دائمًا في هذه الرقعة
من الأرض: *Je refuse!* رَفَضْتُ، ترددت أصداؤها في النسيم الذي
حملته أطراف الستائر البيضاء الطويلة للنوافذ المشرعة، وحتى في
الكلمات التي تكتبها الآن، رفضت أن تسمح للأطياف بأن تغادرها.

ربما كانت هذه هي القصة التي ما انفكت تتدرب عليها طوال حياتها. لم هذه الذكرى بالذات؟ لم هذه الحقيبة؟ لم هذا المركب الراكن؟ هذا المصعد؟ لم هذا الوداع قبل الرحيل؟ لم رقبة صبي الثلج وقد عقد عليها منديلاً؟ لم آثار عضة كالوسام؟ السماء مذهلة بزرقة الخليج العربي، قبل أن تندلع النيران، قبل نهايتنا، قبل الموت والأذى وقبل استحالة العودة إلى الوراء. كأنها تجمدت مينا في داخله، لكن مينا ما زالت في طور تكوين لم يكتمل بعد ولم يصل إلى نقطة النهاية (في الوقت الراهن وليس لأبد الأبدين، رجاء، ليس لأبد الأبدين، فهي لا تزال ترفض!). خَدْرَةٌ في أعطاف الثلج، ما زالت تفرد أشرعتها، تمد ذراعيها، مترقبة متوثبة. وما زالت الأرض مشرعة لاهبة. في الثلوج لا تستقيم الحروب. لا يُجَبَّرُ الأسرى على الوقوف كالصلبان ملطخين بالعار. لا مرض خبيث يعجز تفسيره. لا نبط في صحراء هي الأجل من دونه. لا سلع بلاستيكية تحجب الأخضر المزرق. لا تعويذة سحرية ولا شعوذة: واحد، اثنان، ثلاثة، ستهلك لا محالة إن لم تركع أربع أو خمس مرات في اليوم. جوناس من بلد الثلج لديه حقيبة تحتوي على كل ما مضى وكان. هناك أيام تُفتح فيها الحقيبة. يَسْمَحُ شَقٌّ في مجموعة النجوم لضوء قديم أن ينسلَّ وينير، الأخضر المزرق والرمادي المائل للبني في انحناءاته وثناياه. في الحقيبة تعويذة تلمح إلى شيء ما، تَعْدُ بشيء ما، تحاول الوصول إلى شيء ما، شيء لم يحدث من قبل، لم يُؤْلَفْ بعد، أو لم يُشعر به مألوفاً. في مشيته البطيئة بين البوابة والمبنى، في توقعها لما يمكن أن يحدث أو لا يحدث إثر عضة، يهجع كلُّ ما نتمناه. مجموعة من شرر

متطائر، بساط نُسج عبر السنين، ضفيرة تلتمع جنب ضفيرة، حياة بأكملها. وفجأة ها هو شقُّ في مجموعة النجوم يسمح لنور قديم أن يتسرب إلى الداخل. قد يكسر قلبها. أو لربما كان ذلك ما تحتاجه فعلياً، ما كانت في انتظاره. لربما كان ذلك جلّ ما كنا نحتاجه كي نتوقف عن تغييب البحر، الصلبان العارية، سرطان ينتشر ويتكاثر، شعوذات وتعاويز، نطف في الصحراء يزعزع العالم. شيء كنا جميعاً في انتظاره.

أعطاهما الحقيبة الجلدية، قبل قبلة الباص، قبل الظرف المغلق، قبل إقلاع الطائرة في يومه الأخير. الحقيبة، بعد قبلة على ظهر السفينة، بعد قبلة المصعد، كان أول وداع حقيقي. السكون بينهما وهما فوق سطح السفينة، وكلمات لم تُنطق. الحسنة الفرنسية لم تُعد هناك. مينا وجوناس يجلسان في أعطاف شجرة، وأخيراً. إبريل، مايو، يونيو. جوناس من بلاد الثلج، مسترخياً في مشيته كعادته، قلقاً لكنه حاد النظر. شاب يافع ذو جلد نضر وجسم راقص ويدي فنان. تتعثر الكلمات على شفثيه وإن لا تلين حدة نظره. تتشابك الأصابع المرتعشة كأن كهرباء قد سرت في الأنامل. يداعب إبهامُ إبهاماً آخر. ينظران إلى الأخضر المزرق ولا يريان سوى العتمة في حفل فوق ظهر سفينة راسية. تعلق الأمواج جوانب السفينة توقفاً لانعتاق من أسر الشاطئ، ترتفع المراسي قليلاً لتبحر في بحرٍ فرح غداً أسود في عتمة ليل يرتحل نحو بلاد الثلج والجليد المترامية بعيداً. همهمات ووشوشات. تلعثما. أنصتا كي يسمع أحدهما الآخر. جمل

مبتورة، كلمات مبتسرة ضُمَّت بعضها إلى بعض كحبات الفشار أو مشابك الورق أو عقود من الريش. جميلة. نجوم. بعيدة. هروب إلى جزر نائية. هشة. الليلة. ارتعاش. ثلج. فقط لو. لغة تخون. يسود سكون كذلك الذي سبق قبلة سُرقت فتواتر كطيف. هذه المرة قَبْلَ جوناثان مينا، أشرع حنجرتها كي تنطلق منها الأصوات المصمّمة، أُغْلِقَت العينان وإن رفت الأهداب كي ترقبا القبلة الأولى، بطيئة، بطيئة تستوقف الزمن فوق شفيتها. لن تكون هناك مرةً أخرى تضاهي هذا الجمال المومع أو تشابه هذي الأصابع التي تسري في نسغها الكهرباء، عنق مُشرع. لن تكون هناك مرةً أخرى يمتد فيها بحر أسود لتهجع فيه ساكنةً سفينةً راسية. سبقت الوداع تلك القبلة. ستحتفظ بها إلى الأبد بين طيف صفحات في طيف كتاب في طيف حلم. كم هو وقت طويل ذلك الأبد.

حدث كل شيء كما تخيلاه سابقًا ولاحقًا، الأصابع لا تزال منعقدة متشابكة وهما يتنفسان تحت الماء في اتجاه المصعد الذي بدا وكأنه نهاية العالم، نهاية الفرع بل نهاية كل ما مرّ قبل العاصفة الأخيرة. توقعت أن يسحقهما المصعد ليبقي عليهما كمستحاثات يتوقف عندها الزمن وهي في وضعها المثالي الأولي، مثالي فقط لأنها حدثت في البدء. مصعد في سفينة ساكنة ستلتهمها النيران فيما بعد في حرب النفط والمرض الخبيث. مصعد جامع في مكان لا يفترض فيه وجود مصاعد، في سفينة هالكة لا محالة أضحت عربتهما المجنحة. في المصعد، قبلة أخرى. توقّف الزمن. هل هي

نهاية المطاف؟ سوف تتذكر. أفضل سنة في حياتها. هل ستكون هذه آخر ق-ب-ل-ة. جوناس ومينا. وليس للأبد. الحب يأتي أخيرًا. اللغة تخون.

تمنى جوناس لمينا ليلة سعيدة. بدا الأمر كأول لحظة صدق. أطرق برأسه وهو يدلف إلى السيارة، عيناه مقوستان مسبلتان وحزيتان. مقدمة للوداع الأخير. شعرت مينا بأنه كان للحظة، وعلى عكس المتوقع، على شفا الانهيار. كانت تلك ليلة القبلية الأولى والثانية قبل الأخيرة، نهاية أجمل سنة على الإطلاق. لم تكن هناك حاجة إلى وعود طالما لا يزال المستقبل في طي التشكل والتجلي. لم يكن التملك في مفرداتها بعد. لم ينشدا وعدًا في زمن كل ما ابتغياه فيه لم يتعدّ سماء زرقاء وضحكات مع الصديقات بين أمواج البحر. ولم تكن هناك نبوءة بما سيأتي من أحزان تفيض كالموج المتتالي أيضًا. من بعدك الطوفان، *Après toi, le deluge*. وحتى في ذلك، هناك جمال موجد. منذئذ، تفيض الدموع لتغمر الجسد لأول مرة، فتاة محظوظة إذ لم يكن هناك يومئذ فقد ولا مرض ولا موت. لكن الحظ لا يصمد للأبد. هو إدراك أن الحب ممكن، وأن نمطًا مختلفًا للحياة قد لا يأتي قط، وأن حلم الهروب إلى جزيرة قد لا يتحقق. أبدًا.

ابتعدت السيارة في جوف العتمة ولم تغدّ مينا بعد دمية تحطمت قطعًا صغيرة، أو بُراية قلم تناثرت على الأرض. تثرثر والفتيات عن الحفل الراقص والفساتين الخيالية وجمال المرة الأولى. كانت هناك ثرثرة أخرى في أعماق مينا، ثرثرة صامته استعادت فيها مرة تلو

الأخرى عنقاً مُشرعاً، شفاهاً مطبقة، وأهداباً ترف. تتوقف لتكر الشريط إلى الوراء. تتوقف. تكر. تتوقف. تكر. كل ما توقعته بل أكثر فأكثر فأكثر. كان المستقبل بين يديها. كانت الوعود - التي لم تُقطع ولم يكن بها حاجةٌ إلى أن تُقطع - حبات حلوى صغيرة ملونة لُفّت بورق مجعد تنتظر أن تفتح. آملة متأملة مستعدة أن تقفز وتفرح ولا تنظر إلى الوراء. تقفز مينا عاليًا وعاليًا أكثر ككرتين مطاطتين شفافتين إحداهما وردية اللون والأخرى خضراء. تسمع صوت وعود تنفض عنها أغلفتها، وعودٍ تكاد تُقطع، وأمل لم يخبُ بعد. لا يزال العالم شروق شمسٍ بلون الدراق لفتاة بأكمام حمراء ترفرف بفرح كمطر ربيعي يهمني فوق عشب صحراوي نادر. في طريق عودتها من الحفلة الراقصة كانت مينا وردية وخضراء لم تتحطم إلى قطع صغيرة بعد.

بعد أسبوع واحد، الوداع الأخير، ينكشف سر الحقيبة الغامضة. عبر جوناكس البوابة وحده هذه المرة وللمرة الأخيرة. تحرك بسرعة. كان جادًا متغضن الجبين وهو يتجه إليها مباشرة. خمسون مترًا، ثلاثون، عشرون، عشرة. ضاقت المسافة بينهما. لمحت شيئًا في يده اليسرى. هل كان أعسر؟ تخون الذاكرة، لكن شقًا بمجموعة النجوم. وقفت مينا عند حافة الرصيف ترقب جوناكس وهو يغذ السير تجاهها. تلاشى العالم من حولها. تلاشت أنفاس كل من حولها. توقف وهو ينظر هذه المرة إلى أعلى. بسط راحتها وأودع فيها حقيبة جلدية صغيرة وظرفًا مربعًا أزرق يحمل علامة البريد

الجوي. ثم ماذا؟ أغلقت أصابعها على الحقيقة التي بدت أصغر مما كانت تذكر. انزلق الظرف في جيبها من دون أن يُفْتَح. أخذ بيدها، تلك التي كانت تمسك بالحقيقة، حضنا الحقيقة بين راحتيهما كمن يحضن حباً هشاً على وشك الانكسار. مشيا نحو البوابة يداً بيد. الحر القائظ، ضجيج باصات المدرسة وهي تستعد للانطلاق، بائعو المثلجات من كل حذب وصوب يرفعون عقيرتهم منادين: «زووم زووم زووم لولي لولي لولي». ستكون هذه آخر مرة يسمع بها هذه الكلمات التي صدحت كل يوم من أيام السنة المنصرمة. هل سينسى؟ هل نسي الآن؟ صعد أحدهم إلى الباص. كان هو من صعد. الأصابع لم تزل متشابكة، طبع قبلة على ثغرها. قبلها طويلاً وبحرارة في بلد مسلم وأمام الجميع وهو على متن باص يوشك أن يغادر. تلاشى العالم. «زووم زووم زووم لولي لولي لولي». كان الطلبة يصيحون فرحاً بالعطلة الصيفية، من شبابيك الباص تتدلى أذرع وتسيل قطرات من مثلجات يقضمونها. في قيط يونيو جفت الكلمات وكذلك الدموع. وداعٌ بعيونٍ مقوسةٍ مسبلة.

وحيدة، عادت مينا أدراجها سالكة نفس الطريق الذي مشياه معاً. تجاوزت الرصيف وغرفة التبديل وحوض الماء وارتقت الدرجات المؤدية إلى مدرسة هُجرت لتوها. فجأة بدت أروقة المدرسة رمادية حزينة فُجِعت باختفاء روادها. دخلت دورة المياه، أقفلت الباب وأسندت ظهرها إليه. أخذت نفساً عميقاً وقد حضنت راحتها اليمنى حقيبة جوناكس الجلدية بينما استقرت رسالته في جيب

زيها المدرسي من دون أن تفتحها. حقيبة طالما داعبتها أنامله. ذراعاه، رقبتاه، ابتسامته، جسده الرقيق كجسد راقص، ويدي فنان. المدرسة خاوية على عروشها. تستطيع أن تسمع الباصات وهي تغادر. ستبقى وحدها تمامًا. تريثت، متباطئة ومتمهلة. سيؤكد فتح الحقيبة جَزَع الوداع. سيؤكد نهاية الطفولة، نهاية المرة الأولى، نهاية ضحكات بين أمواج البحر، نهاية سر دفين ينكشف ويكشف مينا كشرع يُبسط. لقد أخذ جوناكس معه وعودًا لم تُقَطَّع، غُلِّفت في ورق ملون أجعد، القبله الأولى، الثانية قبل الأخيرة، والأخيرة.

فتحت الحقيبة وأخرجت ما فيها. دب خشبي بابتسامة ضئيلة. كان جوناكس هو من صنع الدب، من نَحْتَه، ومن لَوْنه. ما الذي في الحقيبة يا جوناكس؟ دب. دب صنعته من أجلك. دب بادنغتون. ويني ذا بوو. لأنني ما زلت ولدًا صغيرًا. لأنني لا أريد أن أتخلى عن الدب الباسم. ها أنا أتركه لك.

ربما ظن أن في إمكانها هي أن تحضنه لبضع سنوات قادمة قبل أن تتخلى عنه بدورها. كم هو مخطئ. كانت تلك سنة مينا الأخيرة. بلطف، أعادت الدب إلى الحقيبة وسحبت الرسالة من جيبيها. أدخلت مسطرة في طرف الظرف وفتحته. أطلت عليها بطاقة مربعة رسم عليها دب. لاحظت كتابة منمنمة كديب النمل على بطن الدب. غاليتي مينا. غاليتي. توقفت عن القراءة. غاليتي. مينا. تابعت القراءة. نصحت الرسالة حبًا وولاء. لم يكن ليخبرها بنفسه بكل ذلك، فهو إن فعل لصعب الوداع. كان قد قرر أن لا يبوح

بعواطفه، الأمر الذي جعله ولعام طويل كمن يهيم في برزخ أو مطهر. ولكن، كتب قائلًا، ربما في زمن آخر، في مكان آخر. معًا ربما في جزيرة ما. عودة إلى كليشيات المحبين. كم حبًّا فقد هكذا؟ كم هو عدد من يمكن حبهم في هذا العالم، ولم يصل الحب إليهم؟ كيف سمح لنفسه أن يكتم عامًا من حب جديد، قد يكون الأفضل على الإطلاق، أو قد يكون عاديًا ليس إلا؟ لقد أحبها. كانت هي الغالية على قلبه، ولسنة كاملة. تسارعت ضربات قلب عاشقة الكلمات. وحيدة في مدرسة مهجورة، مينا ودب في كل يد.

خلال السنوات الخمس التي تلت، كانت مينا تستلم بطاقة من جوناكس مرة أو مرتين. بطاقات مقتضبة وإن مفعمة بالحياة، من مكان ليس هنا. لم يكن هناك ذكر لأسرار الدب أبدًا. لم يعد هناك جوناكس بلاد العرب بل جوناكس بلاد الثلج والضوء. لا حروب نفط لديه ولا مرض عضال. لا لون أخضر مزرق معتم ولا منتجات بلاستيكية، لا تعاويد وشعوذات. يتلاشى جوناكس إلى ظل أسود.

ما يهيم ليس جوناكس في حد ذاته. بعد عشرة، خمس عشرة، عشرين سنة. يختفي جوناكس لكن الأسرار تبقى. شق صغير في مجموعة النجوم. نتذكر، نتذكر المكان الذي ولدنا فيه. يغيب عنا للأبد. وتغمره العتمة وإن يصبح أحيانًا جُلُّ ما نتمناه في بلاد النفط والمرض العضال هو دب وشق صغير يسمح لنور قديم أن يسطع.

في عام 1984 كان يسمح بالتدخين على متن الطائرات. قد يدهشنا ذلك الآن. لك فقط أن تتخيل الرائحة! لكنني أعود بالذاكرة إلى تلك السنة وإلى تَجْمُعِنَا في مؤخرة طائرة الخطوط الجوية البريطانية بوينغ 747-200 حيث كنا ندخن بشراهة منقطعة النظير وكأن الغد لن يداهمننا يومًا. كنا نشرب أيضًا بنفس الحماس: شمبانيا، فودكا، نبيذًا أحمر، ويسكي، بيرة، أي شيء نحتسبه من زجاجات تفرقع أو من علب صغيرة. تعلو أصواتنا مجلجلة مقهقهة (في زمن كان للأشياء فيه أن تبدو مضحكة جدًا) نشرب وندخن ونتغازل. يأتينا المضيفون والمضيفات بكميات كبيرة من الزجاجات والعلب مدركين مدى ظمئنا. وهل يهم أن تكون في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة أو إن كنت لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرك؟ هم أنفسهم كانوا في سن تقارب سننا ولا بد أنهم تعاطفوا معنا لذلك. كنا قد خَلَّفْنَا لتَوْنَا صحراء وراءنا ولا بد أنهم أدركوا ذلك وعرفوا أننا نستحق كل شيء. من وقت إلى

آخر كان بعضهم يأخذ نفّسا من سجائنا أو رشفة من شرابنا. كانوا معنا وإلى صفنا. لا تسَل كيف تدبرنا أمر جلوسنا معًا وقد ضمت المجموعة طلبة من ثلاث مدارس دولية في الكويت، لم نكن نعرفهم شخصيًا وإن كنا لربما صادفناهم يومًا في صالة التزلج أو إحدى الحفلات. لا يهم، ففي الطائرة كنا نرتمي بعضنا بين أذرع بعض في عناق حميم. ومع ذلك، فما إن ينتهي بنا الصيف حتى نتظاهر بأننا من هذه الأشياء لم يحدث، ونساءل إن كنا نميز تلك الوجوه أو نربطها بأسماء أصحابها. لا أعرف أين كان آباؤنا. في وسط الطائرة؟ في مقدمتها؟ الحقيقة أنني لا أعرف كيف تدبرنا جلوسنا مجتمعين هكذا في المقاعد الخلفية وتجاهلنا كل إنسان آخر. لا يوفر الطيران اليوم مثل هذه المزايا التي أصبحت شيئًا من الماضي وأصبح المضيفون والمضيفات على غاية من الجدية. الآن تُغلقُ قَمَرَةُ القيادة بشدة ويُمْنَعُ التدخين منعًا باتًا حتى في المراحيض. لكن السفر على متن بوينغ 747-200 عام 1984 إلى أماكن أفضل من دون شك جعل المستقبل يبدو كالبيضة، بيضة نملكها وحدنا، تترأى في الأفق.

لست متأكدة إن كان معنا في نفس الرحلة وعلى متن نفس الطائرة. أضيفه الآن لأنه كان جميلًا، طويل القامة ومن طلبة مدرستنا ما أشعرنا بالفخر. كانت المدرسة الأمريكية في الكويت مدرسة النخبة من المحظوظين، من طلبة تشع عظامهم نورًا وتنبض بالمستقبل الواعد. لم يكن لذراعي نادر ولساقيه أن تلتف

وذراعيَّ وساقِيَّ في تلك الرحلة فأنا لم أكن أعرفه جيدًا على الرغم من أنني أتذكره تمامًا. كان هادئًا يتصرف بثقة كأنه أخ كبير مستعد لأن يحميك ويقف دائمًا إلى جانبك. أريد أن يكون نادر معي على متن تلك الطائرة، مع زجاجات الشمبانيا ومع نور وردي يلوح في الأفق في صباح باكر باكر. أريد أن أراه يغادر الكويت في الصيف سعيًا وراء ما تهمس له به مجموعة طوابعه. أريد أن أرى نادر مرة ثانية، فتيًا ومعتدًا بنفسه، يدفع بشعره الكستنائي إلى الوراء، وتفتُر أسنانه عن ضحكة أسرة.

انقضى ذلك الصيف وما إن حل الخريف حتى وجد والدا نادر ابنهما في جراج البيت عاريًا يتدلى من حبل غليظ. تصور ذاك الجمال، ذلك القدّ الطويل وتلك الأطراف الرشيقة، وذاك الشعر الذي يشبه شعر الملائكة، وهو يتأرجح بهدوء. تخيل ما حل بوالديه عندما أبصرا ابنهما الغالي وقد ربطت يداه بسلك عُقد خلف ظهره. لا لم يكن ذاك انتحارًا. من ذا الذي يقتل نادر؟ من السهل جدًا أن تخرج الإشاعات لتلقي اللوم على المخدرات. يسهل أن تفكر فيها وحتى أن تهمس بها إلى نفسك. هَمَسْنَا. رغم أننا لم نرد أن نصدق. ظل جسده العاري يتأجج في دواخلنا إلى الأبد. إنه العار نفسه أن يُسحق مثل هذا الجمال والبهاء من أجل المخدرات أو المال. في تلك الرحلة كان الأمر ما زال بعيد الاحتمال. فنادر هناك، ما زال يبتسم بعذوبة للمضيفات الشقراوات اللواتي افتتنَّ بسحر محياه الحنطي اللون.



طابع فيل

قيل إن والد آدم اختفى من دون أن يترك أي أثر. بدا الأمر وكأن الرجل تلاشى في الأفق ولم يخلف وراءه سوى أعماله الطيبة كمختار للضيعة. لم يُعدّ جدّو توماس أي حقائب، لم يترك رسالة، ومن الواضح أنه لم يبلغ أحدًا عن نيته السفر إلى أي مكان. لم تكن هناك وسيلة لمعرفة فيما إذا كان قد أصيب بأزمة قلبية أو فقدان ذاكرة مفاجئ حل به خلال الليل. في اليوم السابق لم يخرج تصرفه عن المعتاد. أخطرت شرطة بيروت بالأمر لكنهم، وقد اعتادوا قصص الخطف والاختفاء في سنوات الحرب الأهلية، لم يعيروا اهتمامًا يذكر لتواري جدّ في نهاية السبعينيات من عمره. مع ذلك فقد طلبوا إخطارهم في حال عثور أحدهم على رسالة تطلب فدية ما، إن شيء فمن أجل أرشفة الحادثة.

في غمرة الفوضى التي رافقت ترتيب آدم لزيارة الضيعة كي يتحرى بنفسه عمّا جرى لوالده، لم يخطر بباله أن يسأل ابنه نادر

عن رسالة كان قد سلمها له بنفسه منذ ثلاثة أيام أرسلها جدّو توماس. لقد اعتاد آدم وزوجته نادرة على المراسلات الدائرة بين الجد والحفيد المراهق، ولم يعد يملكهما شغف المتابعة الخفية. لهذا لم يخطر لهما أن يتساءلا فيما إذا كان للرسالة الأخيرة أي دلالة يستفاد منها، أو أنها قد تمتلك مفتاح لغز الاختفاء. لم يتكشف ذلك إلا بعيد سنوات طوال بعد أن انطوى الأمر وانقضى.

قبل الحدث، كان آدم ونادرة يعتبران أنفسهم من المحظوظين. فهما من ضيعة رزقت بالنعمة والخير الوفير ما جعل الحظ الحسن أمراً طبيعياً. رضيا بقسمته المباركة طوال مسيرة حياتهما وإن تجاهلا كل تنبيه لضروب الدهر التي قد تفاجئ غرور البشر فتطيح بعروش وتهز أعتى الناس. لم ينبههم أحد من أهليهم إلى أن للحظ ذاته مسالكة المهلكة الخفية. لم يكثر أحد ليذكر أن الحظ قد ينقلب، بمرور جيل أو اثنين، ليصبح لعنة.

كانت نادرة في الثامنة عشرة من عمرها عندما تزوجت آدم وإن كانت تعرفه قبل ذلك بكثير. فطالما تشاطر والداهما وجدّاهما كؤوس العرق وحبّات المشمش في ظل أشجار صنوبر الضيعة، مُنصّتين إلى أكواز الذرة وهي تتفتق في حر الشمس القائظ وقت الظهيرة. عرفته من قبل لأن أمهاتهما أيضاً كانتا تجلسان معاً على ضفة جدول رائق تلفان ورق العنب وتحشوان الأخضر النضر بالأرز والأحلام المتمهلة. عرفته نادرة لأنها كانت وأخته يرقصان

على وقع أغاني جدتيهما عندما يهمس المساء أغاني عن الغابة عند
السَّحَر أو عن تعلم لغة الطيور.

كان لبنان في ذاك الزمن وبحق عروس الشرق الأوسط.
يَعِدُّكَ بمباهج الأرض ويفي بوعده فيسمح لك أن تذهب إلى
التزلج صباحًا في جباله وتسبح بعد الظهر في بحره. تدفَّق المأل من
صحاري تندت بالنفط. ازدهرت البنوك والكازينوهات وانتعشت
النفوس وحتى السماء نفسها لم تكن قادرة على كبح جماح الثقة
الكبيرة بمستقبل مشرق. غدا لبنان مكانًا يتشح بنور أزرق وأصفر،
كالعسل يعلو فطائر اللوز الساخنة، مكانًا يثب فيه الصَّبِيَّة والصبايا
وثبًا في كل خطوة يخطونها. وكان آدم ونادرة هناك في قلب عالم يَعِد
بالمعجزات.

على الرغم من أن آدم كانت له أفكاره الخاصة به فقد تمتعت
عائلته بمكانة ونفوذ في الضيعة تمثِّل في سلسلة من مناصب دينية
وسياسية توارثوها أبا عن جد ما عني شيئًا واحدًا هو أن على
آدم وإخوته الثلاثة الرضوخ لقدر رُسم لهم مسبقًا كما رَسَمَ
لأبيهم مختار القرية وعمَّهم كاهنها. لقد أَلِفُوا تمامًا، كغيرهم من
اللبنانيين، ما يُسببه الدين والسياسة من ألم صدى رغم أن حدَّته
كانت تتفاوت من سنة إلى أخرى. عندما بلغ آدم الخامسة عشرة
من عمره كانت الحياة في القرية كرةً من كريستال يبين داخلها
الثلج وكان أملٌ لازورديٌّ يشع في قلوب الجميع. في إحدى
أمسيات شهر أغسطس العطرة، أعلن آدم، وقد انتشى بالآمال

العراض كغيره، أنه قد قرر الطيران. وعندما تدورت العيون في محاجرها دهشة، واكتمل شمل الأصحاب والأقارب حول عشائهم المعتاد الذي يجمعهم كل شهر، انبرى آدم، وقد التمتعت عيناه وانتفخت أوداجه، يشرح للجمع مقصده بأنه قرر أن يصبح طيارًا لصالح شركة طيران الشرق الأوسط وسيبدأ فترة التدريب اللازمة.

حل الصمت فسكن الجميع كأن على رؤوسهم الطير. مشى والد آدم نحوه وقد توهجت عيناه الزرقاوان الحادثان تخزان ابنه الأصغر كفراشة أرْتَجَ عليها غطاء من زجاج. لكن آدم لم يرمش له طرف.

«اسمعي جيدًا! ستصبح، ككل واحد من إخوتك، وكوالدك، ووالد والدك، ووالد والد والدك من قبل، إما كاهنًا أو تدخل في سلك السياسة».

أجاب آدم: «أنا سأصبح طيارًا».

همدت الضيعة وأهلوها، اغترفوا من أنفاس الليل الرطبة الواهنة. نظر المختار في عيني ابنه الأصغر. كانت عيانان مستكيتتان رماديتان، عيانان تنضحان بسعادة لم يرَ لها مثيلًا في حياته، عيانان مستحيلتان بدتا غافلتين عن كوارث التاريخ. لقد أصاب في تربية هذا الولد.

«و»، أضاف آدم، «عندما أنهي دراستي سأعود إلى القرية وأتزوج

نادرة عيسى. سأخذها معي إلى بيروت وسننجب ثلاثة أطفال، صبيًا
وابنتين».

كانت نادرة عيسى، ابنة جورج عيسى الوحيدة، تقف حتى
تلك اللحظة إلى جانب بستان البرتقال من دون أن يلحظها
أحد. وفجأة وجدت نفسها، وإن لم تكن تلك المرة الأولى، محطَّ
اهتمام الجميع. اعترتها الدهشة كما اعترت الجميع، فاختيار آدم لها
كان مميزًا ونادرة أيقنت ذلك. لم يكن آدم الأكثر وسامة، وحتى
إخوته كانوا يفوقونه طولًا وسحرًا. لكنها لحظت اختلافه عن
الآخرين، فبينما كان أربابه يقضون وقتهم في ركل كرة بائية كان
لآدم قدرة هائلة ليشغل وقته في عديد من الأشياء ناهيك عن
تمتعه بثقة كبيرة بالنفس لا تخلو من المشاكسة. عُرف كدون جوان
البلدة. وكان في استطاعته أن يقنع أي فتاة يقابلها بأنها تمتلك
السحر في راحتيها. يطربها هكذا لعشر دقائق على الأقل وقد تزيد
إلى خمس عشرة إن كان مزاجه رائعًا. بدت له نادرة مختلفة عن
الأخريات فقد كانت تحرق إلى بعض أجزاء جسمه وتتجاهل
ما ينطق به لسانه. رسمت تلك النظرة لآدم طريق نجاة يخرج
منه بعيدًا عن القرية نحو حياة تنتظم فوق السحب وتتعدى أعباء
الزمن الثقال. عندما أعلن آدم أمام الملاء عن نيته كانت نادرة تعبت
بغصين من زهر البرتقال. ضحكت عاليًا. لكنه أبصر موافقتها في
حركة من يدها أبعدت خصلة من شعرها. عندها عرف آدم أن
نادرة ستكون له.

أدرك المختار أن آدم لم يكن لينتظر موافقته، وعلى عكس ما توقعه أهل القرية، ملأت جسارة الابن قلب أبيه بالفخر. حَضَنَ رأس ابنه بين يديه وطبع ثلاث قبلات على وجنتيه وطلب منه أن يسمي ابنه البكر بما يقرب من اسم أمه نادرة. لم يكن هناك شيء أحلى على قلب آدم من ذلك.

سارت خطة آدم تمامًا كما يشتهي. تزوج نادرة في عام 1965 في كنيسة القرية وكان عمُّه من كلَّلها يومئذ. منذ طفولتها تمتعت نادرة بجمال مشرق كالجبال المضيئة التي ترعرعت في ربوعها. كم راقبت نساء القرية، ورجالها الماكزين، تلك الصبية وهي تتفتح زهرة بيضاء كالحليب الصافي وكقمر أيلول. كم تبادلن الضحكات الخافتة وهن يلحظن اهتزاز الردفين الفتيين، وتدَوَّرَ نهدين شَبًّا مبكرًا عن طوقيهما، وتقوسَ عَجْزُها الفاتن. مفاتن كهذه كانت لتدير الرؤوس في مكان آخر في العالم إلا في تلك الضيعة التي اعتاد أهلوها على رؤية الجمال متجسدًا في كل منحى من مناحي الطبيعة. عَزَوْا وفرةَ الجمال إلى الحظ الذي حظيت به البلدة وميزها عن غيرها. ومع أنهم لم ينسوا يومًا أن يشكروا السيدة العذراء على ما وهبتهم إياه، فلم يكن هناك ما يسترعي انتباههم فعلاً إلا ما خرج عن المألوف. ونادرة كانت استثنائية بكل معنى الكلمة، اسمًا على مسمى، نادرة، في اتزانها ووقارها. لم يكن جمال نادرة الأمر الوحيد الذي لفت نظر آدم في سني صباه. فهو لم تفته روح الدعابة اللمحة التي كانت تتجلى في حاجبيها المرفوعين. ولم يزدد إعجابًا بها إلا لما

لحظه من ثقة عارفة عارمة عكستها نظرات عينين زيتونيتين أكدتا له فرادتها. يوم زفافها، وزهرُ البرتقال في شعرها، وقدمان حافيتان تركتهما هكذا خفية تحت ثوب طويل أبيض، تبدت نادرة لآدم ولكل أهل القرية أجمل وأروع ما يمكن للكون أن يقدمه.

قد تكون أفضل صورة تصف بيروت عام 1965 هو تخيلها كبطاقة بريدية ملونة مصقولة لامعة لبحر يوشيه ضوء يوسفى اللون. في بيروت تشعر كمن يكتشف مخبأ رسائل حب تعود لشخص ما، أو كمن يظن أنه سيعيش للأبد. بيروت رغبة تعتمر في داخلك لتعلق معصم الحبيب. بيروت توق سرمدي لأول قبلة. في شوارعها المترعة بالشمس: أطفال كملائكة الجنة بشعر مجعد يركضون لاهين عن هموم الدنيا، باعة يقفون على ناصية الطريق يبيعون الثلجات والكعك، رائحة زعتر تفوح في الهواء تعد بما لذ وطاب. كانت يومها بيروت باريس الشرق وكانت نادرة وزوجها آدم في قمة سعادة لا يضاهيها شيء. تتمخطر نادرة على الشاطئ مرتدية لباس بحر بيكيني بلون القانيلا يظهر بشرةً لوحتها الشمس لتصبح بلون السكر المحروق. كانت تلك سنة رقصا فيها في صالات الفالس، سنة ابتسامات عريضة عرض سماء وقت الظهيرة، سنة التقيا فيها بأصدقاء لم يكن يخطر على بالهما الالتقاء بهم سابقاً، أصدقاء متحذلقين كاللغة الفرنسية التي أتقنوها جميعاً. كانت سنة 1965 سنة يفضل آدم ونادرة نسيانها خشية أن يفسد عليهم ترفها وتألّفها باقي حياتها.

جلبت السنة التالية رعوذاً وعواصف لمستقبل يصعب على كثيرين مواجهته. عاش آدم ونادرة بوفرة مالية مريحة لكنهما لم يتمكنوا من ادخار ليرة واحدة يودعانها في حسابهما في المصرف الذي نصحهما به مدير آدم عندما استلم الوظيفة. لهذا لم يعنِ انهيار بنك إنترا لهما كثيراً إذ لم يكن هناك ما يخسرانه فعلاً.

«ماذا يعني تدافع المودعين في البنوك يا آدم؟» سألت نادرة. «أنا لم أسمع بهذا التعبير من قبل. ما الذي يتوجب علينا فعله؟»

«لا شيء يا ملاكي. لا شيء على الإطلاق. لنذهب إلى السينما الليلة وبعدها لنذهب لنرقص ونشرب الشمبانيا. لا تشغلي بالك يا حبيبتي. هذه هي بيروت. تتأرجح وتستقر».

كعاداتها، صدقت نادرة ما قاله لها آدم. لكن آدم لم يخبرها بكامل القصة، فبنك إنترا شريك مساهم في شركة طيران الشرق الأوسط، وإفلاسه قد يهدد وضع آدم نفسه. ملأته الثقة التي عرفت بها بيروت والبيروتيون فقلل من شأن مصرف ينهار إذ لا يمكن في رأيه أن يهدد ذلك ارتقاء آدم في المناصب أو ارتقاء شركة النقل الجوي نفسها أو حتى بيروت نفسها وصعودها إلى القمم. لا يُعقل أن يحدث ذلك. لا يُعقل.

استمر آدم في حياته طوال عام 1967 وكان شيئاً لم يخرج عن المعتاد. الأمر الوحيد الذي أفلح في تحقيقه هو حمل نادرة واستقبالها فلذة كبدهما نادر الذي سمياه على اسم أمه تماماً كما كان قد وعد

توماس. لقد ساعدهما الحدث السعيد على تجاهل كل ما دار حولهما من صخب وغضب.

مع ذلك فقد صعب على آدم أن يتجاهل أحداث عام 1968 وتدمير إسرائيل للأسطول الجوي المدني اللبناني. بدا الأمر وكأنه يلامس لا البلد وحده بل كل جانب من حياته هو. أحس بقسوة زمن يتعقب لبنان من دون هوادة وخشي من ضرباته الموجهة. لذلك قرر أن يهاجر. حزم أمتعته وانتقل بأسرته إلى القرية لأسبوع من الوداع. انفطر قلب والده لدى سماع الخبر الذي أدهشه فرفض رؤية ولده، رفض قبول ردة فعل الابن واعتبرها حركة غير ضرورية بل مبالغاً فيها لا تستدعي قطع الصلات على هذا الشكل. رأت والدته آدم أن ابنها قد فقد صوابه، ناح والدا نادرة كما لو كانت ابنتهما قد أصيبت بمرض عضال لا شفاء منه. لم يكن لآدم أن يستوعب كل هذا الحزن المتأجج، وهو الطيار الذي تعود على رؤية المكان والزمان من علي. وعلى الرغم من حزنه لفراق بيروت - ذاك الحزن الذي سيطارده لسنين طوال رغم محاولته طرده من حياته - فقد كان يشعر بالإنارة إزاء بداية جديدة واستشراف لآتٍ لا يستشعره عادة سوى من كان في سن الشباب ومن يمتلك المستقبل مثلهم. سيذهبون إلى الكويت المزدهرة حيث ما زال كل شيء قادراً على أن يتحقق وإن في درجات حرارة تفوق بيروت بعشرين درجة.

صعد آدم سلم طائرة الشرق الأوسط، الكوميت المستأجرة من الخطوط الجوية الكويتية مؤقتاً، وحلف برأس ابنه نادر قسماً

سيندم عليه بقية حياته أنه سيغسل يديه من السياسة والدين إلى أبد الآبدين. لو توقف قليلاً عندها لينصت إلى ما وراء اهتزازات صوته الهادر لكان في وسعه أن يسمع أنين زوجته الخافت المبهم. على الرغم من أن نادرة قد أصبحت بنت مدينة لكن جذورها القروية لم تفارقها ولذا لم تشأ أن تسمح لحبال القدر أن تلتف حول عنق حياتهم. ساءها أن يستخدم رأس ابنها الغالي كقسم وعهد لشيء لم يتمكن من الوفاء به، لا يحمل سوى الكآبة والرغبة والجزع. وعلى عكس آدم الذي كان يشعر بالارتياح كلما بعدت بهم الطائرة عن لبنان كانت طيور الرهبة تحوم حول كتفي نادرة الجميلتين مع اقترابها من الأجواء الكويتية.

كانت الكويت آنئذ في حالة صعود وازدهار مُطَّرد. مدينة تتوق إلى أن تتعلم من بيروت أساليب التمتع بمباهج الحياة. بعد قرون من الحياة الصحراوية وصيد اللؤلؤ، أتى النفط ليعدّ برخاء وتقدّم غير مسبوقين وحياة موسومة بالوفرة تتاح لكل راغب. كان آدم أحد الراغبين. عمل ليل نهار بل أكثر جدًّا وجهدًا من الآخرين ليجعل من الخطوط الجوية الكويتية شركة منافسة. أضافت الشابات السمرات بشعرهن الأسود الجميل وتنانيرهن القصيرة البهجة على المكان. ولم ينقص المدينة صالات الرقص أو المشروبات الروحية. كانت هناك مدرسة دولية لنادر ونادي للفروسية وشواطئ صافية يمكن أن تسترخي والأصدقاء على رمالها في عطلة نهاية الأسبوع. وكانت هناك فرص لحياة مثيرة مسلية سرعان ما

بَدَّدَتْ تَحَوَّفَ نادرة من فراقها لبلدها وأهلها. بعد بضع سنوات فقط، اندلعت الحرب في لبنان، عندها شعر آدم ونادرة في ركنهما الآمن بعيداً عن أهوال المعارك أن الحظ، صديقهما القديم، قد عاد إلى جانبهما.

الشيء الوحيد الذي نغص عليهما حياتهما هو أن نادرة لم تكن لتحمل مرة ثانية. لم يكن هذا في حسابان آدم الذي خطط في سني مراهقته كي يصبح أباً لولد وابنتين. في بعض الأحيان كان يخطر له وهو يتناول فطوره فيما إذا كان لتعذر حمل نادرة علاقة بتسمية ابنهما نادر ما جعله نادراً فعلاً، فأفسد الاسم خطته التي حلم بها. لكنه رفض أن يقبل عبارات تشير إلى «القدر» أو «النصيب» أو «مشيئة الله». فضل أن يربط الأمر بالخط فقط. لقد كانا محظوظين إذ وهبهما الله طفلاً، فهناك الكثيرون ممن حرموا من هذه النعمة. عندها يطرد هذه الأفكار من رأسه، يحتسي قهوته الحلوة بكثير من الرضا، ويضع الفنجان على الطاولة بخبطة مسموعة تصل إلى أسماع نادرة التي تناديه من غرفة نادر مهددة أن عليه أن يشتري لها عشرة أطقم جديدة من الفناجين إن كسر طقمها المفضل. يعتمر قبعة الطيار متباهياً، وكعادته يشكر السيدة العذراء على كل الحظ الذي أسبغته عليه والذي تجلّى في كل ما حظي به.

بدأ كل شيء في عام 1972 عندما استلم نادر رسالة من جده وجهها إليه بالتحديد بمناسبة عيد ميلاده الخامس. كانت الرسالة

مقتضبة ومتكلفة بعض الشيء، وكيف لا وهي أول رسالة يكتبها توماس لحفيده فالآخرون من أحفاده لم يغادروا القرية قط ولم يضطر يوماً إلى مكاتبتهم. وبمرور السنين بدأت هذه الرسائل تتخذ أسلوباً أعجب نادر أيّما إعجاب. فقد كشف الجد عن امتلاكه لغة نابضة بالحياة وحكايا لا تنضب تدور حول ما يجري في القرية وعن أهلها وأفعالهم وأسباب هذه الأفعال مهما كانت غريبة أو موعلة في القدم. من خلال هذه الحكايا لمس نادر روح جده المرحه وكذلك سلطته الكبيرة التي لا تتزعزع. استطاع نادر أن يستشف ما يكمن وراء حروف الجد الكبيرة الواثقة من شخصية حسيّة تَمْنَى أن تنهيا له يوماً سبل محاكاتها. لكن هذا لم يكن ليتحقق إلا بعد عديد من السنين وبعد سيل من الرسائل التي كانت تنهال عليه بالعشرات بواقع رسالة كل أسبوع تقريباً. لم تحتوِ أول رسالة سوى على سطر واحد كتب على ورقة بسيطة شفافة مفاده: كل عام وأنت بخير يا حفيدي أو ما شابه ذلك من عبارات عامة. لم تلفت الكلمات أو الورق الذي خُطَّت عليه انتباه نادر بل الطوابع التي ألصقت على الظرف والتي كانت تحتفي بأولمبياد ميونيخ: رسوم ظليلة سوداء معلّقة داخل أشكال بيضوية ملونة لرياضيين يقومون بحركات بطولية خارقة. لم يستطع نادر أن يشيح بعينه عن هذه الرسوم وهذه الحلقات النابضة وتلك القوة المرتعشة تحت العضلات المفتولة أو عن خطوط الحبر التي وسمت المسافة بين لبنان، الذي لا يتذكر منه شيئاً، وبيته في الكويت. شغفته هذه الطوابع أكثر من كل ما اشتراه له والداه وأصدقاؤهما من ألعاب باهظة الثمن. أصبح

نزع الطوابع عن رسائل الجد وجمعها كنز النجوم وامتلاكها،
وغدا ألبومه الزاخر مدخلاً لعالم من التشويق والمغامرة غدّته حكايا
والده عن بومباي وريو وأثينا وروما ومنحته نفحة من سحر الحياة
وجاذبيتها.

وصلت الرسالة الأولى في منتصف شهر سبتمبر، أياماً قليلة
قبل عيد ميلاد نادر، وبضعة أيام بعد كارثة ميونيخ. خطر على بال
آدم أن والده كان يحاول من خلال هذه الطوابع أن ينقل إليه رسالة
ما. هل اشترى الطوابع منذ أشهر عدة سبقت الحدث واستخدمها
لكسله إذ وجدها هناك في أحد أدراج مكتبه المتداعي؟ أم أنه
أرسلها كتنبية لكوارث مقبلة ستعصف بالشرق الأوسط وتمتد إلى
أوروبا وتطال ميونيخ؟ هل كان اختياره لستة طوابع تجاوزت المبلغ
المطلوب اختياراً قصد منه رضاه عن قرار آدم اصطحاب عائلته إلى
مكان آمن نسبياً كالكويت؟

لم يتعلق الأمر بتوقف توماس كلياً عن التواصل مع ابنه.
صحيح أنه رفض وداعه في الأسبوع الذي سبق سفره، والتي
اعتبرها أهل القرية توبيخاً ودلالة أكيدة على قطيعة لا رجعة فيها،
لكنهم كانوا مخطئين. فحتى في ذلك الأسبوع الموحش قام توماس
بصمت بدس ظرف مغلق في يد زوجته التي قامت بدورها، ووفاءً
لشريك حياتها الذي كانت توافقه في كل ما يشور به، بإيداع الظرف
الأزرق المربع في جيب ابنها الداخلي يقيناً بأنها الجيب الذي
يحتفظ فيه بصورها وصور أبيه وزوجته وطفله، صور تعرف أنها

لن تفارقه في حال تعرضت الطائرة التي يقودها لحادث تنتهي معه حياته. فتح آدم الرسالة في اللحظة التي انتبه لها. لم يكن هناك في الرسالة إلا رقم تلفون وعبارة مقتضبة: مرة كل شهر.

كانت المكالمات الأولى رسمية وجافة فتوماس لم يكن معتادًا على التحدث بالهاتف، كما أنه احتاج بعض الوقت ليعتاد أيضًا تقطع الخط الفاصل بينه وبين ولده ذي العينين الرماديتين. غالبًا ما دار الحديث حول الحفيد إن شيء إلا لتفادي الصدع الذي باعدهما. لم يكن جدّو قادرًا على بتر تواصلهما كليًا لكنه استصعب في نفس الوقت التساهل فيما حدث. ولكونه بطرًا لعائلته وللقرية برمتها فقد أحس بأن الصفح المطلق قد يُفسَّر كدلالة ضعف لا يتناسب ومظهر القوة الذي كان ما زال يتمسك به. لكن الأمور ستتغير.

تعوّد آدم أن يلتقط مغزى الطوابع التي يرسلها والده إلى نادر كمن يقرأ رسائل مشفرة. زاد اقتناعًا بأن طوابع ميونيخ كانت رسالة من والده يبارك الخطوة التي قرر فيها الرحيل إلى الكويت. أما الطابع الأخضر الذي حمل صورة صبية صغار يرتدون قمصانًا حمراء ويلعبون كرة القدم فلا بد أنه كان تذكيرًا لطيفًا بمزيد من الأحفاد. لم يكن قلب آدم يطاوعه أن يخبر والده بأنه قدّر لنادر أن يبقى وحيدًا، نادرًا كاسمه (فآدم يرفض أن يعتبر الأمر لعنة حلت به). كان جدّو سيدرك حتمًا أن ما أقسم عليه آدم في ذلك اليوم الذي

لا ينسى بأن يُخَلَّفَ ابناً وابنتين لا بد وقد اعترضه قدرٌ جسيم حال دون تنفيذه. لهذا لم يستشف آدم في طابع الصبية اللاهين بالكرة خيبة أو تأنيباً بل ربما إشارة غير مباشرة إلى رغبة في المزيد: يد أب تداعب شعر صغيره، رائحة الطيب التي تفوح من عرق الصغير بعد لهوه، صوت هامس في منتصف الليل يطلب السماح بأن يقضي بقية الليل في سرير آدم ونادرة. ما لمسه في الطابع وفي عديد من الطوابع الأخرى كان فيضاً من المشاعر المتعاطفة ومحبة عظيمة لآدم ولعائلته الصغيرة.

لم يهتم نادر على عكس والده بتأويل معاني طوابع الجد فهو لم يكن يحتاج تفسيراً ولا تأويلاً فعلاقته بجده علاقة سلسلة هنية ومراسلاتها اتسمت غالباً بالصراحة وبالدهابات اللاذعة. اهتم نادر بالطوابع لسبب مختلف كلياً عن اهتمام آدم. في أحد الطوابع التي أرسلها جدّو عام 1975 والذي حمل صورة لأسد وابن آوى من حكايا كليلية ودمته، كان ما رآه نادر هو صورة عالم غاوٍ وواسع وغير مألوف، عالم من كتب ذكية ساحرة اختلفت عن الكتب التي عرفها جيداً والتي زخرت بها رفوف مكتبة المدرسة الأمريكية في الكويت. لم تشبه كتب *The Hardy Boys* ولا *The Famous Five* ولا حتى *The Wizard of Oz* على الرغم من أن هذا الأخير كاد يقارب ما ساقه إليه طابع كليلية ودمته. بدأ نادر يطلب من أبيه مزيداً من المعلومات عن هذا الكتاب الرائع الذي فتنته صورته الدقيقة لأسد جسور فخور مبتهج وابن آوى هزيل بفكين مرتعشين.

«كلىة ودمنة مجموعة قصص قصيرة تحكى عن حياة الحيوانات، بعض هذه الحيوانات نبيل وبعضها الآخر يقع في مآزق شتى. هي قصص تعلمنا نحن البشر كيف نعيش في هذا العالم».

«من أين أتت هذه القصص؟ أهى عربية؟ من هى كلىة ومن دمنة؟ وأيهما الأسد؟»

«كلاهما من فصيلة ابن آوى وهما يظهران في كل القصص ولهذا سميت المجموعة باسمهما. من الصعب تحديد أصل هذه القصص فقد أتت من أماكن شتى كالهند وإيران والعراق وإسبانيا. والطريف فى الأمر أن القصص تغيرت بتغير البلدان. هذا هو حال الدنيا يا نادر، فكل شىء يترك وراءه أثرًا، كما هو حالك، فأنت أيضًا تنمو وتكبر فتلتقط التجارب مما حولك كمغناطيس يجذب إليه برادة حديد الحياة».

«أعتقد أنني أرغب فى قراءة كلىة ودمنة».

بكل سرور أحضر آدم لنادر نسخة مترجمة إلى الإنجليزية من كلىة ودمنة ذلك أن الإنجليزية كانت اللغة الأقرب إلى نادر. لم يكن الأمر يزعج آدم بقدر ما أقلق نادرة وثلة من أصدقائهما ممن خشوا أن يفقد أطفالهم الصلة باللغة العربية فينفهم أكثر عن وطنهم لبنان. لم يكن آدم يؤمن بوجود درجات للمنفى، وقد اعتبر أن اللغات حق كل إنسان، ولم يأبه إن اختار نادر الإنجليزية بدل العربية أو حتى الفرنسية. لقد حسم نادر الأمر باختياره لمراسلاته مع جده لغة إنجليزية خلط معها العربية التى يفضلها جده محيلًا

الاثنين معاً إلى لغة جديدة تنبض بالحياة وإن تستدعي كل تركيز الجدل الحائر. تبين فيما بعد أن نادر سيتقن اللغات الثلاث وستنسب كل واحدة منها على شفثيه انسياب شال كشميري عبر خاتم من الذهب الوردي. منحه كلية ودمته، حتى في نسختها الإنجليزية، انفتاحاً على عالم فسيح يشكله الخيال كما يشاء. علمته أن الأشياء مترابط أكثر من أن تتباعد وإن رفض الجميع أو عجزوا عن رؤية هذه الروابط. توصل نادر إلى قناعة أن من الحكمة أحياناً أن تبقى هذه الصلات خفية، لأن بعضها لم يُقدَّر لها أصلاً أن يشاركها فيها أحد.

لكن آدم وعلى العكس من ابنه لم يرَ في طابع كلية ودمته الذي أرسله الجد في بداية الحرب الأهلية والذي احتفل بيوم الطفل منذ بضع سنوات أي علاقة بالأدب أو عالمه المتخيل. وبالتأكيد لم تكن له صلة بأي احتفاء بالطفولة. أدرك آدم أن اختيار والده للطابع يخفي رسالة سياسية في طياته تحذر من خيانات قادمة ومن أرواح ستزهق ومن أكثر من ابن آوى سيخدع الأسود وأن تلك الأخيرة ستفرض شروطاً مريبة على الأرانب. كان في وسع آدم أن يدرك أن عالمه القديم الذي خلفه وراءه قد بدأ ينغلق عليه على الرغم من الأحلام الوردية التي ما زالت تراوده، وما يتوقعه لولده الرائع من فرص لا تنتهي. وللمرة الأولى في حياته بدأ آدم يلحظ أن الوعود لا تتحقق.

وجد آدم ونادرة الأمان في قربهما بعضهما من بعض رغم ما كان يهدد بيروت من حرب كارثية. وكان يكفيهما، كما اعترفا صراحة ومن دون غيرة أو استياء، وجود نادر بينهما. أقبل نادر على الحياة باندفاع وحماس لكل ما حوله جذب إليه الجميع حتى الغرباء أكثر من انجذابهم أو افتنانهم بجماله الذي كان استثنائيًا أيضًا. كان الجو الذي أحاط بنادر، كغيره من الأجواء، جواً نسجه وهم وخيال يشابه في ذلك ما ساد الكويت في الثمانينيات في زمن لم يلطخه بعد تدخل الجوار ونهشهم للبلد الجميل وادعاء الفضيلة. أن يقدر صبي لبناني مسيحي على أن يقبض على زمن الوهم هذا في مثل هذا المكان المتفجر يلخص الموضوع. ومع ذلك فقد بدأت المشاكل تتجسد على شاكلة صقور بأعين سوداء وبهائم ملتحية، كان لنادر أن يقرأ عنها فيما مضى في كتاب كليلة ودمنة المصوّر. لكنه سيغادر الحياة قبل فترة طويلة من قيام هذه القوى ببسط يدها على العباد، وإن كان والداه سيشهدان ما آل إليه حلم البلاد الذي تلاشى وتبدد تمامًا كحلمه هو.

في أغسطس من عام 1984، قبل عيد ميلاده السابع عشر، وقبل شهر من وفاته، كان نادر على جناح طائرة تتوجه به إلى نيويورك عبر لندن. فقد خطط لزيارة جامعة كولومبيا التي اختارها من بين الجامعات لبدأ فيها دراسته بعد تخرجه في مدرسته الثانوية، ذلك التخرج الذي لم يكتب له أن يتحقق. كان آدم من يقود الطائرة يومئذ. بعد أن قطعت الطائرة نصف الطريق تقريبًا، غادر آدم

قمرة القيادة كي يحرك ساقيه ويتفقد ركاب الطائرة الذين كانوا قد وضعوا أرواحهم، ولو لفترة، بين يديه. في تجواله بين المقاعد، لمح ابنه نادر جالسًا في مؤخرة الطائرة. كان مشهدًا لن ينساه طوال ما تبقى له من عمر. نادر في وسط مجموعة من الشبان والشابات وقد استقطب انتباه كل واحد منهم. بدا وكأنه يصف شيئًا معيّنًا لهم إذ أخذت يده الطويلتان الجميلتان ترسم أشكالًا غريبة في الهواء لسيارات أو طائرات أو ربما لأسود ولأبناء آوى. جلست شابة صغيرة ذات تقاطيع بديعة على مسند ذراع كرسيه وراح نادر من حين إلى آخر يمسد بمحبة شعرها الذي قص قصيرًا من الخلف. شقيقة لم يُقدّر لها أن تبصر النور. تنفجر المجموعة بالضحك في آن واحد ككائن توحد بنبضٍ وعودِ الشباب. في غضون شهر، أي في نهاية شهر سبتمبر، يكون قد مضى على اختفاء جدّو توماس عامان كاملان. أثار منظر نادر المبتهج والمتألق شعورًا لدى آدم، شعورًا حفر في أعماقه أنه لن يرى والده ثانية، وهو الأمر الذي شق عليه إقراره حتى ذلك الحين. رأى نادر يشع نضارة ويتحلق حوله شباب في سنه، يمسك كأسًا في يده، يبعث في قلوبهم الفرح فيطلقون ضحكات مجلجلة مدوية (في زمن كان فيه للفرح فسحة)، وينطلق نحو المستقبل الذي ينتظره (كيف كان لآدم عندئذ أن يتنبأ بأن الموت هو ما كان لنادر بالمرصاد؟). ذلك المشهد أعان آدم أخيرًا على تحرير تلافيف دماغه من توماس الذي لم يغادره من قبل.

تلقى آدم مكالمة هاتفية تنقل خبر اختفاء جدّو توماس كالصاعقة الأمر الذي تركه لأسابيع طويلة يهيم على وجهه كشبح تحت تأثير مخدر. قلقت نادرة على صحة زوجها لكن قلقها على نادر كان أعظم. انهارت إذ تذكرت عهدًا قطعه آدم على نفسه عندما أقسم برأس ابنه إنه لن يقرب السياسة ولا أمور الدين. كانت متأكدة أن أحدهما، السياسة أو الدين، يهجع خلف اختفاء جدّو. خشيت أن يُسَجَّرَ آدم إلى مآزق ليس له فيها ناقة ولا جمل وأن تنهال عليهم مصائب يضطرون فيها إلى دفع الثمن غاليًا. لم يكن لها إلا أن تفكر هكذا، فهي أولاً وأخيرًا تبقى ابنة الضيعة. ها هو لبنان يقرع على أبوابهم مرة أخرى ولم تكن لتتوفر لديهم معرفة بسبل المناورة في خضم أجواء الثأر والانتقام القاتل. وشيئًا فشيئًا أخذ آدم ونادرة يشعران بأن الحظ بدأ يغير مساره.

لم يكن هذا الشعور بالجديد فقد بدأ ينسل تدريجيًا إلى داخل نادر، وإن لم يولده اختفاء جدّو وحده. سبق وصول رسالة الجد اختفائه بثلاثة أيام، وتبيّن من التاريخ المطبوع على الطابع الرائع أنها أرسلت قبل أسبوع. حار نادر فيما إذا كان عليه أن يري الرسالة لوالديه أم لا. لكنه تذكر درسًا تعلمه في الماضي أن بعض العلاقات يجب أن تحافظ على خصوصيتها. لم يكن ليخون جده، الجد الذي لم يكن يراه إلا لماً وإن كان يدرك كم يحبه، وكم أحبه ذلك الجد بكل وقار ولطف وحكمة الفيلة.

ساعدت الرسالة نادر على تقبل اختفاء جده أكثر مما قدر عليه

والداه. عرف بعد انصرام العامين أن عالمهم لم يُعد على ما كان عليه وحز في نفسه أنه غير قادر على تخفيف حزنهم المتنامي. يوم تلقي المكالمة، قرر نادر أن يخفي الرسالة عن أعين والديه بدفعها إلى وسط فراشه حيث لا تطلها أصابع والدته الماهرة وهي ترتب ملاءات السرير ولم يعتقد أن أيًا من والديه سينبش عن قصد في ذاك المكان. كان نادر متأكدًا من أن رسالة جدّو لا يمكن أن تقع في أيدي الوالدين، وهو الاحتمال الذي حذره منه الجد بشدة في رسالته. في تلك اللحظة الأخيرة اليائسة اختار توماس أن يعترف لابن الخامسة عشرة وليس لأي إنسان آخر، فقد كان يدرك تمامًا أن ما يتصف به حفيده من خفة وجاذبية مجتمعين يكفل احترام الشاب لخصوصية آخر ما يقوم به عجوز مهزوم فلا يطلع عليه أحدًا.

بعد أن مضى على وفاة نادر أربع عشرة سنة عثرت نادرة في إحدى ثنايا فراشه على آخر رسالة أرسلها إليه جده. كانت الرسالة في منتصف الفراش حيث لم تطلها أصابعها في كل مرة غيرت فيها الملاءات مرة كل أسبوع كعادتها التي لم تنقطع. لو فعلت ذلك فيما مضى من سنين عندما كان الحظ حليفهم لوجدت في نفس المكان العصيّ بضعة أعداد من مجلة بلاي بوي، وقصاصات انتزعت من دفتر بسلك معدني دونت عليها فتيات فُتُنَّ بحب الفارس الجميل ذي الشعر الكستنائي، ولربما وجدت سيجارة ماريجوانا أو أكثر، ومن وقت إلى آخر كانت لتجد طابعًا يحمل وعدًا بشيء يتعلق بالمستقبل أراد تذكره. كان نادر قد فكر بأصابع أمه عندما نوى

إخفاء رسالة الجد توماس التي حملت آخر كلماته. أدركت نادرة ذلك وهي تجهد لترفع الفراش القديم عن السرير بمفردها على الرغم من رجاء زوجها أن تنتظر عودته ليعينها في المهمة. انهارت نادرة على مرتبة ولدها المغبرة التي كان يفترض أن ترمى خارجاً والتي تشغل الآن أكثر من نصف أرض الغرفة. كان مجرد التفكير في نادر وهو يتخيل أصابعها كفيلاً بأن يمزق ما تبقى لها من جلد. عرفت أنها لم تسمح لنفسها بالانهيار في آخر يوم لهما قبل العودة إلى لبنان بعد انصرام أربعين سنة من الإقامة في الكويت. لالن يطاوعها قلبها أن تفعل ذلك لآدم. فضّلت أن تركّز ذهنها في الرسالة التي أمسكتها بيدين واهنتين.

لم يفاتحها آدم في يوم من الأيام عن ظنه بأن والده كان يتواصل معه عبر طوابع يلصقها على رسائله لنادر تكاد تكون شيفرات سرية بينهما، لكنها الآن، وقد أخذت تنظر إلى الطابع على آخر رسالة من جدّو لابنها، توصلت إلى نفس الاستنتاج. كان جدّو يحاول إخبارهم بشيء معين، وهذا الطابع الذي انتقاه لآخر مرة كان هشاً ضعيفاً وحزيناً وكان يشير إلى الوداع. هو أصغر وأقل لمعاناً من الطوابع اللبنانية آنذ، بل بدا كما لو أنه يعود إلى عهد الاستعمار، لا استعمار لبنان بل عهد الاستعمار في الهند أو في كينيا. على الطابع صورة بلون واحد أخضر مائل إلى الزرقة لا يشابه أي أخضر آخر. بدا أشبه ما يكون بتلك الطوابع التي حملت صورة الملكة إليزابيث بسلسلة من ألوان أحادية متعددة وإن لم تدرِ نادرة كيف عرفت

ذلك. ولكن بدلاً من وجه الملكة احتلت الطابع صورة فيل في وضع جانبي ولم يبدُ منه سوى أذن كبيرة، وجذع منخفض، وعين واحدة ثابتة. ما شد انتباه نادرة هو العين فقد شابهت عين جدّو إلى حد بعيد. وكأن جدّو توماس قد تمكن بطريقة ما من حفر صورة عينه مكان عين الفيل على واحد من أكثر الطوابع غرابة وشططاً في الدلالة والمقصد. بدا الفيل وكأنه سينطق. بدا جدّو حزيناً متلاشياً. في عين والد زوجها المفجوعة الملتمة رأّت نادرة انعكاساً لصورة ولدها.

19 سبتمبر 1982

عزيري نادر،

يستحيل أن تكون سمعت بما حدث.

يبدأ كل عام والقرية يجدوها الأمل. نلهج بالشكر للسيدة العذراء على الرغم مما يحل بنا من خراب ومن غياب للعدل. ولكن بعد كل ما حدث لم يعد هناك مكان حتى للأمل. وليس في وسعي أن أفكر في بداية أخرى.

إنها وصمة عار كبرى. ستسمع بها. صبرا وشاتيلا. لقد أوقعوا في الشرك كما الحشرات الهوام، مئات منهم وربما آلاف، محاصرون ومذبوحون. وحتى لو قضى منهم واحد فقط فسيبقى الأمر وصمة عار لا تمحى.

يا مريم العذراء.

خرجت فتاتان. توأم. سمعت عن ذلك من المحامي.
هل تذكره؟ القاضي ذو اللحية البيضاء والعينين الزرقاوين.
قلت لي مرة إنه يشبه الآلهة. وجدوهما في قبو على بعد
كيلومترين من المخيم. رفضتا الكلام. لا أستطيع أن أتوقف
لحظة عن التفكير فيهما. كانتا في الثامنة أو لربما التاسعة. كان
لهما أن تكونا شقيقتيك. هما شقيقتاك يا نادر. هما حفيدتاي.
صغيرتان ترتعشان في قبو رطب معتم بدون طعام أو ماء،
تتسلق الحشرات شعرهما.

كيف فعلنا ذلك؟

أرفقت برسالتي قائمة أسماء. لا علاقة لك بهذه القائمة.
من الضروري جدًا يا نادر ألا تدع والديك يرون هذه الرسالة
أو القائمة. ومهما حصل، يبقى الأمر سرًا بيني وبينك. عندما
قرر والدك الرحيل كان قراره صائبًا. لم أدرك ذلك يومها
لكنني أدركه الآن. لن أسمح لما جرى أن يعيدني إلى تلك
الغفلة. هو حر. أنت حريته.

لكنني أريدك أن تحتفظ بالقائمة. أريدك ألا تنسى يومًا
من فعل هذا ولمن. قد لا تعود أبدًا إلى لبنان. قد لا تعود قط.
ولكن إن فعلت، فأنا أريدك أن تعرف الحقائق.

سأبحث عن هاتين الفتاتين. هذه القائمة ستقتلني، لكنه
يتوجب عليّ أن أرى هاتين الفتاتين. إن كان هناك ما تبقى من
أجل لبنان فهو يهجع في داخلهما.

ستكون هذه رسالتي الأخيرة. أحبك.

وداعًا.

توماس

مرّة أعطتني سارة خاتماً بحجر زمردني صغير. لربما أعطتني إياه بمناسبة عيد ميلادي أو عربوناً للصداقة. لبسته في بنصري الذي جاء الخاتم بالكاد على مقاسه. كان شعر سارة خشناً أجعد بل أشبه بليفة بريلو، المصنوعة من الألومنيوم، على الأقل هذا ما كان جيّك وأندرو يطلقانه على شعرها، مرتين يومياً لمدة عامين. لم نكن نعرف تماماً ما هي ليفة بريلو أو ما شكلها، كل ما استنتجناه هو أن ما وُصِفَتْ به لم يكن جميلاً وأنه انطوى على الخشونة والتجعيد وأنه يشير إلى ما تُفَرِّكُ به القدور السوداء. لهذا جاء الوصف قاسياً ومبالغاً فيه. وبينما أطلق الصبيان على سارة اسم ليفة بريلو، أطلقا عليّ اسم الموناليزا، اسم يبدو أفضل بكثير من اسمها وإن لم أجده كذلك. لجيّك عيانان صفراوان ولأندرو جلد أحمر حرشفي، شعر بلون الكرز البرتقالي، زهري فاتح، وجلد يكسوه النمش -تعرف ما أعني- شكل قميء كمن عانى من مرض وأنقذ منه ثم نُفِخَ فامتلاً غروراً المجرد أنه أمريكي. ولم يكن في وسعنا أن نقول عكس ذلك.

عندما كنت وسارة أصغر تجاهلنا الاثنان، جيک وأندرو، لكننا لما بلغنا الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرنا وجدنا فينا هدفًا سهلاً لمضايقتنا والتدخل في شؤوننا، بل كنا مَعِينًا لا ينضب لسخريتهما. لم نكن جنباء كالفران بل رددنا الصاع صاعين ملقبيين إياهما بـ«أبو العيون الصفراء» و«ذو الوجه الأحمر المبقع». لكن إجابتهما اللاذعة «والله الليفة بتتكلم» و«وين قاعدة تطالعين يا موناليزا» كانت تلجمنا في أماكننا. أصبحت سارة أكثر حساسية بشأن شعرها الشائك المشبك، وأنا شعرتُ بعدم الارتياح لتشبيهي بالموناليزا فقد قرأت أنها ربما كانت رجلًا ولم أطمئن لابتسامتها المريبة. اضطررنا لسنة كاملة أو سنتين أن نتحمل سماجتهم.

لكن الفتيات يتغيرن فجأة، في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرهن يصبحن لعوبات بين ليلة وضحاها. بعد عطلة صيفية طويلة، صعدت سارة إلى الباص تستعرض مفاتها التي كانت صارخة كتلك التي تجعل السيارات تقف وتزمر وتدورُ رأس الفتيان (والفتيات): شفاه مخضبة وبشرة حنطية. صعدت خلفها، حدود مكتنزة نضرة وذراعان رشيقتان يافعان. فتح جيک وأندرو فاهيهما ذاهلين. وفورًا، حاولا بسرعة أن يمحقا سنوات من المضايقة ويستبدلا بها تزلفًا مصطنعًا. تجاهلتُ وسارة الصبيين وأزحناهما كليًا عن دائرة نظرنا، الأمر الذي لم يتطلب جهدًا كبيرًا فقد بدوا أصغر حجمًا مما كنا نتذكره. بحماس وحيوية ظاهرة رحنا نتحدث عن الطقس.

في نهاية السنة التي تحولنا فيها إلى فتاتين لعوبتين، قايتخت
خاتمي ذا الحجر الزمردى بمحفظة جلدية صغيرة. كان الخاتم الشيء
الوحيد الذي كان معي وأحبه، الشيء الوحيد الذي كنت أستطيع
أن أهديه لجوناس في آخر يوم لنا معًا. لم يرق الأمر لسارة ورأت
في تصرفي جحودًا وطيشًا. ما لم تستوعبه سارة قط هو أن إهدائي
جوناس خاتمي الزمرد هو تعبير قوي عن حبي لها - تلك الجميلة
ذات الشعر الأسود - وليس حبي له.

~

قبعتها القش

ربما لم تشهد السفينة الحائمة، «القط الطائر الثالث»، التي تربط بين أثينا وسيفنوس، امرأة تبدو أكثر حزنًا من جولي. لم يستطع يانس أن يجد تفسيرًا لتسمية القط الطائر. لم لا يسمونها الدلفين الطائر أو لربما السمك الطائر أو الأخطبوط الطائر. بالتأكيد لا معنى هنا لقط ليس له أي صلة بالبحر. لا شك أن جولي دَوَّنت في ذهنها هذه الملاحظة، وحفرتها في ذلك السجل الأسود الكبير الذي أيقن يانس أنه يقبع في تلافيف مخها. ستصنفها في ذلك الجزء الذي تخصصه «للتفاصيل الدقيقة المزعجة التي يصعب تفسيرها والتي صادفتها وترفَّعت عن التعليق عليها». يوقن يانس أن هذا الجزء ليس إلا فصلًا واحدًا من كتابها الأسود. فلا بد أن لديها وبالتأكيد فصلًا آخر أطول بعنوان: «المزيد من الملاحظات الدقيقة المزعجة التي يصعب تفسيرها والتي صادفْتُها ولم أستطع أن أمسك نفسي عن التعليق عليها». في الماضي كانت عبارات التذمر تمر في حياتها كتيار ريح. تمنى يانس لو بقي الأمر كذلك، فأى شيء هو أفضل من

هذا الحزن المهين الشديد. في الماضي كانت ترانيمها المريرة تضحكه بل تقنعه بأنها ليست سوى انعكاس لانشغالها بالعالم. قد لا تكون سعيدة لكنها منشغلة وراسخة وملتزمة بالأرض وبه. هي الآن تهيم بلا هدف. تطفو وتنجرف. لم تغرق بعد، لكنها بالتأكيد لم تكن تطير. لم تكن جولي قطعة طائفة.

كان حزنها وهي تركب متن القارب الحائم حزناً عميقاً داكناً جعله يخشى أن تغرق السفينة وتغوص بهم إلى الأعماق. خشي أن يلحظ كل من في الكابينة حزن زوجته وبؤسها فتعكر عليهم حماسهم في قضاء صيف جميل ينتظرهم على الجزر القريبة ويعددهم بالتمتع بملذات لا تحصى. قد يظنون به الظنون وهم يلتفتون إلى زوجته برؤوسهم الشابة فيعتبرونه المسؤول عن حزنها. لا بد أن هذا الرجل -الطويل القامة نحيلها، ذا العينين الزرقاوين المائلتين إلى الخضرة والشعر الأشقر- الذي يرافق أكثر نساء الأرض حزناً، وراء كل هذا الأسى بشكل أو آخر. اتهامات صامتة تلطمه في غدوه ورواحه كأمواج بحر تضرب جانب القارب، ذلك السُّنُور الطائر الذي لا يُعقل.

تأكد يانس أن الأطفال قد استقروا في أماكنهم. وضع زوي في المقعد أمامه وأوثق حزام أمانها وأراها كيف تشده ليناسب جسدها الصغير ذا الخمس سنوات. جلس جول على مقعد أمام والدته بالقرب من النافذة، أخرج من حقيبة الظهر أحد كتب هاري بوتر السميكة كما أخرج رأس مهرج مطاطي أخذ يدعك به جبينه بحركة

منتظمة. أخذ يمص إبهامه بشدة فقد كان ولساعات طوال ينتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر. لقد أخبره والده في الصباح بأنه سيسمح له بمص إصبعه فقط عندما يصلون إلى القارب وليس دقيقة واحدة قبل ذلك. عد جول الدقائق من شقتهم إلى مطار شارل ديغول إلى الطائرة التي أقلتهم إلى أثينا إلى التاكسي الذي أوصلهم إلى الميناء في بيربوس وحتى تلك اللحظة السعيدة التي حطت به أخيراً على متن القارب الميمون المسمى بالقط الطائر الثالث. كانت متعة لا تعادلها متعة أن يركب القط الطائر المتجه إلى سيفنوس، متعة تفوق امتطاء مكنسة ساحرة أو ظهر الهيبوغريف أو حتى الشترال. يدرك يانس تمامًا أنه لا يليق بطفل في الثامنة من عمره أن يمص إصبعه ولكن الاستثناء وارد لكونه ابن أكثر نساء الأرض حزناً ويستحق، كتعويض له، أن يجد ملاذاً في شيء يهدئه ويسعده لأطول مدة يسمح بها العالم. يتساءل يانس في نفسه إن كانت جولي تنزعج من عادة ابنها هذه وإن كانت تدونها في فصل «تفاصيل ترفعت عن التعليق عليها». ترقب جول في بعض الأحيان وهو يمص إصبعه ويدعك جبينه بشدة برأس المهرج الباسم المطاطي. تنوص بعينها قليلاً وهي ترقبه. هل ترقب مصه للإصبع، أم ترقب ذاك الرأس المطاطي الذي نزع من لعبة كانت قد اشترتها له قبل أن يولد؟ هل يزعجها جول؟ لم تكن لدى يانس أدنى فكرة.

جول طفل رائع، ولربما كان أحسن طفل على الإطلاق. يسأل أسئلة تذكّر أباه بمعنى الفضول. فهو يرغب في أن يعرف مثلاً لماذا

لا يملك البشر أجنحة تساعدهم على الطيران كالنحل أو لماذا لا يمكنهم التنفس تحت الماء. كم تمنى لو كان للنجوم حبل يربطها بعضها ببعض يمكن للأطفال أن يمسكوا به ويتأرجحوا بين مجموعات الكواكب. كان جول مهذبًا وكريمًا يحسن معاملته أخته الصغيرة فلم يبدِ غيرة من الاهتمام الذي سُلِب منه وأسبغ عليها خاصة في البداية قبل أن يُسلب منها هما الاثنان فيما بعد. كان هادئًا وصبورًا يصرف الساعات الطوال وحده، لا يطلب من أحد شيئًا، يقرأ أو يتفحص أشياء تحت عدسة مايكروسكوب أهداه إياه يانس بمناسبة عيد ميلاده. تقبّل جول صمت والدته وحزنها برحابة صدر. يضبطه يانس أحيانًا وهو يحرق إلى أمه بعينين قلقتين محبتين، عينين تداعبانها عن بعد بنظرات صامتة لا تلجّ بالسؤال ولا تطلب شيئًا ربما لأنه أدرك بفطرته بأنه ليس لديها ما تعطيه. كان ابنه ملاكًا بكل معنى الكلمة، وعندما يبتسم، وهو الأمر النادر الحدوث، كانت غمازاته تشعان كالنجوم عند الشفق.

لزوي حقيبة صغيرة وردية اللون بحجم ظهرها الذي تضعها عليه. زوي فتاة صغيرة مرتبة، لها عینان بنیتان وشعر أشقر بغيرة وقصير من الخلف، تبدو كدمية أكثر منها فتاة من لحم ودم. في حقيبة الظهر تلك أودعت علب الأحجيات المقطعة وكتبًا وقطعًا بلاستيكية زاهية الألوان جمعتها من داخل بيض الشوكولاته. لديها مزقة من لحاف تحملها معها أينما ذهبت، إلى المدرسة، الحديقة، السوق، السرير، وإلى القط الطائر. اعتادت أن تمص إصبعها كأخيها

وأن تدعك أنفها بمزقة اللحاف البالية. كان صوتها عاليًا. قد تلزم الهدوء لساعات طوال ثم تسأل فجأة سؤالًا أو تحاول جذب الانتباه من دون أن تلاحظ كيف يهدر صوتها شاقًا سكون العائلة الراكدة. اليوم على متن السفينة الطائرة كانت هادئة كأمرها. بقرب أنفها مزقة اللحاف، الإبهام في الفم، وأربعة أصابع طليقة تلوح كالمروحة. تنام طوال الرحلة إلى سيفنوس التي تستغرق ثلاث ساعات.

تخرج جولي كتابًا من حقيبتها وكأنها تقلد ابنها. أسعدها أن يانس يعتني بالأطفال، يتسم لهما ويقوم بكل ما يُفترضُ بأب صالح أن يقوم به، أي كل ما لم تكن هي قادرة على القيام به بنفسها. قربت ركبتيها من صدرها وتجاهلت كل ما حولها. حاولت جهدها أن تتجاهل زوجها الجالس بجوارها وقد أخذ يخرج حبات المشمش من كيس بلاستيكي، أن تتجاهل الطريقة المروعة التي كان يُعمل بها أسنانه في حبات الفاكهة إلى أن يسيل عصيرها على شفته السفلى ويبلل ذقنه فيتداركه عند آخر ثانية. كان المشهد يدفعها إلى الجنون ولكن ليس إلى الحد الذي يضطرها إلى كسر شرقة صمتها. لم يكن لديها من الطاقة ما يكفي لذلك أو للكلام والأخذ والرد أو للرقعة والحنان. لم تنشد سوى ما يشعرها بالراحة في الرواية السخيفة التي بين أيديها. لا أكثر ولا أقل. لم تنطق بكلمة واحدة منذ الصباح. قام يانس بكل شيء. وضَّب أغراض الصغار وأغراضه وأغراضها. حاول إضحاك الأطفال وهو يساعدهما على ارتداء ملابسهما. تأكد أن كل صنادير البيت مغلقة، أطفالاً أزرار الكهرباء وفصل المقابس.

طلب سيارة أجرة وأخرج الحقائب. أقفل الباب الرئيسي وضغط على زر المصعد. في المطار قام بإجراءات السفر. كان قد اشترى تذاكر السفر على متن هذه السفينة الطائرة المتجهة إلى سيفنوس والتي تحمل أسخف اسم: القط الطائر الثالث. لم لا يكون القط الأول أو الثاني؟

لم تستطع جولي أن تجبر نفسها على الكلام. لم تنطق بكلمة واحدة. حتى ولا عندما رأته يضع في الحقيبة قبعته العريضة المهرثة المصنوعة من القش والتي يحيط بحافتها شريط أحمر رفيع.

كانت جولي ترتدي نفس القبعة في يوم قائظ تجرأت فيه، أكثر من أي يوم مضى، على تقديم كأس من بيرة الميثوس اليونانية إلى يانس الذي تلقفها بأنامله الطويلة. حدث هذا منذ اثنتي عشرة سنة عندما كانت في السابعة والعشرين من عمرها حينما قررت أن تذهب إلى مكان تتأكد من خلوه من أي كويتي أو حتى عربي إن حالفها الحظ. لم يكن أحد قد سمع بسيفنوس، سمعوا بسانتوريني وكريت ورودوس وميكانوس ولكنهم لم يسمعوا بسيفنوس، جزيرتها السرية. أرادت أن تخرج من فخ الكويت، ومن فضائله وآثامه. لطالما أحست بالغربة في ذاك المكان المهيض الكسير، الشرق الأوسط. أرادت أن تنهي علاقتها بمكان لم تعد تتحمله: الصحراء والسم الأسود الذي ينضح في أعماقها، السماء الباهتة الحارقة، العيون التي ترقب وتُدين، وفوق كل شيء والداها. سترحل عن كل ذلك ولو لفترة ما.

أرهقها غموض السر الكامن وراء حزن والدتها، عدم مبالاة والدها، والإحساس بالذنب الذي أشعرها والداها به على الدوام والذي تجلى في كل تنهيدة أو رمشة من أجفانها الخاوية.

سُميت غالية، والاسم دلالة الثمن الباهظ، فقد ولدت بعد عدد من الإجهاضات والأجنة الميتة وأطفال ماتوا بعد الولادة بقليل. قد تكون والدتها سلوى من دفع الثمن باهظًا بعد أن فقدت توازنها العاطفي وإحساسها بغياب الخير والعدالة عن هذا العالم. كبرت غالية ورأت كم بُعدَ بين والديها البون. شعرت في حضرة والدتها كأنها تقف أمام سفح جبل من جليد. لم تكن لتطلب أي شيء من أمها التي غطى صمتها على جميع غرف البيت الصغير باستثناء واحدة، غرفة غالية التي بقي بابها موصدًا وجهاز الراديو فيها مفتوحًا دائمًا يهدئ نفسها رغم ضجيجها. ولم يقدم إليها والدها، ذاك الرجل القصير المرهق، ما يعوضها عن إهمال والدتها. لم يتميز راشد بشيء عن أقرانه، عمل في بنك ككثيرين غيره من الكويتيين، وإن شغل منصبًا متواضعًا لا يعدُّ بأي إمكانية للترقية. لم يكثر راشد لهذا فقد كان يفتقر إلى الطموح ولم يكن في الواقع يهتم بأي شيء. لم يكن لانعدام مبالاته سببٌ خفي كأن يكون قد عانى من طفولة شقية أو مر بضغوط نفسية معينة. مضت به الأيام لا ينتظر منها أكثر من أن تمر وتنقضي.

طوال حياته لم يقترف راشد شيئًا غريبًا سوى ثلاث مرات كان أولها عندما بلغ السابعة عشرة من عمره. فبعد إكماله المرحلة

الثانوية قرر أن ينتقل إلى باريس لتعلم اللغة الفرنسية. أمضى سنتين هناك وعاد وهو يتحدث الفرنسية بطلاقة وإن لم يكن لهذه اللغة أي صلة بحياته. التحق بالجامعة حيث تخصص في إدارة الأعمال، ثم حصل على وظيفة في البنك لم تكن تتطلب كثيراً من التفكير، تزوج سلوى من دون أن يكون قد التقاها من قبل قط، ولجأ إلى كل وسيلة تبقي واحداً حياً على الأقل ممن حملت بهم سلوى، فقد كان مقتنعاً بأن كل حمل يفشل لأنه لم يكن يحب زوجته. لم يزر فرنسا ثانية ولم يعرف أحد في البنك أنه يتحدث الفرنسية.

الشيء الغريب الثاني في حياة راشد هو قراره إرسال غالية إلى المدرسة الفرنسية في الكويت. عاهد نفسه أن لا يتحدثها سوى بالفرنسية التي لا تفهمها زوجته سلوى ما لم يساعد في توطيد أقدام سلوى في أرضها. كانت غالية واحدة من عدد قليل من الطلبة الكويتيين هناك، وسرعان ما لُقِّبَتْ بجوليا، ونوديت بجولي تحبباً. أصرت غالية على التسمية الجديدة، وبما إن والدتها لم تكلمها إلا فيما ندر، وكذلك لأن علاقة والديها بأقربائهم تكاد لا تذكر، فقد كبرت غالية بعيداً عن جيش من العمات والخالات والأعمام والأخوال وأصبح من السهل أن تنسى اسمها الحقيقي، غالية، ذات الثمن الباهظ. انسجمت غالية مع جولي، ومع كل صباح تحتسي فيه القهوة بالحليب، وتتناول قطع البيتفور الصغيرة بألوانها الهادئة في فترة ما بعد الظهر، غدت حياتها فرنسية الطابع تزخر بأستريكس وتان تان، بالكاييه والسثيلو، بأزهار خزامى يُنَدِّيهامطرُ الصيف،

وبجرار زجاجية صغيرة من اللبن المعد بيتيًا. تلك جولي: فتاة بشعر بني طويل وبعينين داكنتين كالقدر وابتسامة ساحرة. لم تكن طويلة، لم تكن نحيلة، وإن بقيت في سن المراهقة وما بعده متناسقة الجسم، ممتلئة، كساعة رملية. تلك جولي، فتاة جسْمُها في الكويت ورأسُها في الغيوم الفرنسية.

عندما بلغت جولي السابعة والعشرين من عمرها كانت تملك مالا يكفيها لأن تأخذ إجازة لثلاثة أشهر، فهي تعمل في بنك، ليس بنك والدها بل أفضل، وتشغل منصبًا أفضل منه أيضًا يعدُّ بفرص للارتقاء. كانت باريس وجهتها كل عام لبضعة أسابيع منذ أن بدأت العمل وهي في سن الواحدة والعشرين. هذه المرة لم تُرد أن تمضي إجازة الشهور الثلاثة هناك. أرادت شيئًا مختلفًا يخرج عن المألوف تمامًا مثلما كانت عليه إقامة والدها في باريس في تلك السنين الماضية. أغرتها اليونان بأمواجها الهادئة الكسلى، زرقاء نيلية، أو زرقاء بلون الكوبالت، يعتمرها الزبد كقمم ثلجية تنتقل بدراية من جزيرة إلى أخرى. ستكون اليونان دافئة ولا يعني ذلك الطقس وحده (فليس هناك مكان أكثر دفئًا من الكويت). هو دفء آخر يكتنف المشهد الطبيعي نفسه. ستكون هناك جروف صخرية وماعز يخطر بكل اعتزاز، طرق ملتفة، وجبال قاحلة توشىها أشجار زيتون، مكان تنبض فيه أشجار المجنونة في كل أنحائه. هو دفء بل حرارة كجمر يتغلغل في مسام الجلد فيجعله ينضج بجمال لا يصدق. اختارت اليونان لأنه يمتلك كل ما تفتقده هي. اليونان

حارة، وهي باردة كأمها وإن لم تشأ أن تعترف بذلك. هي هادئة وإن لم تصمت بعد، أما اليونان فصاخبة، أوركسترا كاملة تعزف فيها الرياح أفضل السيمفونيات. كانت جولي إنسانة متفكرة متأملة متأنية كالزواحف بينما اليونان بلد متلهف عجول كدراجة نارية أو نحلة سوداء. أرادت أن تقضي ثلاثة أشهر في مكان لا يشبهها ولا يشبه أيًا ممن تعرفه، لا أمها ولا أباهما ولا بلدها ولا قاطنيه. أرادت أن تجد نفسها على حافة صخرة لم تعدها من قبل، أن ترمي نفسها في أحضان بحر لا يعرف شيئًا عنها، أن تصبح مجهولة الهوية، نكرة، غير مرئية، منبوذة. سيفنوس هو المكان.

مد يانس ذراعه نحو جولي ليقدم إليها حبة مشمش. لكنه لم يَجِنَ منها أكثر من هزة كتف رافضة لا تبين وحركة مماثلة من الرأس. تركها تقرأ. كانت ممتنة لذلك، ممتنة لكل الكياسة التي يمنحها بها حرية الاختيار. لم يأت يومًا على ذكر كلمة اكتئاب أو بروزاك، ذاك المهدئ المسكن، أو الأطباء النفسيين أو اختصاصيي علم النفس. كان في وسعه أن يفعل، فهو طبيب باطني وكان يعرف عديدًا من الأطباء في باريس. كما كان يتحرك ضمن مجموعة لطيفة من الأصدقاء المتقاربين الذين أحبوه إذ وجدوا في كونه يونانيًا ميزة وفي فرنسته، رغم كونه أجنبيًا، مثير إعجاب.

تعلم يانس أن يتراجع ولا يلح. في تعامله مع جولي عرف متى يُقَدِّم ومتى يُحْجِم. عرف أن التسرع لا يفيد، إلا في تلك المرة الأولى

التي تجرأت بوضع كأس بيرة أمام أنامله التي تشع كأجنحة فراشة حسب قولها. كان قد بلغ لتوه الثلاثين وقرر أن يعود إلى الجزيرة في زيارة. غادر سيفنوس في سن السابعة عشرة متوجهاً إلى باريس لدراسة الطب. لم يفهم أي من سكان سيفنوس ذلك. تفهموا حاجة الجزيرة إلى طبيب ولكنهم لم يتفهموا اختيار مكان الدراسة، لم باريس البعيدة وليس أثينا القريبة؟ كان الأمر بالنسبة إلى والديه كمن استل خنجرًا تركيًا وأغمده في بؤبؤ عيونهما. شعر بالذنب الذي أراداه أن يحس به والذي درباه عليه لكنه كان في مقتبل العمر، أصغر من أن يسمح بتغيير الاتجاه الذي أراد لحياته أن تسلكه. اتفق الجميع، أقارب وأصدقاء وجيراناً بل الجزيرة بأكملها على فرادة يانس. كان كسكان الشمال في طبائعه، أشقر بعينين زرقاوين يكاد يشبه السويديين. وصفه الاجتماعيون منهم بأنه انعزالي، ورآه الآخرون الأكثر شكوكاً بأنه سيئ المعشر، صعب المراس. كغيره من شبان الجزر (ومن بعض شابات الكويت أيضاً)، أراد يانس أن يخرج من حصار المكان، من أحاديث النسيمة ومن العلاقات الأسرية الخانقة. أراد أن يقوم بأشياء تخرج عما قام به الناس من حوله ملايين المرات ومنذ آلاف السنين. هكذا يمم وجهه شطر باريس ليصبح طبيباً في نهاية المطاف وليغيب عن الجزيرة لأكثر من عقد من الزمن.

في ذلك الصيف المتمهل الذي عاد فيه يانس كان يتنقل من حانة إلى أخرى على طول شاطئ بلاتيس يالوس في انتظار أن يحدث

شيء ما. لهذا لم يتفاجأ عندما أتت جولي حاملة بيرتها، معتمرة قبعة هشة من القش يلفها شريط أحمر، وحكاية غريبة: فتاة من الكويت ووالدة صامته صمت الحجارة ووالد يتحدث الفرنسية، هنا في سيفنوس وليس في أي مكان آخر. لم يدهش فقد بدا الأمر وكأنه نهاية مُحْكَمَة لقصة. الفتاة الكويتية (ستكره تلك التسمية) ذات قبعة القش الهشة. لخصتها تلك القبعة التي أخفت عينيها المتأملتين وشعرها الداكن. ستخبره فيما بعد أن ما جذبها إليها هو شعره الأشقر وعيناه الزرقاوان المائلتان إلى الخضرة وقامته النحيلة الطويلة وهدوؤه المستكين. بدا لها اسكندنافية قحًا. أعجبها أنه من أجل أن يجلس ويتأمل البحر لم يكن في حاجة إلى عذر يتحجج به كأن يصطحب كتابًا أو يدخن سيجارة أو يلتفت إلى لعبة الطاولة. سمحت لها هذه التفاصيل بأن تكون على سجيتها معه بل أن تتماهى إلى حد تقرر فيه أنه هو المنتظر. قررا معًا وبسرعة، شابُّ الجزيرة وفتاة الشريط الأحمر، أنهما وجدا ضالتيهما.

لم يكن في تعلم والد جولي الفرنسية وإرسال ابنته إلى مدرسة فرنسية خروج عن المألوف فقط فقد أتبع ذلك بموافقته على زواج ابنته بيانس. أحضرته معها يومًا إلى المنزل بعد مضي الثلاثة أشهر من إقامتهم في سيفنوس، أمر لا تتجرأ أي فتاة كويتية على القيام به قط، ولو فعلت لاستدعى ذلك حَزَّ رقبتهما. في عزلتهما ونأيهما عن بعضهما نأي السِّلْم لم يجزع الوالدان لفكرة زواج ابنتهما بيانس بل كانا راضيين نوعًا ما لأنها، وأخيرًا، ستتزوج. إذ لم يكلَّ الناس من

تذكيرهم بأن ابنة السابعة والعشرين هي شبه عانس. اعتنق يانس الإسلام على الورق فقط لا لإرضاء والديها اللذين لم يباليا بالأمر كثيرًا وإنما من أجل قانون البلاد. تركت جولي عملها، حزمت حياتها، ودّعت والديها وأصدقاءها وداعًا رسميًا مقتضبًا ورحلت إلى باريس ملقبة نفسها في غيوم فرنسية وحقول من زهر الخزامى بعيدًا وإلى الأبد عن الحزن الجليدي.

عاهد يانس نفسه أن يلزم الصبر ذاك الصيف. فوالدها قفزت لحثفها من النافذة منذ أربعة أسابيع فقط ولا يبدو أن والدها قد انفطر قلبه جراء ما حدث. فما إن انقضت أيام ثلاثة فقط على موت سلوى حتى عاد راشد إلى روتين حياته اليومية. البنك ثم البيت ثم الفراش تتخللها بضع كلمات مجاملة بالفرنسية يتبادلها وابنته، وتربيتُ يدٍ أو أكثر يمسح بها على رؤوس الأحفاد كمن تذكّر واستدرك أمرًا. كانت تلك الفترة التي قضوها في بيت الكويت كالديدان في جحورها ولأسبوعين كاملين جحيماً بعينه. بعد انتحار الوالدة مباشرة، ولثلاثة أيام تخيل فيها أن جولي لا ترغب في شيء أكثر من تركها بمفردها في الفراغ الذي تركته أمها وقد غدت الآن أكثر صمتًا من الحجارة، تدفقت جموع من الناس إلى داخل البيت. ثلاثة أيام متواصلة انسلت فيها عبر باب المنزل الرئيسي كل تجليات البغضاء في الكون. أخبرها الواحد تلو الآخر عن حزنه لحزنها، وعن ضرورة تسليم أمرها لله، وأن تتحلى بالصبر والقوة من أجل والدها وأطفالها. نعم سيكون يانس صبورًا هذا الصيف وإن كان

يدرك أن انتحار سلوى، وهو الأمر الذي ينهى عنه الإسلام بل يعدُّ مرتكبَه بجهنم وبئس المصير، وإن لم يؤمن أي منهم بهذا فعلاً، لم يكن هو السبب الذي صممت جولي من أجله وانسابت بلا هدف كحجر الحَقَّان يطفو وحيداً فوق مياه داكنة.

بدأ صمت جولي بعد بضع سنوات من ولادة زوي. وإن توخى الدقة، فقد بدأ مباشرة بعد ولادتها. أخذت وقتاً أطول في الرد على الأسئلة. تَنَبَّهَ إلى أنها تحرق بسخط إلى شيء ما وقد ارتسمت بين حاجبيها وديان ووهاد. يكرر اسمها مرتين وثلاثاً قبل أن تنتبه إلى صوته أو لوجوده. توقفت عن الابتسام. صحيح أنها لم تكن تبتسم كثيراً في الماضي، تلك الابتسامة التي تنير الكون إن أشرقت، لكنها اختفت الآن. ولم تكن علاقتها الجنسية بأفضل من ذلك فقد غدت مقتررة كقطرات ماء تُسْتَجْدَى من قرميد. أدرك أنها لا ترغب في ذلك، وحتى رفضها له أصبح يتطلب جهداً لم تعد قادرة عليه. لم يتحمل الشعور بأنها كانت تَمُنُّ عليه بالسماح له أن يقربها. فكم هو مهين أن يُسْتَجْدَى الجنس، أن يصبح استعطافاً، كالموت مثيراً للشفقة. كم كانت السنوات الخمس الماضية محبطة غابت عنها تعابير الوصال من قبلة أو احتضان أو تودد. لم يثنه ذلك عن محاولة مداعبتها بلمس ذراعها أو فخذها أو بطنها. لم يكفَّ عن ذلك محاولاً جذب انتباهها لا إلى شيء سوى الوصول إلى أي جزء منها يعيد إليه ذكرى قبعة القش وشريطها الأحمر. أدرك أن جولي تتحول إلى سلوى أخرى. كانت قد حدثته عن والدتها الغائبة عنهم

المتوقعة في شرنقتها حيث لا يمكن لأحد أن يتواصل معها، والآن أدرك أن التاريخ يعيد نفسه. وكيف يغيب هذا عنه وهو الطبيب العارف. شعرت هي بالامتنان له لأنه لم يثقل عليها بالحديث حول الموضوع، وتركها في همها.

كان يانس في الثانية والأربعين، وكان قضاء الصيف في سيفنوس كل صيف قد غدا عادة متأصلة لم يتركها منذ تعارفا. يحس بالتعب الآن بل بالإرهاق: تمنى لو تخرج مما هي فيه، تساعده في رعاية الأطفال، وتمارس الجنس معه. تمنى أن يشتهيها. لا أن يشتهيها هي فقط بل أن تثار شهوته وحسب.

ها هي الجزيرة تنبلج أمامهم من وسط البحر. أعد آلة التصوير فقد كان حريصًا على التقاط الصور في كل مرة يفدون فيها إلى المكان. لا يقيمون عادة مع والديه بل في فندق على شاطئ بلاتيس يالوس فهو لم يكن يتحمل ضجيجهما وتطفلها بالرغم من حسن نيتها، وتدخلهما في شؤون جولي والأولاد. أراد أن يتمدد -قطًا طائرًا، لم لا؟- على كراسي الشيزلونجات في الفندق. أراد أن يشعر بأشعة الشمس تحرق جلده بلظاها وبالنسيم العليل يبرده. أراد أن يحلق من وراء نظارات الشمس الداكنة، كرجل مهلهل وبائس، بأجسام الفتيات اليافاعات نصف العاريات. كان يتمنى أحيانًا لو صمت مثل جولي. وفي أحيان أخرى كان يتمنى أن يفتعل أكبر شجارٍ رآته أو سمعت به الجزيرة. لكنه لم يكن ليعرف بعد كيف ستسير الأمور هذا الصيف.

ستبلغ جولي الأربعين من عمرها هذه السنة وإن كانت تشعر
كابنة الخمسين بل الستين. عندما تبلغ الخمسين ستكون زوي فتاة
رعناء في الخامسة عشرة بقوام يشبه الساعة الرملية مثل قوامها هي.
ما الذي ستفعله جولي عندئذ؟ هي تشعر بالإرهاق والتعب منذ
الآن. لقد فقدت روح الدعابة وأدركت أنها قد وصلت إلى طريق
مسدود وصلوا هم إليه أيضًا: زوجها وأطفالها. كان في الإمكان
أن يبقوا معًا كأربعة من نجوم البحر في فردوس تحت الماء. لكن
الأمر غدا الآن من رابع المستحيلات. منذ اللحظة التي أنجبت
فيها ابنتها شعرت جولي بأن فمًا مفتوحًا يلاحقها له أسنان حادة
يمسك بتلافيف ثيابها. في السنتين الأوليين لفت جسمها بإحكام
بأي قماش لين لتحرر نفسها من الأسنان الدبقة. لكن جولي وجدت
نفسها تنزلق إلى أعماق الهاوية الفاغرة فمها. تمكنت لفترة وجيزة من
الانضمام إلى الثلاث الآخرين لبضع أشهر كل مرة، الكمال بعينه
تحت لوح من زجاج. لكن سرعان ما بدأ حاجز زجاجي يفصل
بينها وبينهم، كان شفافًا في البداية لكنه ازداد كمدًا شيئًا فشيئًا إلى
أن غدا داكنًا معتمًا كتيًا. لم تعد تدري ما تفعل. كانت شريرة. كانت
ضائعة. كانت تطفو بعيدًا على متن غيوم لا حدود لها، لا مكان
تتهامى معه، لم يبق أحد لغالية، لجوليا، لجولي، لا أحد ومنذ البداية.
فتاة كويتية ذهبت إلى مدرسة فرنسية. كيف كان للأمور أن تنجح؟
ما الذي كان يدور في خلده؟

في الفندق ساعد يانس الجميع استعدادًا للذهاب إلى بركة السباحة الواقعة عند حافة الجرف. جلس على كرسي الشيزلونج الخشبي متأملًا الفتيات الجميلات وقد افترشن المكان كأوراق اللعب. التفت قليلًا نحو جولي. بدت مغمضة العينين والدعسوقات تحوم من حولها. ماذا لو تمكن من الحصول على تلك الشقراء الجالسة هناك؟ هل سيغير ذلك شيئًا؟ حدق إليها من دون خجل. هل ستساعد خلجة بين فخذين غريبتين لِدَتَيْن في استرجاع شبابه ولو لبرهة خاطفة؟ رفعت الشقراء رأسها وقد لاحظت نظراته. لم يُشح يانس بعينه. خفضت نظاراتها الشمسية قليلًا وتفحصته من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. أعادت النظارات إلى موضعها، انقلبت على بطنها، وفكت مشبك صدارة المايوه البيكيني الأبيض.

عينا جولي نصف مغمضتين. لا مانع لديها. لم يزعجها أن ينظر، لم يقلقها أن يشتهي شيئًا ما يتصل بهن، قد يكون انحناء بطة ساق أو ترقوة ظاهرة. تذكر ما قاله لها عندما تحدثت معه أول مرة وقدمت إليه كأسًا من البيرة ببادرة لم يدرك يومها كم انطوت على شجاعة فائقة: «كم أحب الظلال التي ترسمها قبعتك القش على عظم ترقوتك». ضحكت يومها عاليًا كاشفة عن أسنانها وقد أعجبتها دقة التفصيل في كلامه. انقبضت نفسها الآن إذ تذكرت القبعة فقد وضعتها في أسفل حقيبتها.

وقفت الشقراء منتصبه ومشت في اتجاه غرفة تبديل الملابس مستعرضة مفاتها. التفتت إلى الوراء وألقت نظرة خاطفة نحو

يانس. فكر في أن يلحق بها. توقع أن تنسل جولي مغادرة المكان. وقف بدوره، شد ذراعيه أعلى رأسه. لم يعرف ما الذي يفعله أو يريده. قبعته القش.

لم يشعر يانس بسعادة تفوق سعادته عندما أتت إليه جولي أول مرة، اللهم سوى عند ولادة طفليه، جول، ثم معجزة قدوم زوي بعد أشهر من استلقاء جولي على ظهرها لشهور طوال بسبب هواجس تاريخ طويل من حوادث الإسقاط التي حدثت لوالدتها وبقيت ذكراها ترفرف على كتفي الابنة خاصة حول عظمي ترقوتيهما الجميلتين. لم يكن شخصًا استثنائيًا. هو طيب جيد وإن لم يكن خارجًا عن المألوف. زوج جيد وعاشق جيد وإن لا شيء استثنائي هنا أيضًا، والد جيد، حاول أن يكون استثنائيًا وإن لم يعتقد أنه حقق ذلك أو أن طفليه سيذكرانه كأب استثنائي في يوم من الأيام. كانت جولي تهيم في عالم ناءٍ خاص بها كأنها في جزيرة أخرى، في كوكب آخر، أو فوق نجم يحترق. سيذكران دائمًا الفراغ الذي كانت تشغله وإن لن يتذكراه كمنقذهم ومنجيهم.

ألقى نظرة نحو غرفة تبديل الملابس. كانت ما تزال هناك، ربما تنتظره. كاللص سرق خطواته تجاهها. كان في وسعه أن يسمع طفليه وهما يتحدثان بالفرنسية:

«Regarde! Les poissons, là!»

«Où? Quels poissons?»

«Là, là, regarde bien!»

أي سمك؟ كيف يمكن أن تجد سمكًا في المسيح؟ لكن جول أصر فأدار رأس أخته في اتجاه مطفحة المسيح، ذلك المستطيل المعتم الذي تجده في كل مسبح والذي يزرع الخوف والهلع في قلوب الأطفال. لم تشأ زوي بداية أن تنظر إلى الفتحة المربعة لكن أخاها أمسك بها من العوامة البرتقالية المحكمة حول ذراعها ودفعها نحوها. اختلست نظرة خاطفة إلى الداخل.

«C'est vrai, c'est vrai! Il y a des poissons! Trois petits poissons!

Regardez!»

ترك جول زوي وهي تترنح في عواماتها البرتقالية ومايوهها الفيروزي اللون الذي كان أكبر من مقاسها الفعلي كي يبقى صالحًا لصيفين آتيين آخرين، وقد مالت برأسها إلى جنب وهي تزردد السمك بعينيها. وثب جول ليخبر والديه عن السمك. بثقة مُشرعة، وقد أقلع عن مص إصبعه بعد ساعات قليلة من التمتع بشمس سيفنوس، ركض على طول حافة المسبح المبللة. التفت يانس نحو جولي. ثبتت نظرتها الزجاجية نحوه، ولأول مرة يمكن تذكرها، رآها تبتسم.

رقت جول وهو يركض نحو ذراعي والده المفتوحين. ماذا لو تعثر وكسر رأسه؟ ماذا لو خافت زوي وقد وجدت نفسها وحيدة في الطرف العميق من المسبح واختنقت بما ابتلعه من ماء أغلق رئتيها الصغيرتين؟ ماذا لو أصيب يانس بأزمة قلبية أو سكتة أو حادث سيارة في نفق ما؟ ماذا لو قام ثلاثتهم في يوم جميل كهذا

برحلة بالهليكوبتر إلى جزيرة أخرى وسقطت بهم الحوامة؟ ماذا لو قرر يانس أخيرًا أن يأخذ الطفلين ويسير تجاه الشمس؟ أغمضت عينيها وراحت رثاها تُعبّان أنسام رياح الميلتيمي الشمالية الجارحة.

تذكر جولي كيف مشت نحو يانس بقبعتها القش ذات الشريط الأحمر المتطاير مع أنسام الهواء العليل. تريده. تريد أصابعه فوق فخذيها وعلى بطنها المكور كنصف قمر، على ذراعين ترفعهما فوق رأسها، وعلى مرفقين شدا إلى الوراء كقوس، كطائر. تريده أن يلاحظها ويرقبها وهي تصارع لتلتقط نفسها، تريد يديه أن تمسكا بوركها تهدئان من روعهما، أن يرمي إليها مرساة تثبتها كي لا تطفو وتنجرف. تريده أن يتحدث إليها بالفرنسية بلهجة ذات لحن أجنبي، وإن كان أحيانًا يباغتها بكلمة ذات جرس قوي قد تكون عربية أو يونانية. تريد نوره الشمالي يوهمها كأنه آتٍ من أصقاع الشمال، من ستوكهولم أو كوبنهاجن أو أوسلو. وحتى بعد أن تكتشف هويته، فهي لا تزال تصبو -أليست بنت أبيها؟- لذاك التنافر بين ألوان الشمال في جلده وشعره وعينه واسترخاء الجنوب وصلابته. تصبو. تشتهي. وعندما ولد جول، أرادته هو أيضًا. عشر أصابع صغيرة، ومثلها أصابع القدمين، زرقاء في البداية ثم وردية اللون، عينان زرقاوان مائلتان إلى الخضرة، رأس مدور تتوجه خصلات شقر، غمازتان تومضان. اختلف الأمر مع زوي. ظلت في السرير لأشهر، يقطر الدم بطيئًا، ثم سريعًا بشكل مغيظ، ثم بطيئًا، لا تفكر في أحد سوى أمها وكيف لا تجد لغة تجمعهما، فوالدها بتبنيه

الفرنسية قطع جبل السرة مبكرًا، مبكرًا جدًا. لكنها وهي مستقلة على ذلك السرير تراقب سرعة السائل المتقطر كل خمس عشرة دقيقة -بنفس الهوس الذي يفرك ابنها جبينه برأس المهرج اللعين- تستعيد صلتها بأمها مرة ثانية وربما لأول مرة، لقد جمعتها لغة بلا كلمات هي لغة الخوف. زوي، دمية من خزف، كادت تفقدها في زحمة القطرات عندما كثرت وأسرعت إلى حد كاد يستحيل معه إيقافها. والدتها بعيدة كالعادة، نائية عنها. لن يتقاربا أبدًا كما كانا واحدًا وكانت جولي شريطًا أحمر يرفرف داخل أمها. لم تكن أمها قريبة قط. وستكون فيما بعد حطامًا على الأرض، سقوط أخير تأتي لحظة الحرية معه.

لو ابتعد الثلاثة عنها -لو ماتوا، اختفوا، رحلوا- ستصبح هي حرة أيضًا. إن بعدت هي عنهم -ماتت، اختفت، رحلت- سيصبحون جميعهم أحرارًا. على متن قط طائر. هذا هو الصواب بعينه. ثلاثتهم على متن قارب طائر يشق العباب الأزرق. ستسجل ذلك في فصل «أشياء لا يجوز أن أكون قادرة على التفكير فيها لكنني أفعل». أو لربما في فصل «غرائب من العالم».



كثيرًا ما يعتمد لقاءك بالآخرين على عامل الصدفة. بل هي الصدفة ذاتها التي تضفي على اللقاء الأمل جمالًا فريدًا. تجلس فتاة شابة في ظل شجرة، يمر بها معلم كانت افتننت به لسنين طويلة، يقترب منها ويهمس قائلاً: «ابتعدي عن أحلامي، يا صغيرة» ويتابع سيره. هي تعلم أن القدر قد لعب دورًا جليًا. فعبارة كهذه يمكن أن تنهي عمل شخص ما، عبارة يفعل الآباء اليوم المستحيل للحؤول دون التفكير فيها ناهيك عن النطق بها. ومع هذا فمثل هذه الأمور تحدث على الرغم مما يبذلونه من جهود. نعم تحدث وقد يقترب أحدها من شفا الكارثة في كل مرة.

أفضل اللقاءات هو السريع الخاطف كالفضة، هو اللقاء الذي ينتهي كشرارة تترك وراءها بقايا من ألق متوهج يلمع في شمس آخر الظهيرة. نتساءل بعده إن كان ما حصل حقيقة ونغرق في محاولات محمومة لتفسير حدوثه. لقد جازف بالكثير عندما قرر أن يخبرني بأنني أزوره في المنام. يبدو أن بعض اللوم يقع عليّ فأنا لم أطلب

إذنه في التردد على أحلامه. لم يفترض أن أكون هناك في رقاد، ولهذا اختار ذلك التوقيت عندما وجدني جالسة في ظل شجرة تحت سماء مغبرة بيضاء ليأمرني أن أغادر تلك الأحلام. لكن كيف يتأتى لي ألا ألاحظ ما جاء في عبارته الآمرة من شطط أهوج؟ كلمة «يا صغيرة» تكشف تودداً. «يا صغيرة» هي دعوة إليّ أن أعود مرة وثانية. «يا صغيرة» عنت لقاء رغب به على الرغم مما ينطوي عليه من فعل إنكار وتنصل. هو يريدني في أحلامه والأهم من هذا يريدني أن أعرف أنني أجول وأصول فيها. لا بد أنه أدرك من غير أدنى شك أن اللقاء لا يمكن أن يحدث سوى في الأحلام، فيما عدا ذاك اللقاء الاستثنائي الذي جمعنا تحت الشجرة. لكنني لا أنكر حتى اليوم ما كان لذاك اللقاء من سحر جاذب بكل تلميحاته الآمرة، وشطط تأويلات عبارته «يا صغيرة» التي ما برحت تجتاحني.



ملفات تلج

مَزَجْتُ بَيْنَ النَّارِ وَالثَّلُوجِ -

أدونيس، «إشارة»

شعر تشارلز بالأسى لما انتهت هيئته عليه. لم يعد شابًا. هذا ما أدركه بحلول عيد ميلاده الخمسين، زوجته التي تساويه عمرًا إلى جانبه، وكذلك القليل من الأصدقاء ممن لم يصغروه سنًا. ينظر إليهم وقد ترهلت وجوههم فيدرك أنه قد تجاوز أخيرًا ذاك الخط الفاصل. لم يعتقد يومًا أن الكهولة ستنال منه. كالريح الجامحة مرت سنون الثلاثين والأربعين ولم يخطر على باله أبدًا أن الزمن سيتوقف في يوم من الأيام فقد ظنه سرمديًا يمتد كما فعل فيما مضى من عمر. لكن الدهر لا يستثني أحدًا.

كان العام الذي بلغ فيه تشارلز الخمسين هو نفس العام الذي توفي فيه والده الذي لم يستيقظ من رقاد. كان والده يستحق بجدارة مثل هذه الميته الهادئة بعد كل ما عاناه، لكن تشارلز لا يقتنع أن أيًا يموت بسلام. لا بد أن أعضاء الجسم عندما تفشل تولد نوعًا

من الوعي والإحساس. لا بد للأجسام المائتة أن تنشد نظرة أخيرة تلقيها على الوجود قبل الوداع الأخير. ليس هناك احتمال واحد لموت هادئ في رأي تشارلز. تشقيه بل تطارده بلا هوادة هواجس التفكير في أبيه يقطاً وحيداً على فراش الموت. لم تكن الحادثتان، بلوغه الخمسين وموت أبيه، بالأمر الهين.

كم يُدهش تشارلز منظرُ الأشجار وكيف تتحمل ثقل الثلج الندي تتجاذبها الريح العاتية. تتدافع السناجب وحيوانات الأبوسيوم الصغيرة إلى أعالي أغصان رقيقة كالدانتيل ومع ذلك لا تهوي بها. تأتي التفاصيل إلى ذهنه دقيقة كالموزاييك. كثيراً ما يجلس في الشرفة وقد سَمَرَه منظر الأشجار أو الأفق شبه المتواري، أو المطر وهو يهطل والثلج وهو يندف رقائق من الكريستال الراجف. يهيم كورقة في مهب ريح في ممر يغيب فيه إلى أن تأتي إليه ميريديث وقد أرهقها التعب والقلق لترجوه أن يدلف إلى الداخل.

مير إنسانة طيبة، واحدة من الطيبين، كأبيه. لطيفة هي وكريمة لا تعرف الأنانية. ما زالت جميلة ورائعة حتى بشعرها الرمادي الذي يلامس كتفين بلون العسل. هي أيضاً تلحظ التفاصيل والأشياء الصغيرة التي يهتم بها الآن فقط. فلطالما لفتت نظره إليها سابقاً عبر السنوات التي جمعتها معاً حتى وفي أوائل شبابها عندما كانا صديقين فحسب.

انظر إلى البقعة الوردية تحت جناح العصفور يا تشارلز.
لاحظ الضوء الأرجواني المنعكس على نافذة ذاك المتجر.

تشارلز، أليس مدهشًا كيف تمسك الطائرات الورقية بتلابيب
الريح وكأنها تجعلها في قبضتها، وكيف تنسل الريح من تحتها
منتصرة مهما طال بها الأمد؟

تسحر مير تشارلز وإن وهنَ السحرُ قليلًا بمرور السنين.
ومع ذلك فالسحر أقل أهمية من العطف والطيبة - تلك الصفة
التي تمتعت بها مير - والتي جعلت تشارلز يتمسك بها طوال سبعة
وثلاثين عامًا. عندما تزوجا قبل التحاقهما بالجامعة ببضعة أشهر،
كانا في العشرين من عمرهما. خططا ليكونا مدرسين في المستقبل.
تعارفا في المدرسة الثانوية، كانا يسكنان في نفس الحي وكانا صديقين
حميمين. لم يتواعدا ولم يقعا في الحب إلا بعد أن التحقا بالجامعة.
يتعجب تشارلز لم استغرقهما الأمر كل هذا الوقت ولم لم تلتمع
العيون ولم تعزف الألحان صادحة عبر الأثير منذ البداية. وقتها،
أقنع تشارلز نفسه بأن السبب لا بد يعود إلى أن علاقتهما كانت
علاقة إنسانين واعيين بل شراكة تطمح إلى بناء أسرة وتنشئة أطفال
أصحاء واثقين بأنفسهم. كانت مير فتاة طيبة بما يفوق الخيال، وهذا
ما جعل تشارلز يتعلق بها من دون جلبة الانبهار. لكن الطيبة ليست
بالضرورة مُعدية فهي قد لا تنتقل إلى الآخرين. أن تعيش في كنف
الطيبين لا يستجر الطيبة دائمًا ولا يعني أنك تصبح طيبًا مثلهم. لقد
احتاج تشارلز إلى عديد من السنوات ليتفهم هذه الحقيقة.

كان تشارلز في التاسعة من عمره عندما توفيت والدته.
وعندما بلغ السابعة والعشرين أذهله أن هذا هو السن الذي

ودَّعَتْ فيه والدته الحياة. وحين بلغ التاسعة والعشرين صعقه التفكير بأن والده في سنه هذا فَقَدَ زوجته إلى الأبد. لقد أخافته هذه الحقيقة وصدعته وإن لم يدرك مدى الأثر العميق الذي خلفته سوى الآن. تشارلز يحب مير وإن تفاوتت شدة الحب من سنة إلى أخرى، لكنه لا يحبها كما أحب والده أمّه. يعرف هذا لأن والده لم يفكر أبدًا بعد وفاة زوجته، على الرغم من صغر سنه عندئذ، أن يتزوج ثانية. لم يكن قد مضى على زواجهما أكثر من عشر سنين عندما اختطفها الموت. أخبره والده أن عشرًا من السنين كافية في حياة المرء. كان حبه من النوع الذي لا يخشى معه أن يكون وحيدًا. كان حبًّا شجاعًا، حبًّا يمكنه أن يواجه الموت وهو واقف على قدميه. كثيرًا ما كرر والده أنها «ماتت وحيدة»، حدث هذا في كل مرة تجرأ فيها تشارلز واقترح عليه أن يحاول العثور على امرأة أخرى. «من أجلها، سأموت وحيدًا أيضًا». وهكذا فعل. مات وحيدًا في سريره بعد أن غط في نوم لم يستفق منه بينما كان ولده بعيدًا عنه آلاف الأميال. حاول الطبيب مرارًا أن يؤكد له أن موت والده كان هادئًا وأنه لم يستيقظ قط، لكن الشكوك ظلت تراود تشارلز.

تخللت حياة تشارلز سلسلة من الأزمات رسمت مسارها مصائب تواترت بمعدل واحدة كل عقد من الزمن. يتساءل عمًا إذا كان هذا هو الحال للجميع. أولها كان موت والدته وهو في التاسعة. لم يخبره والده بشيء عن موت الوالدة طوال فترة طفولته وشبابه إلى

أن بلغ السابعة والعشرين. كان قد شك في السرطان بسبب تساقط شعرها. نعم، سرطان الثدي. هذا ما أكدته الوالد.

في نهاية الخمسينيات من القرن الفائت، وخاصة في ضواحي سانت بول، ندرَ أن يَرِدَ أي ذكر للسرطان كمرض. في البداية اختلط على تشارلز الأمر فأمه بدت بصحة جيدة في معظم الأحيان. كانت تضحك وتمزح وتطهو لهم الطعام، وتداعب والده مازحة إلى أن تتضرج وجنتاه وتنقلب شفتاه. لكن، في مكان معين بين أضلاع ورثتي تشارلز كان يهجع شعور جارح داكن ينبئه بأن الأمور ليست فعلاً كما يرام. كانت هناك همسات يسمعها في الليل، وكان هناك ذهاب الوالدين سرّاً في فترات بعد الظهر إلى مكان ما يُترك أثناءها في رعاية ماري، الجارة الستينية التي كانت تفوح منها رائحة بول وروائح لاذعة أخرى تزعجه أيما إزعاج. لم يرق له أبداً أن يُترك بمفرده في صحبتها لكنه وطّن نفسه على التزام الهدوء راضياً متذكراً أن والدته ستعود في المساء أو في اليوم التالي. عندما بدأت خصلات شعر أمه تتساقط لم يعر الأمر كثير اهتمامه. فتساقط الشعر لا يدعو إلى الجزع خاصة إن تظاهرت والدتك بأن الأمر طبيعي جداً. وهذا ما فعلته. لم ينطق بشيء ولم يخبره أحدُ بشيء، على الرغم من أن أمه في أواخر مرضها كانت تشده إلى صدرها في الليل ظناً منها أنه غارق في نومه تمرغ شعره بأنفاسها. لن ينسى يوماً ملمس يدها الباردة على مؤخرة عنقه.

بذل الوالد قصارى جهده ليجعل بيته سعيداً. كان يذكر زوجته دائماً أمام ولده كيلا ينساها. لم يأت يوماً على ذكر مرضها أو موتها مفضلاً جرّ الحديث إلى أي موضوع آخر. جهّد ليجنب ولده الحزن كي لا يثثم على صدره فينوء بحمله. وهكذا تربى تشارلز في كنف والد طيب وشبح أم مبهج. كم شعر بالامتنان لأن أباً معطاءً قد رعاه. لذا تحمل بصمت طوال فترة طفولته ومراهقته عذاب الفقد يتحسس تلك الفجوة التي تركها غياب الأم من دون أن يعترف لوالده بأن شبحاً ولو بهيجاً لا يمكن أن يملأ تلك الفجوة وأن الذكرى تبقى دائماً موجعة.

أتت أزمة تشارلز الثانية، ويا للمفاجأة، عندما بلغ السابعة والعشرين. ما يهم في هذه الأزمة هو نتائجها. كان ومير يُعلّمان في إحدى المدارس في سانت بول، علّمت هي الصف الثاني الابتدائي وعلّم هو مادة العلوم لطلبة الصفين السابع والثامن، وكذلك الصف التاسع عندما استدعت الحاجة. كان قد مضى على زواجهما سبع سنوات ولم تثمر هذه السنوات طفلاً رغم محاولتهما اليائسة. كان الاثنان يرغبان في الإنجاب وتبين أنه هو سبب العقم فقد كانت حيواناته المنوية ضعيفة جداً. هزهما الخبر إلى أبعد حدود. فقد شعر هو بانتقاص في رجولته، بينما عبرت مير عن رغبة موجعة وتوق إلى الحصول على طفل تحضنه. على الأقل هذا ما كانت تقوله قبل أن تتيقن من استحالة الحمل. بعد أن عُرف السبب، والذي اعتبره تشارلز لعنة، تجنبت مير ذكر أي كلمة تشير إلى «الوجع»

أو «التوق» أو «التمني». حتى أنها صرفت هذه الكلمات وأخرى تشابهها كـ«عائلة» أو «أطفال» بعيداً عنه وعنهما وإلى الأبد. أصبح طلبتها أطفالاً لها بينما استغرق تشارلز سنين طويلة قبل أن يتعود على التعامل مع الأطفال. لم يفكر الاثنان في التبني قط.

أمران جعلاً تشارلز يفكر في اتخاذ قرار أخير ظل يدور في ذهنهما لسنوات: أمه التي ضاع عمرها في ذروة شبابها، وأطفاله الذين ضاعوا منه إلى الأبد. في السبعينيات، كانت هناك عدة فرص سانحة أمام المدرسين كي يعلموا في مدارس دولية حول العالم. الواقع أن كلا من تشارلز ومير اختاراً مهنة التدريس أصلاً، وهما من لم يغادرا مينيسوتا قط، لاعتقادهما أن هذه المهنة تسمح لهما بالسفر والتنقل. ساعدت أزمة تشارلز الثانية في اتخاذهما القرار الحاسم. وفيما عدا بضع زيارات متفرقة لوالدي مير ووالد تشارلز سيظل الاثنان خارج الولايات المتحدة لثلاث وعشرين سنة. فكراً أولاً في أوروبا -باريس أو فرانكفورت أو روما- لكن أوروبا لم تكن لتختلف كثيراً عما يتركاه وراءهما. أوماً إليهما الشرق الأوسط واعدداً بشمس مشرقة وكثبان رمل وروايات عن خيام وجمال نسجها خيالهما عن المكان.

قضايا السنوات الأربع الأولى في القاهرة يُدرّسان في الكلية الأمريكية بالقاهرة. أما ما تلاها، وهي أطول فترة يقضيانها في مكان واحد، فقد كانت في الكويت لثماني سنوات، حيث درّسا في المدرسة الأمريكية هناك. انتقلا بعد ذلك إلى المدرسة الدولية في إسلام آباد

ولأربع سنوات. لم يتوقعا أن يطول بهما المقام في باكستان: ظنا بداية أنهما سيقضيان عامين فقط خارج الشرق الأوسط، من أجل التغيير، ويعودان بعدهما إليه. لكن أصدقاء لهما انتقلا إلى باكستان قادمين من الكويت بعد سنة من وصولهما إليها ما شجعهما على إطالة الإقامة هناك بما إن الصحبة توفرت وهو الأمر الذي لم يكن سهل المنال نظرًا إلى طبيعة عملهما المتنقل. كانت فيرونيكا وتوم جديرين بتغيير خطط تشارلز ومير بالرغم من الحادث المؤسف الذي جرى فيما بعد في لبنان وأفسد صداقتهم. أما الوجهة التالية فقد كانت أبو ظبي حيث درّسا في مدرسة الجالية الأمريكية هناك. وفي آخر ثلاث سنوات بعيدًا عن الوطن انتهى بهما المقام في بيروت حيث علّمَا في مدرسة الجالية الأمريكية. لكن عقدهما لم يدم طويلًا إذ تلقيا خبر وفاة والد تشارلز. كذلك لم تعد هناك إمكانية عودة لهما إلى الشرق الأوسط بعد أن تم تشخيص مرض تشارلز.

على الرغم من أن الشرق الأوسط كان ولا يزال منطقة محبّطة إلى حد الجنون فإن تشارلز فضلها على أي رقعة أخرى في العالم. أحب دفء الجو فيها وأحب حتى هواءها الثقيل. راق له تغير ألوان الضوء عندما يتحول من أزرق متوسطي إلى بني فاتح مائل إلى البياض أو بني بلون الطين. شهد مرة عاصفة رملية في الكويت أحالت السماء إلى لون أحمر داكن كلون الدم المتدفق من شاة جُزَّ عنقُها. كان الهواء راكدًا وصامتًا على غير عادته عندما تثور العواصف الرملية. بقي الغبار الأحمر المحمل بالعديد من الذرات

الطافية معلقًا بالجو. كان من المثير أن يرقب الشمس معلقة في السماء وأن ينظر إليها مباشرة من دون حاجة إلى أن ينوص عينيه، راقه أن يراها من دون وهجها المعتاد حمراء كحبة رمان، مسطحة بحواف محترقة. حدث هذا مرة فقط في الكويت، لكن عواصف أخرى كانت تهب في أماكن أخرى. تذكر عاصفة هبت أثناء زيارته الأولى لأهرامات الجيزة كانت من العنف بحيث حجب وجه النيل بل محته من الوجود. لم تحجب الأهرامات ولا أبو الهول فقد ظلت هذه هاجعة في قلب الصحراء، يلفها الغبار كما يغشى الضباب أيرلندا.

أحب تشارلز كل ما رماه به الشرق الأوسط من عواصف.

أحب الكورنيش والطرق التي امتدت على طول الشاطئ. هناك كورنيش في القاهرة، كذلك في الكويت وأبو ظبي وبيروت. تخيل أن في كل بلد عربي كورنيش خاص به. يحتاجه شعور بالثقة والغلبة كلما قاد سيارته على طول الكورنيش وقد خفض زجاج نافذتها فاسحًا للهواء حتى في جحيم الصيف. كان للنسيم فعل السحر يكسو قلبه بغلالة رقيقة، يجعله لينًا، ويسمح لصدره أن يمتد ويتسع. أحس كأن هناك وعدًا صامتًا يتحقق. ولم تكن لديه أدنى فكرة لم تترافق قيادته لسيارته على أي طريق يمثل تلك المشاعر التي تنتابه فعلاً كل مرة.

على عكس كثيرين من زملائه الأجانب لم يتأفف تشارلز يومًا مما كان يسمعه من عبارات «بكره، إن شاء الله» وغيرها بل كانت تروق له. لم يستنكر التصرفات الطائشة المتسرعة التي صادفته من

وقت إلى آخر ذلك أنه أولاً لم يكن مفرط الحساسية وثانياً لم يكن من النوع الذي ينمط البشر فيختزل العرب مثلاً في تصرف واحد أو سمة، في الوقت الذي لم يتوقف زملاؤه عن التذمر شبه الجنوني إزاء سوء التنظيم والبيروقراطية الزائدة في مرافق البلاد، والأسوأ من هذا وذاك نفسية عدم الاكتراث السائدة. فلا يمكنك الحصول على إجازة سوق أو بطاقة صحية أو هوية شخصية أو تأشيرة سفر أو خط هاتف، بل كل شيء من دون أن يستغرقك الأمر شهوراً بلا عدد. وإن اشتكيت أو تذمرت قوبلت بالنظرات الضجرة وبالمقولة الشهيرة «بكره، إن شاء الله». راقب مدرسين في زهرة شباهم يستشيطنون غضباً وحزناً لأن شخصاً ما كان قد أقسم بتراب أبيه أن يشغل لهم خط الهاتف في الغد. يثبت الشخص عينيه إلى وجوههم ويقسم إنه سيفي بوعده وأن الهاتف الموعود سيعمل في الغد. لكن ذاك الغد لا يأتي قط. لا في اليوم التالي ولا في ما يليه من أيام. ليس قبل أن تُودعَ في راحتهم المعلوم. عندها فقط تصل الحرارة إلى الهواتف المنتظرة. لم تزعج هذه الأمور تشارلز، فقد جعلته أكثر ثباتاً، وأكثر شعوراً بالأمان.

الآن وقد بلغ السابعة والخمسين لم يعد يشعر بذاك الثبات. يكشف عن مكنوناته إن لم تكن قد كشفت أصلاً. هناك تفاصيل صغيرة يلتقطها كل يوم تساعد على التفكير. يحصيها واحدة تلو أخرى كما يحصي العجائز في مقاهي القاهرة أو بيروت حبات السبحة وهي تكرر بين أيديهم، أو كما كان يحصي كرات البلي في صغره. يشعر

معظم الأوقات كمن أنزل في بحيرة من جليد. يشعر بأصابع قدميه تدخل أولاً، ثم كاحليه ثم عضلات ساقيه حتى الركبة. يتوقف عندها قليلاً بينما يجمد الدم في قدميه وأسفل ساقيه. بعد دقيقة أو أكثر يشعر بنفسه وقد أنزل ثانية وغُمر نصفُ جذعه في الماء الثلج وتحدرت أطرافه وغدت هشة. يُغطّس بعد ذلك بسرعة فيغمره الماء الثلج ويغطيه محدثاً صوت ماء ينضح. لا يقاوم البتة. جسده كيس من حجارة. يرحب بالماء الجليدي الحارق. لا يعني أي من هذه الأمور أن تشارلز يتمنى الموت، فهو لا يزال يبحث عن مزيد من التفاصيل وكثير من ذكريات يرغب في تصنيفها وأرشفتها.

هل يهم مدرس واحد؟ ما القيمة الفعلية لمدرس لا يمكنه الإنجاب، رجل لا يمتهن الصلاح دائماً؟ لا يهم الأمر كثيراً، هذا ما يتبادر إلى ذهنه. وعندما تعطيه الصيدلانية الشابة ذات الشعر الأسود المائل إلى الزرقة علبة الدواء البلاستيكية البرتقالية وترسم على وجهها ابتسامة من غير داعٍ، يشعر برغبة في البكاء. هذه واحدة من التفاصيل التي يحصيها. قد تكون الابتسامة صادقة تنبع من القلب لكنها لا تضيف شيئاً إلى تساؤله عن قيمته في هذا العالم. لا شيء.

لقد ارتكب في حياته أخطاء ينوء بثقلها ولا يستطيع أن يتحمل ألمها عندما يكون وحيداً. ليس بالرجل الشرير فهو على سبيل المثال ليس بالسفاح المجرم. ليس سيئاً وإن لم يكن على درجة من طيبة تشابه طيبة زوجته أو أبيه. عندما ارتكب معاصيه لم يقصّ ذلك

مضجعه. ما الذي فعله؟ لقد مارس الجنس مع نساء أخريات غير زوجته. عشرة منهن. لو تخلت عنه مير وهو في الأربعين من عمره لتغلب على الأمر، لأحس بالوحدة لفترة وجيزة يدرك بعدها أنه ما زال في ريعان الشباب وما زالت أمامه فرص أخرى ليجرب ما هو جديد، كأن يدخل في علاقة عاطفية مختلفة مع امرأة مختلفة تعد بحياة مختلفة. يدرك الآن في حالته الحالية أن الأوان قد فات. من هي المرأة التي سترغب فيه وهو الرجل الذي شاخ قبل أوانه؟ مير هي القديسة الحقة التي بقيت إلى جانبه تغمره بحبها رغم كل آثامه التي كانت على دراية تامة بها والتي لم يُخفها عنها قط (باستثناء ذلك اللقاء الفاضح تحت إحدى الشجرات والذي سيبقى سرًا يحمله معه إلى قبره). أي نوع من النساء هي لتحمل ما تحملته؟ حتى هو لا يستطيع أن يعرف سبب بقائها هنا وإن كان هذا لا يعني عدم امتنانه لها. فهو ممتن في كل يوم يمضي عليه، ممتن إلى حد يرتخي فيه قلبه ارتخاء عضوه الذكري.

لعشرين سنة طوَّالاً أخلص لزوجته ميريديث التي كانت أول امرأة عاشرها. ليس الإخلاص بالأمر الصعب عندما تكون في العشرينيات من العمر. أحب مير وأراد أن يؤسس عائلة وينجب البنين والبنات. هذا ما عصمه وقتها من التفكير في نساء أخريات: حب صادق لزوجته ورغبة ملحة لأطفال يخصونه. هي فترة ظهر فيها على أحسن صورة عرفها في حياته. لكنه بعدما اكتشف عقمه ماتت شهوته. حاول إرضاء مير جنسيًا لكنه غدا متصنِّعًا مرتبِّكًا

في تقربه منها. لم يشتهها ولا اشتهى أي امرأة أخرى. كان موت الشهوة ما جعله وفيًا لزوجته طوال الثلاثينيات من عمره.

في الأربعينيات، بدأ يشرد هنا وهناك. لم يكن في ذلك ما يشذ عن القاعدة فقد جسد قبح أي تصرف طائش يقوم به أي فرد كان. عاشر نساء أقل جمالًا وذكاء وكرمًا من مير، بل أقل بكثير. استطاع أن يمارس الجنس مع هؤلاء النسوة بأسلوب لم يمكنه ممارسته مع زوجته. كان يحني أجسادهن، يعجنهن ويحيلهن إلى شكل طويل متين مفتول يمكنه أن يلتف حول غضبه فيخمدته. إلى أن بلغ الأربعين لم يكن يدرك تمامًا حجم غضبه الهائل. اعترف بالحزن إزاء حياة والديه المبتسرة، وألمه إزاء أطفال افتقد وجودهم، لكنه لم يعترف بغضبه. كانت مغامراته الجنسية مُترعة بالغضب فجعلت للجنس إحساسًا حارقًا لاذعًا. ما اكتشفه بعد سنوات عندما بدأ الغضب يخمد ويهدأ هو أن مغامراته كانت بدافع الخوف أكثر من الغضب. عاشر نساء لم يعين له شيئًا لأنه كان خائفًا من أن يتداركه الزمن ويهرم. وبتعبير أكثر دقة، كان يخشى الهرم مع امرأة يحبها دون حماس أو توقد، وأن يهرم وهو محروم من الولد كما كان حاله. لم يكن يتقبل فكرة أن جينات والدته لن تنتقل إلى نسل قادم. وعندما كان يشرح لطلبته مواضيع تتعلق بالحمض النووي (الدنا) والحمض النووي الريبوزي (الرنا) التي تنقل الشفرة الوراثية المرسال منها والمنقوص، يحس أنه على شفا الانهيار. يقف في مكانه هادئًا من دون حراك محاولًا أن يقاوم شعورًا يلح عليه في شد شعره بل اقتلاعه،

أو قشط جلد وجهه، أو ثقب ظهر ركبتيه بقلم رصاص رفيع حاد، أو أي شيء يساعد على تبديد شعور الجزع العارم الذي ينتابه وكأنه يكتشف عقمه للمرة الأولى على الرغم من استعادته في ذهنه مئات بل آلاف المرات. لا نسل له، وموت والدته لا رجعة فيه. لم يكن لينقذه من الانهيار أمام خمس وعشرين طالبًا وطالبة بلغوا الثالثة عشرة من عمرهم سوى خواطر تترأى في ذهنه يدفع خلالها أي فتاة تدور في مخيلته في تلك السنة أمام حائط ليمطرها بوابل منيه التعيس.

عاهد تشارلز نفسه ألا يعاشر امرأة تعمل معه في نفس المكان، ومن بين عشر نساء عرفهن، تسع كن غرباء عن زوجته. كان صادقًا مع مير وأخبرها بمغامراته منذ البداية. لم يُخَفِ شيئًا وإن لم يعتقد أن سلوكه هذا يبرئه أو يغفر له. اعتقد أن إخبارها لربما كان أشد دناءة من إخفاء الأمر عنها. فالإخفاء على الأقل ينطوي على درجة من الاحترام. فكر في الأزواج الفرنسيين والإيطاليين الذين يحترمون زوجاتهم فيحمونهن بالكتمان ظنًا بأن من الأفضل لهن ألا يعرفن عن مغامراتهم التي تنتهي عادة كما ينتهي عسر هضم. ليست هناك حاجة إلى تدمير كل شيء أثناء ذلك. الفارق بين تشارلز وكازانوفات عصرهم المعصومين هو الأطفال وصور أسرة تلوح في المخيلة لعائلة جديدة بالحماية وتستحق الكذب لهذه الغاية. كان اعترافه بآثامه لم ير ضربًا من ضروب الأنانية. لا بد أنه أراد جرحها أو معاقبتها لسبب ما. كانت ستكتشف الأمر بنفسها

عاجلاً أو آجلاً، فعشر سنوات من الخيانة الزوجية زمن طويل تسنح فيه أكثر من مناسبة لاكتشاف آثار الآثام. لو اكتشفت الأمر بنفسها لشعرت بالقوة ولربما بالرغبة في تركه والعثور على شخص يستحقها. لم يكن يرغب في مثل هذه المجازفة ولهذا أخبرها منذ البداية. لم يزودها بالتفاصيل لكنه كان يخبرها عن تكون الخلية ومتى. كان جباناً.

فيما عدا مشاعر الحزن والغضب والخوف، كان هناك سبب آخر لمغامرات تشارلز الجنسية. لقد كانت الخيانة الزوجية بالنسبة إليه تعبيراً عن حيوية فائضة وتوقد عارمة: طاقة، إثارة، ترفاً، وحتى تحقيق ذات. يحس وهو يرتكب فعل الخيانة أو حتى مجرد التفكير فيها، أن شيئاً رائعاً قد يحدث، وأن لكل شيء فسحة واسعة من الزمن لا تقترب معها النهايات. يحس كمن يقبض على يد صغيرة في كفه أو يرقب نوراً ينفذ عبر الستائر. أثاره ارتكاب المحظور كمن يقبض على حياة أودعت في وعاء من كريستال، سُلبت منه مبكراً جداً في غمرة صفارات مدوية في هزيع الليل الأخير وسيارة إسعاف مسرعة. كان عليه أن يستعيدها ليس إلا. أخطأ في ذلك لكنه لم يُعَدَم المحاولة. كان هناك كشف في تلك اللقاءات الخرقاء، بل تعرية. لم يتعلق الأمر برغبة في الإفصاح عن مكنوناته للنساء، وبالتأكيد لم تكن النسوة ليكشفن له عن مكنوناتهن. على كل حال لم يكن هو مهتماً بمثل هذا النوع من الحوار المتبادل أصلاً. ما اكتشفه تشارلز في كل مرة عاشر فيها

امرأة غير امرأته هو إمكانية العثور على نواة ما، بذرة يمكن أن تثمر. لم يكن هناك أي شيء آخر أمامه يعطيه نفس تلك الشحنة الكهربائية تسري تحت سطح جلده. حيوية، ترف يثمر فرصًا محتملة. وكان ذلك ما أدمن عليه.

لم يكن لفرص الحياة وإمكاناتها المتاحة مكان في حياة تشارلز وهو يمر بسن المراهقة والعشرينيات من عمره كتلك التي توافرت لشبان في مثل سنه. كان هؤلاء يركلون بأقدامهم الأوراق الصفراء المقرمشة قرمشة حبوب الإفطار التشيريوز، يتجمعون في أحد أركان المكتبة حتى ساعات متأخرة من الليل، أو يحتفون معًا بهجة يوم عطلة استثنائي مثلج. أما هو فقد بقي بعيدًا عن كل هذا. كان بوسعه أن يرى حيواتهم تنبسط أمامهم بلا حدود، ثمينة وقيّمة، لكنه لم يرَ حياته هو هكذا. عاش في فقاعة منعزلة تربكها أبسط خيارات ينتقيها من بعيد وكأنها تمتُّ لشخص آخر. في أوائل الثلاثين من عمره، وفي تجربة مر بها مع إحدى طالباته، ذاق لأول مرة ما فاته سابقًا. يشعر بالخجل عندما يستذكر ذلك، حتى الآن بعد أن عفا عليها الزمن ولم تعد بذات الأهمية. تضنيه الذكرى. يتمنى أن يدفن شعور الخزي ذاك كي يتمكن من استعادة طعم التوهج الذي اتّقد لأول مرة في حياته. يا ليته يستطيع أن يفسح مكانًا في صدره حتى ولو كان صغيرًا وسريًا يمكنه من أن يحيا ويُحيي تلك التجربة مئات المرات حتى يلفظ النفس الأخير. تشده ذكرى مرحلة الصفاء والنقاء الأولى يتمنى معها أن يعود إلى زمن سبق ما ستؤول إليه،

وما ستضطره الحاجة إلى القيام به. يريد أن يشعر ثانية بما جعلته مينا يحس به لأول مرة عندما بلغ الثانية والثلاثين.

تساعده مير على الوقوف وتمسك بذراعه تقوده نحو الكنبه. هو لا يحتاج مساعدتها فنادرًا ما يترنح ومع ذلك يستسلم مقدمًا إليها ذراعه. منذ شهور لم يكن ليبقى على قيد الحياة لولا مساعدتها. هو أقوى الآن. يستطيع أن يذهب وحده إلى الصيدلية، أن يعد سندويشة، أو يحكم الغطاء حول كتفيه. أما مير يديث فهي تحيا من أجله على الرغم من كل ما اقترفه زوجها من آثام. يبدو أن جل حياتها تتمحور حول رعايته وتلبية احتياجاته. الدواء، الدفء، التغذية الصحيحة، الحمام. لماذا؟ هي بكامل صحتها تنضح بالحياة ولا تزال جميلة مشرقة بشعر رمادي فاتن. لم تَنْدُر مير حياتها من أجل تشارلز؟ إنه لحمل ثقيل بل في غاية الثقل ولا يجوز أن يموت وهو ينوء به.

حَكَمَ مَرَضُ سرطان الخصية على تشارلز بموت قريب. استأصل الأطباء ما أمكن استئصاله ورأوا أن سير المرض في صالحه لكن تشارلز لا يصدقهم. يعلم أنه مائت لا محالة، وها هي العدالة تأخذ مجراها. ما هو بالرجل الشجاع ولا يشابه والدته في مواجهة المرض، ولا حتى والده. لا يريد أن يموت لكنه أيضًا لا يرغب في المقاومة. يا له من لغز عجيب. ما يريده هو أن يعيش كي يعود إلى الوراء ويستظل بتلك الأمكنة التي منحته التوهج والتوقد،

يعود ليؤرخ ويسجل تلك اللحظات، كل واحدة منها. لقد انتهى
حاضره ولا يكثرث لأي مستقبل آت. يريد أن يعيش كي يصنف
ملفات توثق تاريخه الغرامي بالألوان. لن يكتب عمّا حدث. فما
حدث ليس ما يهم. لهذا السبب وحده دأب تشارلز على إطلاع مير
على كل مغامراته وبانتظام. أما ما يهم فعلاً فهو ما لم يفصح عنه
لأحد، بالتحديد ما يريد أن يحفظه.

خلال مغامراته كان من عاداته أن يجمع بضعة أشياء صغيرة
تخص عشيقاته، أشياء لا يمكن أن يحسّن بفقدائها. قد تكون لائحة
مشتريات من البقالة، أو فواتير، تذاكر لعروض مسرحية، صفحات
من مجلات أو كتب يقرأها، بطاقات بريد أو رسائل دعائية تصل
بالبريد، مناديل يد مستخدمة، مصاصات شراب مُصِغت أطرافها،
أعواد أسنان أو أقلامًا، أطراف خبز توست تناولنها، رباط شعر
ملون، مشابك شعر، أغلفة سكاكر، تعليمات يتركها لأزواجهن
على باب الثلاجة، بطاقات ثياب تحمل السعر والمقاس، كرات وبر
وغبار من تحت الأسيّرة، أعقاب سجائر تحمل آثار حمرة شفاههن،
خصلات من شعرهن، ريشًا أو فروًا من حيواناتهن الأليفة، أزهارًا
من حدائقهن. يريد أن يرتب هذه اللقى في ملفات. يريد أن يضيفي
معنى على المنطق المستحيل الذي تملكه وهو في الأربعينيات من
عمره، أن يصل بين النقاط كي يتضح الشكل وينجلي. هو لا ينشد
فهمًا أو مغزى ولا يبحث عن نهاية. كل ما يريده هو طريق العودة
إلى مينا.

قابل مينا في سنته الثانية في الكويت. كانت طالبة في الصف السابع في مقرر العلوم الذي يدرسه. هي في الثانية عشرة من عمرها وكانت فائقة الجمال. لاحظ في إحدى لحظات التلمي لديه أن إعجابه لم يكن بريئاً. وبما إنه لم يمر بتجربة مماثلة من قبل فقد ارتد وهو يشعر بالألم يعتصر معدته. لكن شيئاً آخر بدأ يتنامى ويتجلى في نفس الوقت، شيئاً جعله يشعر بالذهول والإثارة والترقب العام. لم يراوده إحساس بهذه الحدة من قبل. كانت هناك ثورة خارقة تضطرم في داخله ووجد من الصعب عليه أن يتحدث مرحباً بطلبة الصف السابع المقبلين في تلك السنة على دراسة علم الأحياء حيث يترتب عليهم اكتساب معرفة بمكونات الحياة الرئيسية - خلايا ونباتات وحيوانات وبشر - ممن وجدوا أنفسهم معاً وقد شغلوا في عملية تكاثر تسمى الوجود. في داخله كان ثمة شيء يختنق. لم يرد لهذا الاختناق العجيب أن يتوقف ذلك أنه كان يفتح شرياناً آخر لم يكن يدري أنه يجري في عروقه.

كان جسد مينا غصن بان. عيناها بحيرتان داكتان مفعمتان بالذكاء جعلتاها تبدو وكأنها في الثلاثين من عمرها، وكان لصوتها جرس رخيم يبعث على الدهشة. عندما تتحدث خلال الدرس كان يضطر إلى بذل أقصى الجهد ويمارس ضبط النفس ليقاوم رغبة في لمس وجهها. وعلى الرغم من أن الخطر كان يلوح في الأفق لكنه ولأول مرة في حياته شعر بأن تهديد كارثة وشيكة لن يطاله. ذلك أن أفضل شيء ميز مينا، طالبة الصف السابع، هو أنها لم تكن لديها

أدنى فكرة عن كمّالها وحسنها. كانت تتعامل مع جمالها النقي كمن لا يخشى ضياعه. هذا بالضبط ما وجده تشارلز عاملاً لا يقاوم وجعله يرغب في امتلاكه حتى نهاية الكون.

درّسها في الصف السابع وكان لطيفاً معها وفضّلها على غيرها من الطالبات على الرغم من تحفظ بادٍ. كان يترك باب غرفة الصف مفتوحاً خلال فرصة الغداء معلناً للطلبة أن في إمكانهم الدخول إلى الصف إن شعروا بأن الطقس في الخارج حار جداً. كان يعلم تمام العلم أن أحداً من الفتية لن يأتي، فقد كان هناك اللعب بكرات البلي، وكرة القدم وألعاب الكمبيوتر التي تغريهم بالبقاء خارجاً. كذلك لم تستجِب كثرات من الطالبات إلى دعوة العودة إلى غرفة الصف. مينا واثنان أو ثلاث من صديقاتها رحبن بالفكرة وجعلن من ذلك شبه عادة يومية. كان يتظاهر بالانشغال بتحضير دروسه فيجلس بهدوء في مقدمة الصف وبصبر يعد الدقائق التي تمر -خمس دقائق، عشر، خمس عشرة- ثم يسمح لنفسه، من يوم إلى آخر، بأن يسترق نظرة. لا يحرك رأسه البتة بل يحرك عينيه فقط إلى الأعلى أو يمنة أو يسرة نحو مينا. وفي منتصف السنة الدراسية، بدأت مينا تزوره وتخبره بأشياء عدة، ورغم أن صوتها كان يتردد بعض الشيء فقد كان يشي بثقة كبيرة فاقت سنّها. سمح لها بأن تحدّثه عن مغامرات قلبها الفتى وافتتانها ببعض الصبية، عن الألم الذي تشعر به في ساقها ليلاً، وعن نوع الموسيقى التي تروق لها. كانت تدفع إليه جهازها الوكمان وتقهرقه لتمايله الأخرق على أنغام لحن غريب

عنه. تقترب منه وهو ينصت. سيصبح في وسعه أن يميز رائحتها في غرفة مظلمة، حتى الآن. كانت تفوح منها رائحة ثلج الشتاء أو شمس، أو رائحة النار في ليل مثلج. رائحتها رائحة طقس عرفه عندما كان صبيًا، ودفعه هذا إلى الارتباك. فتاة هي زوبعة من الفرح ببؤرة مستكينة.

في السنة التي تلت لم يدرّسها مقرر العلوم لكنها دأبت على زيارته خلال الفرصة. في سن الثالثة عشرة بدأت تدرك إمكانيات جسدها. غازلت تشارلز وتدللت عليه من غير رحمة وتظاهر هو بالغفلة. دفعه هوسه بها إلى مشاعر متناقضة تأرجح فيها من قمة السعادة إلى قمة الحزن، فتارة قصد الصحراء في عطلة نهاية الأسبوع ليحرق بامتنان إلى سماء زرقاء، وقمر يعدو، وتارة ندب حظه العاثر لضياح حيوات لم يكن له أن يعيشها لأنه فقد والدته مبكرًا ولأنه حرم من الولد. كانت نوبات حزنه تحير ميرديث ولا تفلح معها المواساة. تنسلُّ أُناتهُ الجوفاء من تحت باب الحمام المقفل، لكنها تبقى حبيسة أمام تساؤلات ميرديث القلقة، كتيمة كالقماش المشمع.

في السنة التالية، سنته الرابعة في الكويت، رتب تشارلز الأمر بالتنسيق مع المدرسة كي يعلم مقرر الأحياء لطلبة الصف التاسع. لم يكن مغرمًا بتدريس طلبة المرحلة الثانوية وبخاصة الطلبة الذكور منهم لكنه أراد أن يحظى بمينا في صفّه للمرة الأخيرة فقد شعر بالحاجة إلى رؤيتها كل يوم. شعر بالخجل من نفسه ومما كان يدور في خلده. كان الخطر يتصاعد من حوله فهو يقذف بنفسه

في بركان من الحماقات ولم يكن هناك ما يردعه عن ذلك. بدأت أحلامه تطغى على أيامه اليقظة وترتاد مناماته كل ليلة. لهذا عندما كان يراها في الصباح كانت تبدو استمراراً لمن هو مألوف لديه. لم يستطع أن يفسر أيّاً من ذلك. ثلاث سنوات هي زمن طويل. أقنع نفسه بأن الأمر يتعدى كونه تعلقاً وهوساً. هو الحب لا غير. كانت في مستقبل العمر لكنه تخيل نفسه وهو ينتظرها إلى أن تكبر وتتخرج من الجامعة فيتزوجها ويرزقا بالبنين والبنات، فليس العقر علتة. معها سيصبح كل شيء ممكناً وقابلاً للتحقق. كان واثقاً بحبه إياها ومن استمرار هذا الحب إلى ما لا نهاية.

حينما بلغت الخامسة عشرة من عمرها بدأت مينا تبتعد عنه. على الأقل هذا ما شعر به. لم يعد يراها إلا نادراً، وإن فعل فلِمَماً: تلويحة يد، ابتسامة خاطفة، تحيات بخفة الهواء. كانت في مكان آخر ترقب حياة في طور البدء والانكشاف، تخلق فيها عالياً. أما حياته هو فقد كانت في طور النهايات، انهار فيها التوهج والتوقد بعد مرور سنوات ثلاث فقط. كان بودّه لو حصل على المزيد.

في أحد أيام ديسمبر رآها جالسة بصمت تحت شجرة. من النادر أن ترى مينا وحدها فبؤرتها المستكينة كانت دائماً ما يجذب الآخرين إليها، شبان رائعون ما كان له أن ينافسهم تمتد حيواتهم أمامهم بثبات يماثل حياتها. كانت وحيدة في تلك الظهيرة تحت الأغصان الواطئة لإحدى الشجرات. انسل نحوها من دون تفكير كثير وجلس قريباً جداً منها بما سمح له أن يشتمّ ثانياً

رائحتها الثلجية، نفس الرائحة التي تمنى أن تغترفها رثاءه. وهذا ما كان. نظر في عينيها كما لم يفعل من قبل، يعب الأنفاس حتى تخترق روحه، أدنى فمه من أذنهما -مدرِّكًا أن تصرفه سيتسبب في طرده من عمله، لكنه كان في وهج الحماسة ولم تكن في متناوله مكابح تحجمه عن التهادي - وهمس إليها: «ابتعدي عن أحلامي، يا صغيرة». لم ينطق هذه الكلمة من قبل ولن يستخدمها ثانية قط. كان يجب لكلمة «صغيرة» أن يوجهها إلى أبناء صلبه هو. «يا صغيرة» كلمات كانت لتدفعه إلى كسر ساق أي رجل يوجهها إلى طفلته هو. كلمة همس بها تحت شجرة أعلنت موت التوقد والتوهج. كلمة من أجلها بدأ يعاشر النساء عندما بلغ الأربعينيات من عمره، ومن أجلها راح الآن، وبها يصعب تفسيره، يعد الملفات اللامتناهية، ومتاهات من الأضابير التي قد تمكنه من خلالها أن يتقفى طريق العودة إلى ذاك الشعور الفريد الذي تملكه في تلك السنوات البعيدة. وإلى رائحتها.

احتاج تشارلز قرابة أربع سنوات تلت هذا اللقاء قبل أن يتمكن من أن يودع ذكرى مينا على الرف وأن يقر بأن التوقد والتوهج الذي خبره لفترة قصيرة سوف يتلاشى في حالته إلى الأبد. ساعده بلوغه سن الأربعين أن يكتشف ثانية رغبته في الجنس. عاشر مير، وكثيرات غيرها، ما ولد لديه شعورًا بتوازن غير تقليدي دام حوالي عقد من الزمن.



سنتهما الأخيرة في الشرق الأوسط كانت في بيروت. أمضيا سنتين جميلتين فُتتا بالمدينة ووقعاً عقداً جديداً لسنتين آخرين. شعر تشارلز بأنه يخرج من دوامته ولأشهر عدة لم يُقدم على أي مغامرة طائشة. ومرة ثانية لحق بهما الصديقان فيرونيكا وتوم اللذان اختارا نفس المكان. صداقتهما امتدت لخمس عشرة سنة وكانا بلا أطفال أيضاً وإن كانت العلة عقم فيرونيكا. قد يكون هذا ما قربهم بعضهم من بعض فالزملاء الآخرون كانوا إما صغاراً عليهم أو آباء لأطفال اضطروا إلى اصطحابهم معهم في المناسبات الاجتماعية، الأمر الذي لم يكن أي من تشارلز وتوم يطيعه. كان توم الرجل الوحيد، فيما عدا والده، الذي أحبه تشارلز من كل قلبه. كان توم يعلم بمغامرات تشارلز العاطفية لكنه لم يكن من النوع الذي يُدين الآخرين ولم يكن ليتوانى عن غمره بلطفه. في منتصف سنتهم الثالثة في بيروت بلغ تشارلز الخمسين، وأتى الزوجان فيرونيكا وتوم لتهنئته بعيد ميلاده.

لم يكن تشارلز يتوقع أزمة منتصف العمر فقط، بل كان يُعدُّ نفسه لها. سَكِر الجميع تلك الليلة. تبع تشارلز فيرونيكا إلى إحدى الغرف. أمسك بها من معصمها ودفعها إلى الجدار. قبلها واستجابت له في البداية. بدأ بالضغط أكثر فأكثر فأخذت تقاومه. كان في وسعه أن يرى نفسه بمعدته المتنفخة وفخذه المترهلين. كان الأمر هزلياً وسمعها تردد «لا». لم يوقفه تمنعها وإذ بتوم يدخل الغرفة. كانت هناك دموع وصرخات وغضب. وكانت هناك

اتهامات بشعة وصداقة دمرت. لقد انتهك فيرونیکا. وما من أمل له في المستقبل. قاطعته مير ولم تبادل كلمة واحدة لأربعة أشهر طوال إلى أن جاءت تلك المكالمة التي حملت خبر والده. لم تتحدث مير معه لكنها كالعادة بقيت إلى جانبه.

ليس الغفران ما ينشده. وليس الخلاص. لقد دفع الثمن باهظًا فقد عاش أطول من أمه، ولم يكن هناك إلى جانب أبيه ليحضنه بين ذراعيه وهو يودع الحياة وحيدًا في سريره. هو يعيش في عالم يمكن لللفظ فيه أن يتأجج حارقًا بما يكفي لجعل السماء سوداء وقت الظهيرة والشمس دائرة من الأرذواز في قلب السماء. مكان يموت فيه البشر بالملئات في الصحراء، تجز الرقاب، وتُطهَّر القرى من سكانها. مكان ينسف البعض أجسادهم لينسفوا أجساد آخرين ويحيلوها إربًا. هل يمكن لوجوده أن يهَمَّ في خضمَّ كل هذا؟ الغفران؟ الخلاص؟ ليست حياته تاريخًا، بل حطامًا. لم يكن أبًا لأحد. وما من طريق إلى الأمام. هناك طريق واحد إلى الخلف. سيموت إن خطا نحو الأمام. لكنه سيجد دربه إن عاد إلى الوراء. فعبر الأشياء الصغيرة التي عرفت زواجه طوال الوقت (حبات السبحة التي تكرّرها أصابع العجائز، كرات البلي التي لعب بها في طفولته، قطع الموزاييك التي تهيم في رأسه) سيتلمس درب العودة.

تمد مير يديته إليها إليه، فياخذها. سيحكم الإمساك بها كي يعبر. سيمسك بيدها ويعدُّ حبات السبحة والبلي والابتسامات

الصغيرة العفوية، ودموع عينيه، كي يعبر. سيجد دربًا في الملفات.
لحياة في الثلج. للطيبة التي تفرد جناحيها وتنتشر فتضمُّه في أعطافها.

إيلسا فتاة مسيحية من العراق. كان والداها شعلة ذكاء، أدركا منذ البداية أن عليهما مغادرة العراق وأن الكويت حتى في عزها لن تدوم لهما. شدّا الركب إلى الولايات المتحدة في أوائل السبعينيات وأمضيا الوقت اللازم هناك إلى أن حصلّا على بطاقة الإقامة الخضراء عادا أدراجهما بعدها إلى الكويت ليمضيا فيها عقدًا من الزمن يجمعان فيه مالا كافياً يسمح لهما ببناء بيت الأحلام في ولاية جورجيا. أذكر إيلسا في الصف الثالث بشعر مجدول لُفّ على شكل كعكتين حول أذنيها، أذكر ياقتها البيضاء المنشأة تبرز من تحت كنزة كحلية كُويت بعناية فائقة. عندما تتحدث إيلسا تندفع الكلمات بسرعة مليون كلمة في الدقيقة. كانت دائمًا تصل إلى استنتاجات تقنّعي فأوافقها رأسًا وكأن رأيها رأي مدرس أو أم. وعلى الرغم من أنها كانت في سني فقد شعرت بها وكأنها أختي الأكبر. في إحدى السنوات أخبرتني بأن خالة لها أصيبت بالسرطان وتحتضر. أضافت أنها تود أن تدرس الطب عندما تكبر كي تكتشف علاجًا للمرض

الحديث. لم تكن لديّ أدنى فكرة عمّا تتحدث عنه وإن لم تفارقني القناعة أنها ستفلح فيما خططت له. (كم أتمنى يا إيلسا أن تكوني وجدت دواء شافياً. لقد وعدت يا إيلسا وأنا صدقتك).

عبر سنوات صداقتنا وثقتُ برأي إيلسا في كل الأمور المهمة: نعم، الأصفر يليق، والكنزة الصفراء تتماشى جيداً مع تنورتي المفضلة الرمادية ذات الثنيات، لقد كنت يومئذ نحيلة بما فيه الكفاية، وكان ذوقي في موسيقى الموجة الجديدة لا يُعلَى عليه، أما تقبيل صبيين في أسبوع واحد فهذا لا يجعل منك عاهرة بكل تأكيد.

كانت إيلسا تقطن وعائلتها في شقة في مجمع سكني يحيط بحوض سباحة وكنتَ تستطيع أن تشم رائحة البحر القريب. كان لسكان المجمع الفلسطينيين والعراقيين والمصريين والأوروبيين والأمريكيين أطفال التحقوا إما بنفس مدرستنا وإما بواحدة من المدارس الدولية الأخرى المعروفة. لم يكن الجيران من النوع الذي يترك أحذيته برائحتهما التتنة أمام الأبواب، ولم يكن أطفالهم من النوع الذي يخبط ويصرخ طوال اليوم كعفاريت الجن. كانت هناك فسحة أمامية للعب كرة القدم لها عمودان مكسوان بالرخام رسماً حدود ركن المرمى. كانت هناك نساء يرتدين البيكيني يتمددن للاسترخاء على كراسي الشيزلونج، وأمّهات شابات، في عمرنا الآن، يتلذذن بتدخين سجائر يمجنها ببطء وقد وضعن على عيونهن نظارات شمس كبيرة رحن يرقبن أطفالهن من خلالها. كانت عطلة نهاية الأسبوع غنية بالنشاطات التي تبدأ عادة بحفلة نوم في شقة إيلسا، يوم

الأربعاء بعد انتهاء الدوام، زيارة إلى صالة التزلج ليلاً، واسترخاء إلى جانب حوض السباحة بعد ظهر يوم الخميس - حين نتفحص الفتية ويتفحصوننا - تليها حفلة في المساء، وتنتهي الإجازة بعد ظهر يوم الجمعة وقد استُنفِدتنا كحساء ساخن. لا يزال لعطل نهاية الأسبوع هذه التي غابت وانقضت معنى يتسم بالكمال، كمتوازي الأضلاع أو كصورة كاميرا البولارويد.

~

هندوق أمريكا

كان قرار تغيير أحمد وفاطمة لاسم ابنتهما البالغة من العمر خمس سنوات فقط أمراً جريئاً. فالكويت أولاً وآخرًا بلد غارق في بيروقراطية مستفحلة. غير أنها كغيرهما من المواطنين الكويتيين في أعقاب تحرير البلاد عام 1991 أرادا التعبير عن امتنان الشعب الكويتي لأمريكا لمساندتها الكبيرة. كانت فاطمة في أواخر الأربعينيات من عمرها، وقد مرت سنوات منذ آخر حمل لها. عرفا تمامًا مشقة إجراءات تغيير الأسماء وأعدّا النفس للتعرف عليها بكل دقة. قدما تلاً من الطلبات إلى الوزارات المعنية، أودعت رِشاً صغيرة في أكف التقطتها بعيداً عن الأعين، أعلننا اسم الابنة الجديد في صحيفتين اثنتين، وما إن انتهيا من مهمتهما حتى قاما بدعوة الجميع إلى منزلها احتفاءً بالمناسبة واحتساء إستكانات من شاي الزعفران. اجتمع الرجال في غرفة والنساء اجتمعن في غرفة أخرى ثم كالجراد انقضض الجميع على الطعام وشرعوا بعد ذلك في الغناء على أنغام الموسيقى. شعروا

بالسعادة لما استردوه من حرية وأحسوه من أمان عصر ذاك اليوم الطويل.

لم يكن أحمد وفاطمة من الأثرياء. عاشا في أحد مساكن الدولة قرب محطة بنزين في قلب العاصمة. تمكن أحمد من تدبير وظيفة له في إحدى الوزارات تشغله بعمل وَرَقِيّ روتيني لا طائل من ورائه. بينما لزمت فاطمة بيتها وانهمكت في تفاصيل حياتها المنزلية. رزقا بشمانية أطفال وإن كان لهذا الأمر دوافعه الاقتصادية. نظر كلاهما إلى وسائل منع الحمل بعدم ارتياح كبير شأنها شأن موضوع الفحص الطبي النسائي الذي جادلا في أمر مخالفته لتعاليم الإسلام. لكن فاطمة أنجبت لا شيء سوى للحصول على المعونة المالية التي تتلقاها الأسر الكويتية من الحكومة إزاء كل طفل يهمل على العائلة. لهذا فقط سمحا لعائلتهما أن تكبر، فكل وليد جديد يضيف خمسين دينارًا كل شهر إلى راتب أحمد الضئيل. لم يكن من السهل تفويت خمسين دينارًا تتضاعف بشمانية أمثال فقد بدت مبلغًا معتبرًا يستحق معه أن تنتفخ فاطمة وتكبر كالبالون ثماني مرات طوال فترة شبابها.

مع كل حمل دعت فاطمة ربها أن يرزقها بنتًا، ابنة تسير في ركبها مقتفية أمها تساعد في قضاء حاجاتها، ابنة تشاظرها حمل خيبتها، ابنة تؤنبها وتحبها، ابنة تخطط لزفافها، ابنة ترعاها وأباها عندما يتقدم بها السن. لم يستجب أي حمل من سبعة إلى دعاء فاطمة. بحلول الحمل الثامن، توقفت عن السؤال، راضية بأمل أن تصبح زوجات أبنائها بمثابة بنات لها لم يحملهن رحمها. وأتت الابنة

من دون دعاء أو توسل. رأتها فاطمة بشارة خير وتصديقاً إلهياً لكل ما رفعته من دعوات في سنين مضت. ببساطة وجد أحمد في قدوم الابنة سبباً كي يلين، وكسراً للطوق المعتاد.

على الفور تعودت أمريكا أحمد الأحمد على اسمها الجديد. لكن الموظف ذو البشرة الرمادية الدهنية والذي وقعت على يده مهمة كتابة الاسم ومهر الطلب بالخاتم الرسمي أخطأ في تهجئة الاسم بالإنجليزية فكتب كلمة أمريكا بالإنجليزية لا بحرف الـ k بل بحرف الـ k. لم يكن يتقن الإنجليزية ولم تتجاوز معرفته بها نتفاً التقطها من هنا وهناك. على كل حال كان الجوع يعتصره ما جعله يسرع في إنجاز ما بين يديه ومغادرة عمله مبكراً ليلحق بغدائه بدل أن يضيع وقته في ترهات كهذه. وعندما أبلغ أحمد بأن اسم ابنته قد كتب بالـ k، كان الأمر منتهياً لا رجوع فيه. إن شاء أحمد أن يغير ذاك الحرف الواحد فعليه أن ينتظر حتى انقضاء عطلة نهاية الأسبوع ومن ثم يدعو الله أن يحضر الموظف ذو البشرة الرمادية الدهنية إلى وظيفته، وهو ما لم يكن مضموناً البتة. كان قرار أحمد بقبول الاسم على علات تهجئته قراراً حقيقياً، فالاسم أولاً وأخيراً سيكتب بالعربية من دون إشكاليات التهجئة الإنجليزية. على كل حال، فقد تبين أن أمريكا ستعجب أيما إعجاب بالتهجئة الإنجليزية التي أتت من باب الصدفة. فأمريكا عندما تكتب بالـ k سيعني الحرف كثيراً، فالـ k كركلة في الهواء، كنجمة من نجوم فرقة رقص راديو سيتي روكيتس.

في مدرستها الابتدائية شعرت أمريكا بالتميز إذ لم يكن لغيرها اسم كاسمها. لم تكن تدرك معنى الاسم أو ما يحيل إليه. لاحظت فقط البهجة التي تهل على الوجوه عندما تُسأل عن اسمها. «نعم، علينا أن نشعر بالامتنان والعرفان لأمريكا، فلو لاها لأصبحنا محافظة من محافظات العراق، الله لا يقوله. لا تنسي أبدًا الاعتراف بفضلها وعلينا أن لا ننسى جميعًا جميل صنعها». يقولون هذا والبهجة تشع من وجوههم في كل مرة. في البداية.

الشخص الوحيد الذي لم يُرق له الاسم هو مُدرّسة الدين. كانت أبله ندى، إنسانة انفعالية صعبة المراس لاذعة الكلام، لها وجه كالقهوة الراكدة. تلف رأسها بحرص بحجاب أسود يغطي ليس الشعر فقط بل الجبين والحاجبين، ويغطي نصف الوجنتين ومعظم ذقنها. وما إن تفتح فمها حتى تطرر رؤوس التلاميذ وكتبهم المفتوحة والمقاعد الملتمة والسبورة بوابل من لعبها المتطاير. «اسمك خيار سيئ لفتاة صغيرة سيئة. ولا مهرب من قدرك يا عزيزتي طالما بقي اسمك على هذه الشاكلة، وحتى لا خلاص لنا ولكل من يجروء على تجاوز ما قدره الله وكتبه. في قبوركم سوف تسمعون خطي مشيعيكم وهي تخب بعيدًا وتركم في وحدتكم. سيبدأ عقابكم ما إن تضيق عليكم قبوركم لتستشعروا أنفاس جهنم تحيط بأجسادكم وتصليكم بنارها. ستدرك أنوفكم رائحة التفسخ والقريح والدم والبول». يستمع التلاميذ بعيون مفتوحة كصحنون الفناجين برعب وهلع غير قادرين على صم آذانهم وقلوبهم بعيدًا

عن كلماتها. أمريكا وحدها لم تتأثر بما سمعت. استمعت إلى قصص أبله ندى عن العذاب والعقاب تمامًا كما كانت تستمع إلى حكايا أشباح تروى حول الموقد. تعاملت مع قصصها مثلما كانت تتعامل مع حكايا جدتها عن نشأتها في الصحراء وكيف كانت السماء مذهلة بزرقة تجعلك تُقدّر كل جميل، وتمنّ لو وجود العصافير. كانت قصص أبله ندى حكايا، وأمريكا تحب الحكايا. أصدقاؤها كانوا يغادرون غرفة الصف وهم يكون ويرتعشون رعبًا، هلعين واعدن ألا يفوتوا صلاة. أما أمريكا فقد كانت تركل بقدميها الهواء، منطلقة كراقصة الروكيت، كحرف الك وهي تسعى وراء المغامرة.

عندما تذكر أمريكا اسمها تنطقه على نحو مغاير قليلًا ليصبح «أمريكا» مشددة على الراء وليس على الميم فهذه هي الطريقة التي ينطقها العرب عادة. لم تكن لديها فكرة أن نفس الاسم ينطق بشكل آخر في أماكن أخرى. عرفت ذلك عندما بلغت سن السابعة وبدأت تشاهد القنوات الفضائية فلاحظت أن البعض ينطقها «أميركا» أو «أمغيك». اكتشفت أن اسمها يشير إلى مكان، مكان شاسع فيه عمارات شاهقة، ومساحات مترامية الأطراف وعواصف عاتية ومطر غزير وثلوج. اكتشفت أن هناك كتلاً ثلجية تتدلى من فروع الشجر كأصابع الكريستال، وأشجارًا تغير لون أوراقها ليتفجر برتقاليًا وأحمر وأصفر داكنًا وبنياً بلون الكستناء. عرفت أن هناك احتفالاً يدعى هالوين، وأن الناس يحتفلون به بتبني صفات أو شخصيات مخيفة يرتدون أزياءها. ظنت أن الهالوين قد يروق

لأبلة ندى لما فيه من صور ورائحة الموت والرعب التي تعشش في ذهنها، لكن الأبلة أكدت لها بكل ثقة أنها لا محالة ذاهبة رأسًا إلى جهنم لمجرد اطلاعها على مثل هذه الأشياء. لكن أمريكا رحبت بفكرة جهنم إن احتوت كالهالوين على جمع الحلوى من بيوت الحي ومصايح اليقطين المزينة. إن كانت جهنم شبيهة بأي منهما، فمرحبًا بها.

اطلعت أمريكا على لعبة البيسبول وطقوسها من ضرب كرة بيضاء بعضًا ومن ثم الركض والبصاق على الأرض. عرفت من هوب روب وكيف يمكن لبطل أن يكون أعسر. عرفت أن هناك رعاة بقر وأحصنة وأزرارًا من اللؤلؤ المصطف تزين قمصانًا ضيقة مطرزة بأشكال الورد، عرفت عن سماوات كالحقول تتشح بألوان الأصفر والأخضر قبل هبوب العاصفة، عن غيوم لونت الجبال بالأسود والأزرق، عن زوابع وطوفانات تهدم مئات البيوت وتهلك البشر مخلقة وراءها صورًا قديمة حزينة طافية تحملها بقايا ربح.

اكتشفت أمريكا نيويورك، مدينة قوطية الأبنية رمادية وملتمعة، تتوسطها حديقة كبيرة، وتتوسط الحديقة بحيرة، وامرأة وسط المحيط منتصبه القامة. في نيويورك كل شيء مثير. متاهة تجد فيها الجريمة وتجد طعامًا يباع في زوايا الشوارع. فيها شوارع مرقمة وتقاطع طرق مربع الشكل وفيها سيارات أجرة صفراء. في الكويت تتقاطع الشوارع في حيز مستدير، وسيارات الأجرة برتقالية اللون.

مانهاتن جزيرة كجزيرة فيلكا الكويتية، وإن اختلفت عن فيلكا بأن الإسكندر الأكبر لم يزرها يومًا. إسكندر سمى فيلكا إيكاروس باسم ابن حلق قريبًا جدًا من الشمس.

أعظم ما تعلمته أمريكا كان اللغة. ليست الإنجليزية فحسب بل.../الأمريكية. دورت بلسانها حرف الرء كالبيغاء وتمكنت من رفع نبرتها لتنتلق حادة قوية واثقة. فتحت الأمريكية عالمًا من الدهشة أمام أمريكا.

تابعت أمريكا القنوات الفضائية الأمريكية لسنوات عديدة ما قادها إلى استنتاج أن الناس يضحكون أكثر في تلك البقعة الشاسعة من الأرض الممتدة من بحر إلى بحر. ولكي تمتلك هذا الكون الواسع وهذا الفرح المذهل، قررت عندما بلغت العاشرة من عمرها أن تأتي بصندوق تودع فيه كل ما تقدر الحصول عليه من أمريكا. كانت أمريكا تدرك أن لديها، كغراب العقق، ميلًا إلى جمع الأشياء، ولهذا رأت من المستحسن اختيار واحد بحجم معقول. ليكن صندوقًا خشبيًا لا يتجاوز خمسة وعشرين سنتيمترًا مربعًا له غطاء بمفصلات. قسمت داخل الصندوق إلى خمسة وعشرين جزءًا كل واحد بقياس 5x5 سم وأصرت على الذهاب إلى النجار بنفسها، الأمر الذي أذهل أباه والنجار معًا. لم ترد أن يكون الصندوق ثقيلًا لكنها أرادته متينًا. طلبت قفلًا وسط الغطاء شريطة أن يكون مفتاحه من النحاس.

لم يكن تصميم الصندوق صعبًا، الصعوبة كمنت فيما تودعه فيه وفي تنوع الأشياء حسب أزمانها. في سن العاشرة وضعت أمريكا الأغراض التالية في الصندوق: غلاف إصبع شوكلاتة بيبي روث (أحضره لها عمها مع حلويات أخرى من فلوريدا)، سكاكر خضراء من الجيلاتين، علكة ببل يم بنكهة العنب، خمس من كرات البلي الزجاجية مختلفة الألوان (كانت رأت على التلفاز أطفالاً يلعبون بها أثناء الفرصة)، علم أمريكي صغير ثبت في أعلى عود أسنان، صَدَفَة محارة (لتحضير طبق المحار)، بابا نويل خشبي، فول سوداني (لصنع زبدة الفول التي عرفت أنها وجبة لذيدة تدهن على خبز من التوست الطري الأبيض، ونَدَر بريد، نزعَت أطرافه تعلوه طبقة من جيلاتين وليس مربى العنب أو الفراولة)، كاريكاتور هزلي انتزع من مجلة آرشي وطوي بعناية، خيمة صغيرة حصلت عليها من بيضة شوكلاتة كندر (لا تباع في أمريكا وإن احتوت عادة على أشياء ترتبط بها)، بطاقة بيسبول لسلسلة ألعاب العالم 1996 وجائزة أفضل تقدير للاعب MVP التي نالها جون ويتلاند، مشبك إلفيس، ورقة قيقب برتقالية اللون قصت من قماش قطيفي، حبل قصير من الفشار، بضع حبات من حبوب الصباح الدائرية الشكل والمتنوعة الألوان المعروفة باسم فروت لوب (فقد أعجبت بتهجئة الاسم بالإنجليزية لما تحتويه من دوائر وانحناءات واستطالات)، قطعة نقد من فئة السنت عليها صورة إبراهيم لينكولن، قلم رصاص أصفر HB2 (تم بريه حتى عقبه، ممحاة وردية اللون لم تمس)، مجسم صغير فضي لمبنى إمباير ستيت، غطاء زجاجة كوكا كولا، غلاف شطيرة

برغر بالجبنه من مكدونالدز (بعد التحرير وفي مكان مميز من شارع
الخليج شيد أكبر مطعم مكدونالدز في العالم في بناء كالقلعة يشع
بأضواء النيون)، خيط بطول ثلاثين سنتيمترًا لتنظيف الأسنان،
ريشة صقريمكن أن تكنّي عن العقاب الرخماء (يُنقَدُ من الانقراض،
رمز للاعتزاز الوطني)، لعبة أناس صغار من فيشر برايس، على هيئة
طيار له رأس بني اللون يعلو جسدًا أزرق من البلاستيك (ستصدم
أمريكا لاحقًا عندما تعرف بأمر العبودية وتهتز قناعتها بفكرة
السعادة والفرح لدى الأمريكيين)، وملصق لشخصية ويني ذا بوو.
ملأت أمريكا الجزء الأيمن من الصندوق بقصاصات من الورق
سجلت عليها تعابير اصطلاحية أمريكية كتبتها بخط صغير كي
تحشر في الحيز الضيق الذي لم يتجاوز الـ 5x5 سم أكبر عدد منها:

Acapulco gold

ass in a sling

at first blush

between the devil and the deep blue sea

by the seat of one's pants

cock-and-bull story

fat of the land

flat as a pancake

for Pete's sake

get down to brass tacks

hard as nails

Indian summer

in the twinkling of an eye

into thin air
laughed my head off
lickety-split
lit up like a Christmas tree
lump in my throat
many moons ago
out of the blue
paint the town red
pooped out
scream bloody murder
sell snow to the Eskimos
square peg in a round hole
stars in your eyes
under my skin
the world is your oyster
zip it

كان هذا هو الجزء المفضل لدى أمريكا والأغزر. وكانت قد عاهدت نفسها عندما ترمي غرضًا من الصندوق أن تستعوض ببديل منه. لكن قلبها لم يكن ليطاوعها أبدًا أن تتخلى عن أي قصاصة دونت عليها ما جمعته من تعابير اصطلاحية. وإن أرادت أن تستغني عن واحدة فهي تمضي الوقت في التفكير والتلمي لتقرر أيها تمضي. اشترطت على نفسها أن يكون الحرف الأول من العبارة الاصطلاحية المستغنى عنها مطابقًا لأول حرف من العبارة المضافة. فإن استغنت عن «mad as a hornet» مثلًا فيترتب عليها أن تضيف «many moons ago».

وما إن تنتهي من جردها هكذا حتى تصنف العبارات القديمة حسب ترتيبها الأبجدي وتضعها في ألبوم طوابع ضخمة أسود بدا ككتاب سحر وطلاسم. أحبت أمريكا صوت حفيف الورق الخفيف الأبيض الذي يفصل بين الصفحات السمكية. كم أعجبت بقصاصاتها غير المنتظمة التي تباينت في الطول والحجم والملمس. أحبت المجلد كحبا للصندوق تقريبًا.

لم تأخذ أمريكا الصندوق معها إلى المدرسة يومًا رغم أنها كانت تصرف جُلّ وقتها هناك وهي تفكر فيه. أصبحت المدرسة بالنسبة إليها كابوسًا تمقته وأصبحت الهوة بين حياتها في بيت مريح وحياتها في المدرسة كبيرة جدًا، فالأول يحيطها بوسائط التواصل مع العالم من خلال القنوات الفضائية وبعدها الإنترنت، بينما عجت المدرسة بأمثال أبله ندى اللواتي تكاثرن كالعناكب بما يفوق الاحتمال، وبما إنها الأصغر والأعز والطفلة المنتظرة، فقد منحها والداها فسحة من الحرية تقضيها بين أدواتها المفضلة. كم شعرا بالفخر لما اكتسبته من معرفة باللغة الإنجليزية، «لأمريكية من فضلكما»، كما أكدت لهما باعتزاز مرة تلو الأخرى. كم شعرا بالإعجاب والدهشة معًا لقدرة ابنتهما أن تغرق لساعات طوال تشغل نفسها بأمورها الشخصية وتكرسها لمشاريعها الخاصة.

عشقت أمريكا القراءة. لم يكن في عائلتها من فتح كتابًا ما لم يضطر إلى ذلك، ولم يضطر أحد. فقراءة رواية أو قصيدة أو أي شيء خارج الصحيفة اليومية ما كان يخطر على بال. وحتى المدرسة لم

تشجع على ذلك فكل ما أريد للتلامذة قراءته هو القرآن الكريم ولا شيء غيره. وحدها أمريكا أدركت وبفطرتها أن القراءة تمنح الإنسان فرصة لتخيل عوالم أخرى من خلال الكلمات، فرصة لأن يفتح شق في جدار ما كان له أن يمتلكها من قبل. أدركت أن السبيل الوحيد لتعلم لغة هو قراءة كتب مكتوبة بتلك اللغة. عشقت أدب الأطفال واليافين الأمريكيين أمثال بيفيرلي كليري ولويس فترهيو وجودي بلوم. وجدت نفسها في الجاسوسة هاريت وشيلا العظيمة ونانسي درو. كانت تتوسل إلى إخوتها الأكبر سنًا أن يأخذوها إلى مكتبة العائلة في منطقة السالمية لتشتري كتابًا، وكثيرًا ما فعلوا.

ترك إخوة أمريكا السبعة أختهم الصغيرة في حال سبيلها فلم يضايقوها. كانت في صغرها مصدرًا لبهجة تفتقر إليها نفوسهم كأنها إحدى لعب الأطفال التي يقفز منها مهرج صغير من علبة بمجرد فتحها. كانوا يمازحونها بخصوص تعلقها بكل ما هو أمريكي وبالكتب وبكونها أنثى وصغيرة العائلة، لكنهم لم يُملوا عليها ما يجب أن تفعله أو تفكر فيه. أدركت أن تَصْرُفَ إخوتها هو الاستثناء لا القاعدة في محيط كمحيطها فقد أخبرتها صديقاتها عن إخوة يتدخلون في كل صغيرة وكبيرة. بداية، تمت والدتها أن تقولها كما قُولت هي في عهدا لتصبح مستقبلًا مثلها، جسدًا على شكل بالون ينتفخ ويفرغ ما فيه فلا يقدر على التحليق في السماء عاليًا كما يفعل طير أو طائرة ورقية. لكن فاطمة سرعان ما قررت

أن تترك ابنتها تختار الشكل الذي تود أن تكون عليه ومن بعدها الأشكال التي تفضلها. لربما وصلت الأم إلى هذا القرار كون أمريكا أصغر أولادها، ابنة لم تدع الله لقدمها لكنها استجابت هي وحدها لدعائها. جازفت فاطمة بهذا القرار الصامت وكأنها سمحت لأمر لم تتنبأ به أن يحدث. أما أمريكا فقد كانت ممتنة كالعسل لذرعي أمها وهما تحضنانها، لإخوتها، لوالد كالسيد روجرز وإن يرتدي دشداشة، لكل ما غمرها أهل بيتها به من حب ورعاية. ساعدها هذا على تحمل حياتها في المدرسة وإن بصعوبة.

عندما بلغت أمريكا سن الرابعة عشرة كانت كل واحدة من فتيات مدرسة البنات الحكومية ترتدي الحجاب. رؤوس مغطاة مُقَمَّطة من دون استثناء. تُدْخِل طفلة جديدة رأسها من شق الباب وقد غطته بالحجاب لأول مرة فتهرع إليها بقية الفتيات بالعناق والقبلات مباركات مهللات يسألنها عمًا أنار لها أخيرًا جادة الصواب. «حلمتُ بأفعى تلتف حول ساقيَّ وشعرت أنيأها تنغرس في جلدي. استيقظت من نومي وأنا أبكي. أخبرتني أمي بأن هذه رسالة من الله يذكرني بأن تركي شعري سافرًا هو ذنب عظيم. لقد صدقت. حان الوقت». لم يكن أمام معظم الفتيات ثمة خيار. منذ أن يبلغن العاشرة أو الحادية عشرة من عمرهن يجبرهن آبأوهن على تغطية شعرهن ليغرق في العتمة وينحسر النور عن جدائلهن الغضة إلى الأبد. بعضهن ارتدين الحجاب انسيافًا لأخريات فعلمن ذلك. البعض رضخ لمؤثرات خارجية كما تفعل المراهقات اللواتي

يتأثرن بما يشاهدنه على التلفاز من تدخين داخل الحمامات أو ممارسة الجنس من دون وقاية. والبعض اختار الحجاب إيماناً منهن أنه السبيل للحصول على زوج. تخيلن عيوناً سوداء تتأمل باستحسان قطعة القماش وتداعياتها الرمزية. تنساب الفتيات مع أنسام الهواء يرفلن بالشفيفون الملون الموشى بالترتر البراق. كان هناك أخريات، توهَّجَ إيمانُهن كجبنة الشيدر الحادة، غطَّين كامل الوجه بالأسود الأشد هولاً من النقاب. النقاب قصة أخرى، أصبح فجأة حدثاً رائجاً في كل مكان، يسمح فقط لعيون كئيبة بأن تختلس النظر من خلال شق في ستارة سوداء.

أخبرت فاطمة ابنتها بأن المنقبات كن أمراً نادراً قبل الغزو العراقي تواجدن في الضواحي البعيدة أو في الصحراء حيث يعيش البدو. «لكن الكويتيين كما يبدو يا حبيبتى التقطن الفيروس بعد تحرير الكويت». كانت أم أمريكا تسدل عباءة سوداء كِرداء الساحر على كتفها عند ارتيادها السوق أو زيارة الصديقات. لم ترتدِ الحجاب لأنه حسب قولها ليس عادة كويتية، على الأقل هذا ما كانت البلاد عليه عندما كانت شابة. «كانت الكويتية محتشمة يا أمريكا ولم تكن كالفأرة. لم نكن فئراناً في يوم من الأيام». تقفز أمريكا على سرير والدتها مرددة: «لسنا فئراناً! لسنا فئراناً! لست فأرة! أرفض أن أكون فأرة!» كان شعر أمريكا جميلاً كشعر أمها. أمواج من الماهوجني الشر تلاطم على كتفها. لن يجبرها أحد قط على تغطيته. شعُرها شعورها. كان يصلُّها بحب أمها الدافق ولم تكن لتخفيه.

حَتَّم عناد أمريكا عليها أن تتعامل مع نظرات معلماتها الحارقة وقسوة زميلاتها، ولم يكن الأمر سهلاً فقد كان يضنيها بل يتحدى في بعض الأحيان قدرتها على التحمل. تحملت لأنها عرفت أن الأمر لن يدوم أكثر من أربع سنوات أخرى ينتهي بالتحاقها بالجامعة. ستكون أول من يلتحق بجامعة في أسرتها وستدرس الأدب الإنجليزي الذي سيعررها. تمكنت من الصمود بفضل هذا الحلم وبفضل كتبها والقنوات الفضائية. تمت لو كانت سنين مراهقتها شبيهة ببتي وفيرونيكا، أن تذهب إلى السينما مع شاب في موعد، حفلات حول حوض سباحة، شعلة نار على الشاطئ، لعبة القارورة، بطاطا مقلية حارة، وشراب الرووت بير بالآيس كريم مع أفضل الأصدقاء في أمسيات أيام السبت. كانت لتتمنى أن تشاهد استعراض متجر مايسي السنوي يوم عيد الشكر أو مباراة كرة قدم في يوم خريفي بارد، أن تكون طليقة، حرة، بوجه مرفوع نحو الشمس، وأن لا تكثرث للآخرين. عرفت أن أمانيتها لن تتحقق، ومع ذلك فقد أقرت بأنها أوفر حظاً من كثيرات، لهذا تحملت وحدثها ومعاملة الآخرين المريعة لها، تحملتها لأن لديها صندوقاً تؤدع وحدثها فيه.

لم يكن صندوق أمريكا للأشياء الأساسية وإنما لكل ما يخرج عن المألوف وإن بقي في دائرة التمني. احتوى كل ما اشتتهه وتاقت إليه. بقيت بعض الأغراض في مطارحها شهوراً بل وحتى سنين. في أماكن أخرى من الصندوق عصفت تغيرات كبيرة. اختلفت الممتلكات، فالحلوى الحمراء، لايف سيفر، بُدِّل بها مزقة من جينز،

وواقٍ بنكهة الكرز. حدث التبدل بسرعة البرق. وكما يعزف موسيقي بارع عزفت على صندوقها بأنامل رشيقة تطير بين حجراته، تطوي هذا، تفرد ذاك، ترتب وتعيد الترتيب، تزيج من هنا وتسحب من هناك من دون أن تهدأ. صرفت الساعات منحنية فوقه تتفحصه من كل زاوية متأملة فيما يتلاءم وفيما يتنافر وإلى متى. حتى في بعدها عنه كان ذهنها قريباً منه تفكر فيه وترسم المخططات وتعد القوائم. بدت خرائطها كمسارات نجوم، أما القوائم فبدت كقصائد هايكو اليابانية. كان صندوق أمريكا ملاذها ومهربها، نافذة تُشرعُ عندما توصل أمامها الأبواب، واحداً تلو الآخر.

عندما تداعى البرجان تغير كل شيء. افترقت أمريكا بالك عن أمريكا بال. صار هناك شيء اسمه محور الشر وشيء اسمه إرهاب توارى خلف كل حجر. أصبح هناك ثنائي متضاد من «نحن» و«هم» لا يُقدَّرُ لهما قط أن يلتقيا. وقبل أن تدرك ما جرى، أصبحت أمريكا وحيدة. لم يعد اسمها مبعث بهجة للآخرين بل استحالة غضباً وحوارب معقودة. لقد كان صندوقها بوابة تقودها إلى مكان آخر، وقائمة مصطلحاتها صنارة صيد تُرمى في بحيرة أخرى وإن أكبر وأفضل. وبدلاً من زواج وأطفال، بدلاً من عمل رتيب في دائرة حكومية أو مصرف، بدلاً من حفلات شاي لا مكان فيها لاختلاط الجنسين، كان صندوقها وألبومها فرصة ارتحال وتوق طموح، تفاؤلاً وتهيوًا، فرصاً لتسلق جبال وتحليق بالمظلات. بعد أن انهار البرجان غدت أمريكا تدريجياً

كسترة تُغزل وتُنكث لتحل خيوطها كما يُحَلّ رباط حذاء رياضي كونيفرس عالي العنق ناصع البياض. كان عليها أن تقاوم الحجارة الثقيلة التي تشدها إلى الأسفل لتغرق، لهذا قررت أن تجمع أزرارًا لحجرة الصندوق التي كانت تضم ثلاثة ألواح من حلوى التوتسي الأمريكية. أزرارًا بيضاء كالأشباح وأخرى وردية غائمة، أو رمادية داكنة، أزرارًا بلون الآجر المشوي الأحمر والمزيد منها بلون بني محروق مصفر، أزرارًا بلون الجلد الباهت، أزرارًا للمساحات الفارغة، لشيء يُفتقد، لمد الأذرع في محاولة الخروج والانتشار من دون أن تدرك أين وكيف ومتى. أبقاها بحثها عن الأزرار الملونة المناسبة في حالة هدوء نسبي طوال فترة دراستها الإعدادية إلى أن بلغت السابعة عشرة من عمرها وسمعت بحزام النار حول بغداد.

عكست العراق الجانب الآخر لأمريكا. فهي قد حصلت على اسمها بسبب العراق وبسبب أمريكا أيضًا وإن بطريقة مغايرة لكل منهما، بعيدة عن الأولى قريبة من الثانية، بالرغم من الأولى ونتيجة للثانية. لم تكن في بداية نشأتها تفكر كثيرًا في بلد اسمه العراق أو في مواطنيه. ارتبط اسم صدام حسين في ذهنها ببيع أو غول يُختبئ تحت السرير بأصابع نحيلة طوال خضراء اللون تنتظر اللحظة المناسبة لتقبض على كاحلين غافلين. لم يكن صدام يجسد الموت لها. لم يكن تهديدًا يتوعد، ولا جيوشًا تتقدم ولا دبابات تزحف نحو طريق الدائري الخامس ولا حرائق تندلع كنار جهنم. لم يكن

رصاصات تهشم الرؤوس ولا بيوتاً تُهدم، على الأقل ليس بالنسبة إليها. لم تكن تعلم أن صدام دفع والدها إلى البكاء لأول مرة في سنيّ كهولته، وأن والدتها جثت على ركبتيها الواهنتين لتحضن رأسه بين يديها تكفكف دمعاً لم تعتد رؤيته، وتواسيه لغرابة موقف غلبوا فيه على أمرهم والتهموا كلقمة سائغة بين ليلة وضحاها. أراد أحمد وفاطمة أن يُجنّبا برعمهما المتفتح الصغير ذكرى الفقد ويبعدا عنها شبح الخوف. لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة إذ سكن في أعماق اسمها يعلو صارخاً بفارغ صبر أو يهمس بقلق. لم تغادر العراق أمريكا. لم يغادرها صدام. لم يغادرها الخوف. أصبح اسمها متاهة للذكرى، نملة تمرر الخيط في قوقعة. كان هناك شعور بالفقد، عميق حاد يجترح أجسام الأسماك، ريش طيور ملتصق بشمع يذوب في أشعة الشمس.

لطالما شعرت أمريكا بحياتها تنبسط أمامها كصندوقها. كانت أمريكا عذراء وإن لم تكن لترغب في ذلك. تمت لو كان في مقدورها أن تفتح وتتوهج بين ذراعي شخص ما. وكلما فكرت في الجنس تخيلت نفسها على متن طائرة أو في فسحة مطار. تمثل في ذهنها مطار لوس أنجلوس الدولي أو مطار جون ف. كينيدي أو مطار أوهار، وفي بعض الأحيان استحضرت مطار فيوميتشينو في روما أو مطار شارل ديغول في باريس. تخيلت نفسها وهي تحمل صندوقها بيد وعلى ظهرها حقيبة من جان سبورت. عندما تفكر أمريكا في صندوقها تشعر بجسمها حرّاً طليقاً. طالما حلمت بأن

تنتهي إلى ذاتها وحدها، أن تكون وحيدة ولا تخشى الوحدة. تخيلت شعور التوهج. في سن السابعة عشرة أصبحت أمريكا مستعدة لأمر ما يحدث لها، لجسدها، ولصندوقها. وعندما وجدت نفسها تُقَحَّم داخل محور الشر وإلى أعماق مثلثة الشرير، تُحْتَقَرُ وَيُبْصَقُ عليها بعد كل ما مضى من زمن، قررت أن تنتظر. لم يحن الوقت بعد. أجبرت جسدها أن ينسحب عائداً إلى قوقعته، أن تتوقف النملة عن الدوران لتسحب الخيط بكل جد وعناية. توقفت عن ترقب ما تكون عليه رائحة المحيط الأطلسي. كانت تجد في أمريكا بوصلة تشير إلى موطن يمتد من بحر إلى بحر ساطع. لكن أمريكا بدأت تلفظها الآن وكان عليها أن تترث وأن تتوقف قبل أن يُنْكَثَ كُلُّ شَيْءٍ ويصبح عدماً. انتظرت أمريكا حابسة أنفاسها.

وجاءت الحرب. حرب ليست حربها هي على وجه الدقة، ولا حرب بلادها على وجه الدقة، وإن كانت حربها وحرب بلادها على غير وجه الدقة أيضاً. ها هي، الحجارة الثقيلة تجرّها إلى الأسفل، وها هو جسدها صافٍ كاللحظة التي تسبق التحليق، ولن تمتلكه ثانية أبداً. نُصِّح الكويتيون بعدم مغادرة منازلهم وبغزل نوافذهم بوضع شريط لاصق عليها وصفائح من البلاستيك، فالوقت لم يعد يسمح بتأمين أقنعة ضد الغازات السامة. ستكون هناك سيمفونية من صفارات الإنذار، أصوات هادرة، وتدافع مجنون إلى الغرفة الآمنة وتعرق ولهاث وعطش. وسيكون هناك مناورات لتفادي صواريخ سكود تأتي من العراق إلى الكويت بسبب أمريكا. مرة

واثنتين وثلاثًا تتزاحم أسرة أمريكا لتحشر أجسادها كحبات تمر في صندوق. لكن الوالد قرر أن يتجاهل عويل الصافرات وألا يغادر مكانه فقد بلغ السيل الزبى ونفذ صبره. أراد أن يأكل وأن يصلي وأن ينام بسلام وأمان.

خلال انطلاق صفارات الإنذار كان أفراد الأسرة يحدقون معًا إلى شاشة التلفاز، تظهر كلمات وامضة تنبئ بـ«خطر داهم»، وبعدها وبكل غرابة، يظهر باغز بني، الأرنب الكرتوني، ليقول جملة الشهيرة: «أنت تدرك بالطبع أن هذا يعني الحرب!» استمّعوا إلى إعلان قناة السي إن إن في أن ما سيأتي هو «الضربة القاصمة». ترامت إلى أسماعهم عبارات مثل: «صدمة ورعب»، «أشعلت آبار النفط في الجنوب»، و«حزام النار».

أمضت أمريكا معظم الأيام الأولى من الحرب في غرفة نومها تتمدد على الفراش قدر وسعها، باسطة يديها ورجليها تصيخ السمع لصفارات إنذار تهدر بصوت مهيب لا يتوقف المرة تلو الأخرى إلى أن تنطلق صفارة الأمان. بدا الوقت معلقًا واهنًا، دودة صغيرة وأسد أمريكي. أبقت صندوقها وألبومها إلى جانبها وهي تصر ألا تنسى وألا تسمح لعويل الصافرات أن يمحو كل شيء آخر. فكرت في ذهب أكابولكو وأن تشتعل كشجرة عيد الميلاد. أرادت أن تتذكر زمنًا كانت فيه تضحك حتى يسقط رأسها، زمنًا كان فيه العالم محارة تمتلكها.



في الليلة التاسعة من الحرب تقرر أمريكا أن تذهب في جولة قصيرة على الأقدام. هناك منع تجول وهي تدرك ذلك جيدًا. تنتظر حتى يخلد كل فرد من عائلتها إلى النوم (كما عندما تطفأ الشموع بعد كل حفلة لم يقمها والداها قط، ولم يكن في نيتهما أبدًا إقامتها، حفلة حلمت هي بإقامتها يومًا ما تستقبل فيها الضيوف مرتدية ثوبًا فضيًا). تغادر المنزل. تلج ليلاً مخمليًا ما زال فيه كل شيء ممكنًا. يغدو الطريق ممشى متحركًا، البلد مقفر. لم يكن مقفرًا هكذا في يوم من الأيام، مطار يعبد بشيء آخر بعيدًا عن محور الشر، بعيدًا عن الحرب، بعيدًا عن المرارة وعن السقوط، السقوط، السقوط بأجنحة منهكة ذائبة. تمشي وقد ارتدت تنورة زرقاء ذات ثنايا وسترة رمادية بقبة على شكل حرف الـ v، تحمل صندوقها بين ذراعيها المشرعتين. يبقى ألبومها زاخرًا بقصاصات عباراته الاصطلاحية، كفتات خبز يرشدها إلى البيت ثانية. تهجع البلدة مستكينة متحجرة تحت أضواء شوارع صفراء بلون الكهرمان. الطقس بارد في أواخر شهر مارس في الجو الصحراوي الشديد القلب بين ليل ونهار. تطوف بالشوارع المستوحشة كأن قوة مغناطيس تجذبها. تتوجه نحو أطراف المدينة، نحو الشيطان والبحر العميق الأزرق. تنساب سيارات الشرطة وتمرُّ شاحنة رُكَّب على متنها أجهزة الكشف عن الأسلحة الكيميائية فراح يرتج مع اهتزازات دورانها. تُصفر أضواؤها الملونة وهي تلعق الهواء.

لا أحد يرى أمريكا. لا أحد يبحث عن فتاة تمشي في الظلام تحمل صندوقًا بين يديها وتعتقد وشاحًا أحمر حول رقبتها. تغدُ

السير وتتحرك دونما تفكير كبير وتشعر كما لو أن جسدها ينشُد
كالجزر نحو البحر. تقف عند لسان أسمنتى انتهك رقعة من البحر
تراكبت فوقه الصخور. تصل إلى الشط المبتسر الذي بني فوقه
ماكدونالدز في فترة لاحقة. ترقص على الشاطئ وتحاول أن تتخلله
كما كان يومًا، طويلًا وممتدًا. تستحضر إيكاروس في مخيلتها، جزيرة
إسكندر، كاملة مكتملة تطفو على أزرق فوسفوري متألّق، تتوجها
أمواج ناصعة كالثلج، رقعة لم يسقط فيها الأبناء بعد.

تجذب أمريكا صندوقها نحوها وتمعن في الرقص، تنسج الرياح
من شعرها شرائط من الدانتيل. تدور وتثني وتركل قدميها في
الهواء متذكّرة حرف الك وهو يثب في كيانها. تتوقف لاهثة لتلتقط
أنفاسها. تجلس على الشط تستشعر الرمل، حبيبات بلورية متكسرة
ترك علامات على فخذها. تقترب أمواج باردة من أصابع قدميها
من دون أن تجرّو على لمسها. تستكين يدها اليمنى فوق الصندوق
الهاجع إلى جانبها، تعبٌ من الهواء ما تستطيع رثتها أن تحتويه. يهدأ
طرفها قليلًا لدقيقة ليس أكثر. تفكر في كتل ثلجية وفي أشجار تتفجر
بالأحمر في فصل الخريف، وباستعراضات، وبحفلات سَمَرٍ يُعدُّ فيها
طبق المحار. تفكر في آرثشي، وفي الغزل على شاطئ البحر. تفكر
في السقوط، في الجلد الباهت، في الوردية الغائمة. تفكر في الأحمر
كالأجر المشوي والبني المحروق المصفر وبأعمدة رمادية داكنة.

عندما تفتح عينيها ترى نجمًا هاويًا يتجه نحوها. تبسم. تلتمع
النجوم في عيني. تطرف بعينيها. يستمر النجم في توجيهه نحوها.

تطرف مرة أخرى. من حيث لا أدري. لم تنطلق صفارات إنذار. مجرد نجم طافٍ يتجه نحو الشاطئ. في غمضة عين. ستعلن قناة السي إن إن عن «صاروخ أرض أرض»، ستشير إلى «صاروخ مختل»، إلى «صاروخ دودة الحرير الصيني»، «صاروخ انطلق تحت مدى شبكة الرادار». إنه الصاروخ رقم ثلاثة عشر، الوحيد الذي يصيب. تفكر: تلاشى في الهواء. تلتقط أمريكا صندوقها، تودعُ قبة عليه، تبتعد عن النجم المتحرك وتقاذف الصندوق بعيداً عنها قدر الإمكان. تسمع انفجاره على الرصيف. تسمع انفجارها هي. في البلدة على حل شعرها.

عندما وصلوا وجدوا صندوق أمريكا وقد تفحم بما فيه ولم يبين منه شيء. وجدوا آثار أقدام حذاء خفيف ورقصة خفية على طول الشاطئ. وجدوا بقايا الفقد وانتصار الغضب. وجدوا آثار إسفين مربع في ثقب مستدير ونهاية المستقبل. صندوق أمريكا، أمريكا، نجمة فرقة راديو سيتي المميز، لا للفأرة، لا للشر، تلاشى في الهواء وتطير، كطائرة ورقية.

لك أن تتخيلها ككائن حي يتنفس. قُبّة تشابه ظهر حوت فيه بعض انحناء، تغطي مساحة تزيد عن 20,000 متر مربع بقليل. لها جلد من غشاء أبيض مرن يُنحّي أشعة شمس لا نهاية لها، ثابت وراسخ أمام زوابع رمل لا تفتر، لا تزعزع عصفه إثر عصفه من ريح حارقة. يندفع الهواء إلى داخلها فيضخ فيها الحياة بنبضات قوية ومنتظمة تبقي بمعجزة قوسها معلقاً مشدوداً. سرعان ما أصبحت هذه القُبّة شرنقتنا المألوفة. في بداية الثمانينيات عندما شيدت القبة لم يكن لدينا أي فكرة عمّا يمكن أن تكون عليه. قيل لنا إنها «الصالة الرياضية الجديدة» وإن لم نكن سمعنا من قبل بجيمينازيوم داخلي. كنا معتادين على دروس الألعاب الرياضية في الهواء الطلق. في عنفوان الصبا والشباب لم نكن لنكترث للطقس الحار أو نسمح له بأن يُكبّل رُكبتنا كما هو الحال الآن. لم يكن يضايقنا أن نقذف بأجسامنا الرشيقة رشاقة العصافير في الهواء وقد كساها الغبار والعرق. لم تكن لتخطر على بالنا يوماً فكرة صالة داخلية نتدرب

فيها ونمارس تماريننا الرياضية. في صباح أحد الأيام استرعى انتباهنا وجود حفرة مستطيلة الشكل سرعان ما تشكل فيها حوض سباحة تلاً بأبعاد شبه أولمبية. في يوم آخر شاهدنا الأرض المحيطة بالمسبح، وأخرى إلى يمينه بحجم ملعب كرة سلة على الأقل، وقد كسيت بسطح أحمر قانٍ رسمت عليه خطوط صفراء تدل على شيء مهم من دون شك. في الزوايا، رُكِّبت فيما بعد أبواب دوّارة من الزجاج والمعدن -كأنها أربعة من الحراس في وضعية التأهب- وبين الأبواب فتحات تهوية ضخمة أو مضخات. لم يكن هناك ما يشي بغطاء أبيض سميك قادم سينسدل فوق المستطيل الأحمر كبقايا جلد سلخ عن عملاق أو اثنين. لم يكن لنا أن نتخيل منظر ذلك الجلد الأبيض وقد نُفِخَ فارتفع عاليًا إلى فوق وتشكّل على هيئة نصف فقاعة ذات أبعاد مهولة. صالة ألعابنا الرياضية الجديدة.

يومها كنا أطفالاً أشقياء، نشأ معظمنا وتنفس وعاش في ظل فقاعة تحمينا بدفئها ورعايتها، تدفع الخوف عنا، تهدئ شعورنا بالذنب، تشرع الأبواب مفتوحة أمامنا، تزرع الثقة في نفوسنا ولو ببراءة شبه مواربة. المهم أنها كانت تعدّ بخيارات عدة: تتراءى أمامنا إن شئنا ملايين لا تحصى لما يمكن أن نكون عليه في حياتنا المقبلة، فرص لا تهدأ تتجلى في تزامن لا يستكين. ستدوم هذه القلعة المشرّبة نحو السماء لمدة عقد من الزمن، ومع ذلك، ما كان لنا آنذاك، في فترات الراحة الصغيرة التي سرقناها وعشناها في مكان ما، أن ندرك أنها كانت سرابًا أو مجرد سحابة عطّرة. أن

فقاعتنا البيضاء سرعان ما ستنفق، وستقذف بنا إلى تلك الفسحة
البنية المغبرة التي كانت دائماً مرابعا.

~

نور الأشياء الخفي

تغمرنا الدهشة ونحن نرقب السكينة التي ارتسمت على وجه
أما وهي تدلف من الطائرة وقد وقف رئيس وزراء بلدنا الصغير
منتظراً كي يحییها. لا شيء يخیفها. لا رئيس الوزراء، ولا البرلمانیون
الذین تدافعوا لأخذ صورة تذكارية معها، لا سرب الإعلامیین
المحموم، ولا حتى نحن أيضاً. بدت الأشياء لزينة متداخلة وكأن
واحدھا ینسلُ فی الآخر متماهیاً متماثلاً معه.

أما نحن فقد تجلی كل شيء أمامنا واتضح كما لو أُطرب خط أسود.
نشیر إلى سماء فولاذية قليلة الغيوم. نفسر قلتها بأنه علامة، دلالة،
نحن الذین أمضینا السنوات العشر الماضية نقرأ ونفسر الدلالات،
لا غرابة أن نغرق اليوم أيضاً، يوم إطلاق سراحها، فی فیض منها.
تخط العصافیر بحذر وهي تناور كي تتوازن فوق آلات فرقة الجيش
الموسيقية التي جُلبت للاستقبال الخاص. یتراءى طرف قمر عنید
تردد فی الغیاب فأرجأ البزوغ إلى لیل آخر. أما الأمر الأكثر إدهاشاً،

لمن يقطن في بلد نفطي كالكويت تفوح فيه الأبخرة الكبريتية، فهو تلك النسائم المحملة برائحة القانيلا.

لا يعلق أحد على شعري الأبيض المقصوص أو جلدي الذي رق كالورق، لا يلحظ أحد الأنفاس السريعة التي كنت أغترفها وأنا أتدبر مواقع قدمي على سلم الطائرة. كل ما لاحظوه هو قناع الهدوء الذي أسدلته على وجهي والسكينة التي درّبت نفسي عليها. لا يمكنهم سماع دقات قلبي المضطربة أو تلمس عظامي الهشة. قليلاً ما كنت أراه وأسمعه، فألات التصوير تومض أمام عيني، والميكروفونات تحشر قرب أنفي، والأيدي تمتد نحو يدي. برفق أعانق بناتي الثلاث، ثلاث نساء مذهلات، وإن بدون شبه غريبات عني. أعانق زوجي كريم الذي ترك السن بصماته على جفنيه فتغصّنا، كجفنيّ. أرفض أن أتخلّى عن كيس الخيش الذي كنت أحمله فهو الشيء الوحيد الذي امتلكته طوال عقد كامل من الزمن. تحيط بي رائحة الكعك الأبيض، وأتساءل في نفسي كيف تدبروه.

هناك علامات تجلت يوم وصولها. نتفق على أن الغيوم والعصافير والقمر والقانيلا إن هي إلا بشائر المعجزات، سلسلة من أمور مستحيلة تنبئ بأن المستحيل ممكن وها هو قد كان. نصل إلى البيت، تأخذ حمامها، هو الأول منذ عقد من الزمن، بينما نسترجع نحن تلك الإشارات الأربع، نتداولها مطوّلاً فيما بيننا

مفسرين دلالاتها. ها هي في حمام والدنا، حمامهما، تغسل دَرَنَ عشر سنين من الأسر. في إمكاننا أن نسمعها.

ما الذي كنا نتوقعه؟ لا أدري. الليلة التي سبقت وصولها كنا قلوبًا تخفق وتنتشي معًا. أما والدي وأختي الأصغر، ياسمين، فقد فاضا بهجة وجوعًا. لم تُشبع معدتيهما أطباق مطبقة من الطعام. عكسي أنا وشقيقتي الأخرى، غصون، فقد كنا على غاية من الاضطراب لم نفلح معه أن نبقي في جوفنا حتى ولا شربة ماء. همسنا قلقًا بعضنا لبعض خوفًا مما قد يكون أصاب والدتنا من ضرر وهي أسيرة حرب لعشر سنوات. هل حُرِمَتْ من الطعام وجاعت؟ هل عذبت؟ هل ما يصيب النساء خلال الحروب قد مسّها أيضًا؟ هل ما تزال الأم التي تطبع قبلة على ضهاد أصابعنا؟ لقد كبرنا الآن على ذلك. عندما اعتُقلت زينة، كانت ياسمين في العاشرة فقط، في سن لم تزل تحتاج فيه إلى تلك القبلة التي تطبع على ضهاد الإصبع. في غيابها كان جل ما تذكرناه هو تلك القبلات. كم كنا مستعدين للقيام بأي شيء مقابل أن تلثم شفاتها وجناتنا وشعرنا وجلدنا المتشقق. لسنين عشر غدت تلك الرغبة جرحًا، قرحًا يحفر في أحشائنا. أن نحظى بقبلاتها. أن نسمع صوتها في الصباح وهي تغني. في تلك الليلة التي سبقت عودتها تساءلت غصون التي بلغت الآن الخامسة والعشرين، كما تساءلت أنا، من بلغت الثلاثين، إن كانت أمنا ستبقى نفس المرأة التي توقظ أبناءها بالغناء، وشعرنا بالذنب لمجرد التساؤل.

لم نتوقع قناع السكينة ذاك. أردنا دموعًا وابتسامات تشرق
بها غمازات وجهها. أردناها حين نعانقها أن تعانق حنايا القلب
والروح فينا. نتعلق بأهدابها ونتذكر كيف كانت هي تَفْعَل نفس
الشيء كل مرة غادرنا فيها إلى المدرسة أو النادي الصيفي أو لزيارة
أبناء العمومة في أماكن تنأى عنها. كم شجعتنا ونحن صغار لم
تتجاوز أعمارنا الثانية عشرة أو الخامسة عشرة أن نستكشف العالم
لنستشف استقلالنا ونتعرف على ما نمتلكه من قوى ذاتية تماثل
قوتها واستقلاليتها. يختلف الأمر في المطار حين يأزف وقت الوداع،
تتمسك بنا وكأن غيابنا سيمتد دهورًا، أو كأن الطائرة ستهوي بنا.
نتململ ضيقًا، بل تقسو قلوبنا في لحظة اللامبالاة الطفولية. تنتظرنا
مغامرة ركوب طائرة! رحلة تزلج على الثلج! جامعة نلتحق بها!
لا تسعنا الأرض لنهرول راكضين مبتعدين. سريعًا ما ننسى عناق
الوالدة، وتصبح عيناها اللتان تفيضان بالدمع محطَّ تَنَدُّرنا المحب.
انقلب الأمر الآن. أصبحنا نحن من يتمسك بها. نحن من يذرف
الدمع. نحن من يخشى أن تتلاشى في الهواء. تُقْبَلُّنا بالمثل لكنها لا
تبكي. لا تتمسك بنا، وإن نتمنى لو تفعل.

يصبح الاستحمام طقسًا متكررًا، أربعة منه في الساعات الأربع
التي تلت مغادرتها الطائرة، ومرة كل بضع ساعات في الأسبوع الأول
من عودتها. بين الواحد والآخر نجتمع لتسائل فيما بيننا إن كانت
سعيدة لعودتها إلينا. هل تبدو حزينة؟ خائفة؟ غاضبة؟ لا هذا ولا
ذاك يصفه. بل لا نجد كلمة واحدة تتسع لما نعتقد أننا نراه أو ندركه.

نراقبها خاصة عندما نظنها مشيخة بنظرها عنا. نرقب كل رعشة من جفنها، كل إيحاء تصدر عنها، كل تعبير ينضح به وجهها. أهو أمل أم قلق أم يأس؟ في اليوم الثالث تقرر ياسمين أنه «التحدي»، نعم، هو ذا الأقرب إلى ما هي فيه. نكاد نجزم بذلك. متحدية هي من غير مرارة، من غير ندم ظاهر. يكفيننا ما عانيناه نحن من ندم وأسى يمكن أن يملأ جوف حوت أو كوكباً أفرغ من داخل. لن تتمكن أبداً من أن ترى وتسمع وتحيط بكل ما فاتها. لكننا نعرف أن كل ما نريد أن نعرفه هو ما يدور حولنا نحن، حيواتنا، ما قمنا به فيما مرّ من سنين، لا حياتها هي. ندرك أنا نيتنا، ونستشعر الندم يلفنا بحباله.

طوال ذلك الأسبوع نتجنب الحديث عن محتتها، وكذلك تفعل هي. نتركها على سجيته فلا نلح في السؤال. نفضل أن نحترم خصوصيتها ونهبها الوقت الكافي لتأمل فيما حصل. لم يكن هناك من يقدم المشورة إلينا، وعلى أي حال لست متأكدة إن كنا لَنُصِيتُ إلى أحد. كم رغبتنا أن نبني سياجاً حولها. لا معالجون نفسيون، لا استشاريون، لا اختصاصيون. لم يحرمنا السياسيون بالطبع من طلعتهم البهية، إن شيء فلا لتقاط الصور وتصدّر عناوين الصحف وضمان الأصوات الانتخابية أملاً في أن يفلح تظاهرهم بالإخلاص في التغطية على إخفاقهم الذريع في حل مشكلة أسرى الحرب. ولم يكن هناك بد من حشود الأقارب والأصدقاء الذين تقاطروا على منزلنا لتقديم التهاني. نراها تجفل، فنتمنى لو كان في وسعنا تسديد

صفعة تبعدهم أميلاً عنها. إخوة طيبون، حسنو النية، وأخوات جزعات قلقات. تعانقهم جميعاً وإن لم تكن يوماً على علاقة لصيقة بهم. في اليوم الأول يمضون معها بعض الوقت، يعودون في اليوم التالي، ويكاد يغيب معظمهم في الثالث. يعدون بزيارة قريبة، باتصال هاتفي. لم نرهم طوال السنين العشر الماضية. لم نتوقع زيارتهم، وإن كان الأمر لدينا سيّان. ولكن أحداً، لا السياسيين، ولا الأقارب، ولا الأصدقاء، كان قادراً أن يرشدنا إلى ما يجب علينا فعله حين تعود.

في الأسبوع الأول نحاول الحديث عن أنفسنا. تبدأ غصون لتروي أحداث حياتها كمن يقلب كتاباً صفحة إثر صفحة. زواجها. عملها. سعيدة كما تتمنى أمها. زوج صالح. عمل جيد. لا أطفال حتى الآن، لربما في المستقبل القريب بعد سنة مثلاً. أنا، جنان، أعقبها في السرد. أحكي عن حياة أحاول ولو ببطء أن أنصرف فيها إلى الكتابة. ياسمين، لا تزال طالبة على وشك أن تتخرج. تجلس بنات زينة الثلاث يبسطن أمامها حياتهن كي تراها، يانعة، صافية، متفائلة، فيُغفلن ما شابها من سوء. وحده والدنا، ذاك الرجل المنكسر، يعجز عن إزاحة القماط عن أحزانه ليكشفها ويرويها. تستمع وتراقب من دون أن يهتز قناع السكينة على وجهها. تصغي بصمت مطبق بينما نثرثر نحن كطيور تسقسق كي نملاً سكوناً كان على صوتها أن يسكنه. لقد تعودنا فعل ذلك. في غيابها تعلمنا كيف نُحدّث أنفسنا بصوتها. نتساءل إن كانت ما تزال تتحدث بهذه الطريقة، إن كانت

لا تزال ترى الخير في كل شيء. كم كرّرت دائماً أن «الحظ سيجد طريقه إليك». نتساءل إن كان ما رويناه لها هو فعلاً حصيلة عشر سنين طوال. الزواج. العمل. الشهادات الجامعية. وهل يمكن أن نلخص لها ما بذلناه كي ننجز ما أنجزناه؟ أو أن نخبرها كيف كان كلُّ فرح يتسرّب بالحزن. كيف نشرح لها كم أمضينا من سنين نتبادل فيها الآراء قبل أن نتخذ قراراً بقبول عرض زواج أو عمل؟ كيف كان كلُّ رأي وكلُّ قرار يمرُّ عبرها. نعتقد أنها تعلم ولا بد.

بدا الأمر وكأنَّ أمنا تعود إلينا من عالم الموتى. عندما تم القبض عليها بداية، كنت أستيقظ كل ليلة في حالة من الهلع تتملكني الرغبة في أن أنطلق إلى الشوارع بحثاً عنها لأجدها وأعيدها ولأخو هذا الرجس الذي أضاف سواداً إلى سواد حياتنا المثقلة. بقلب خافق أستعيد أحداث ذلك اليوم بتفاصيله، نقطة بنقطة، كمعادلة لعينة لا يمكنني حلها. استيقظت فجراً. صلّت. نزلت إلى المطبخ لتعد لنفسها فنجاناً من القهوة. أخذت قهوتها إلى غرفة الجلوس. هناك وجدنا فنجانها لا يزال ساخناً. لا بد أن شيئاً ما دفعها إلى التوجه نحو الباب. لو كان جرساً لكنا سمعناه. لو كان قرعاً على الباب للاحظناه. شيء ما جعلها تترك قهوتها على الطاولة وتمشي تجاه الباب. لم يكن من المفترض أن تفعل ذلك. فقد كان من المبكر أن يشعر أحدنا بالأمان والشوارع على ما هي تضج بالجنود المنسحبين، وبأبطال يافعين معفرين يبحثون عن المجد بأفواه البنادق. لم يكن قد مضى على تحرير الكويت سوى أسبوع واحد، وكان فتح البوابة

الأمامية للبيت لا يزال أمرًا غير مألوف. ظننت أن والدتي، وقد ضاق صدرها من قرابة سبعة شهور من الحبس بين جدران البيت، رغبت في ممارسة حقّ استعادته فورًا في أن تخطو إلى الخارج، أن تبقي الستائر مفتوحة، بل حتى أن تشرع نافذة على مصراعيها. نعم لم يمض سوى أسبوع واحد لكنه كان كافيًا لنستعيد سريعًا عاداتنا القديمة. عجيب أمر هذه الأجساد كيف تنسل مجددًا إلى مكان من راحتها ومسراتها الصغيرة. لا بد أن والدتي بعودتها إلى طقوس قهوتها ولحريتها المسترجعة قد سمعت شيئًا ما، ولا بد أنها نسيت أو تناست ما اتخذناه من احتياطات كانت كفيلة بإبقائنا سالمين طوال السبعة شهور الماضية: الأبواب الموصدة، الستائر المسدلة، الأنوار المطفأة، واللجوء إلى سرداب البيت. لم نجد رداءها الأبيض والأزرق. وكذلك صندلها الجلدي. شهر مارس وهي في ردائها الخفيف وصندلها الجلدي. لم تبرح صورتها هذه مخيلتي طوال عقد كامل. اشترت ذلك الصندل في اليونان. هناك صورة بالأبيض والأسود تجمعها ووالدي، أخذت من دون انتباههما وهما يهبطان من متن عبارة رست في إحدى الجزر اليونانية. لم يكن لهما بد من شراء الصورة عندما عُرضت عليهما فيما بعد فقد بدت فيها فائقة الجمال بشعرها البني الطويل وقميصها القطني الأبيض.

بعد اختطافها علّق والدي صورها في كل زاوية من زوايا البيت: صور زواجهما، صورتها وهي حامل، أو تحضّر حفلة أو مؤتمرًا أو عشاء بصحبته. صور والدتي وهي في الحديقة تطعم طيورها العزيزة.

منحت الصور والذي بعض السلوان لكنها أشقتني. لا يعني ذلك أنني أردت أن أنساها فهي لم تبارح فكري يوماً من أيام السنين العشر. نعم لم يمر يوم واحد من دون ذكرها. ولكنني، وحتى بعد انقضاء عقد من الزمن، لم أكن قادرة على النظر إلى صورها من دون أن أنزلق في هاوية الندم والشعور بالذنب. حاولت تجنب النظر إلى معرض الصور الذي أعده والذي على جدران المنزل، فما كانت بي حاجة إلى صور تذكرني بكل صغيرة وكبيرة تتعلق بها، برائحتها التي تشبه رائحة أزهار الفريزيا، بجلدها الناعم كالزبدة، وتلك الخطوط الرقيقة كالهمس تحيط بعينيها الشهاوين. وحين كبرتُ سنًا، كانت تسكنني ذكرياتُ قلقها وما كان يتتابها في حياتها من توتر جَهَدَتْ في إخفائه عنا. في ذلك الأسبوع الأول من عودتها، ونحن نتحلق حولها في غرفة الجلوس، لم يكن في وسعي أن أشيح بعيني عن صورة الجزيرة المعلقة خلفها. كان من الأسهل أن أصدق إلى الصورة لا إلى أمي وقد جلست أمامنا بلحمها ودمها. طيف يتهادى في قميص قطني أبيض في جزيرة من جزر اليونان، وصندل جلدي يغيب لعشر سنوات.

في الأسبوع الثاني من عودتها، تنام أمي نوم أهل الكهف. لا نستطيع إيقاظها مهما حاولنا جاهدين. تأكل مرة واحدة في اليوم عندما تستيقظ لتذهب إلى الحمام. لا تأخذ دُشًا. لا تنبس بينت شفة. تترنح كالمخمور، وقد أخذ منها التعب مأخذه. يتمايل رأسها ويستدير كلما ازدردت حساء باردًا أو شايًا مُحلَّىً بأكبر عدد من ملاعق

سكر أمكننا إضافتها. نهلع غير عارفين ما علينا فعله في غياب من يمكن تقديم النصح إلينا. أين هم الاختصاصيون؟ نتبادل الهمس في غرفتها من دون أن نتركها بمفردها في الغرفة ولا للحظة واحدة. هل هو انتحار بطيء؟ هل ستستيقظ ثانية؟ هل سترغب في أن تتحدث إطلاقاً؟ تستخدم غصون كلمة «صدمة» وتشير إلى «الخرس الطوعي». لا نستطيع أن نتخيل أننا وقد صمتت إلى الأبد.

لا أذكر أحداث الأسابيع الأولى من عودتي جيداً. أتذكر أنني كنت أحيط كيس الخيش بقدمي. أذكر رفضي أن تغسل غصون ردائي الأبيض والأزرق فقد كنت أريد ولو لبرهة قصيرة أن أبقى على رائحة أنسري. أذكر أنني كنت أغط في نوم عميق وعندما أعود لألتقط أنفاسي لا أفكر سوى في التسع الأخريات.

كانت أُمي قبل اعتقالها تضج بالحياة بل كانت محور كل ما يدور من حديث. حاورت وجادلت الغرباء عند الضرورة، ولم تتهرب من المواجهة قط، لكنها كانت أيضاً تتودد إلى نساء الحي في تجمعهن في دكاكين الفاكهة والخضار. تمزح مع الجميع وهي تسدد ثمن مشترياتهما في السوبرماركت. أحبّها أصحاب المحال التجارية حتى العبادة، وكذلك باعة الأيس كريم المحليين المتنقلين على دراجاتهم الهوائية ممن ابتاعت لهم كراسي تطوى ومظلات تحميهم من حرارة الجو الحارقة. في بلدنا الصغير المحافظ حيث ترتفع الجدران الأسمنتية لأكثر من ثلاثة أمتار تحيط بالبيوت محيلة إياها قلاعاً منيعة

عصية، كانت أمي حدثًا غريبًا خارجًا عن المألوف، منفتحًا وكريمًا في آن واحد. أحبها الناس لذاتها، لضحككتها العريضة، لأسنانها اللامعة. شعروا بالتميز حتى حين تؤنبهم، وخاصة عندما تشملهم في دائرة سحرها العفوي فقد كانت ترفع من شأنهم في لحظة، ولم ينسوا ذلك أبدًا. لو وُلدت في أي مكان آخر في العالم لكان يليق بها أن تغدو نجمة سينمائية. وحتى في كويت أواخر الستينيات كانت تُعدُّ برنامجًا تلفزيونيًا متميزًا لامعًا. لم نكن على علم بهذه الأمور إلى أن تم اعتقالها وأشارت إليها عرضًا إحدى الصحف في واحدة من تغطيات عديدة نشرت حول حادثة اختطاف المرأة التي أصبحت حديث البلد لفترة من الزمن. سألنا والدنا عن صحة الخبر فأكدّه. والدتنا، ملكة التلفاز، في سيارتها الألفا روميو سبايدر الخضراء، بثوب قصير يكشف عن ساقين ممشوقتين، وشعر بني يتطاير مع الريح. كانت صورتها كصوفيا لورين ثانية هي ما دفعت والدنا، كريم، وقد تخرج لتوه من كلية الطب في جامعة فيينا، أن ينتقيها بين الجميع لكي «أصنع قدري»، حسب قوله. كان يعلم تمامًا أسلوب الحياة الذي يبتغيه، وبنفس ثقة وعزيمة من تعلم الألمانية واللاتينية في عام واحد، سعى وراء ذاك القدر. أشياء كثيرة جهلناها عن زينة، أسرار اختبأت في جيوب الناس وتوارت في أشياءها الخاصة.

طوال السنين الخمس الأولى، صعب علينا النظر إلى أغراضها الشخصية فيما عدا ثيابها. بعد ستة أشهر من الغياب طلب والدنا أن ننقل ثيابها من غرفتهما، فقد كان يغويه فتح خزانها ليغترف ما تبقى

من رائحتها ولم يقدر على مقاومة ذاك الإغواء. كلنا فعلنا ذلك، فردًا فردًا، بعيدًا عن أعين الناظرين. إن كانت الصور أقسى ما يمكنني تحمُّله، فقد كانت رائحة أمي هي الأقسى لياسمين. لقراءة عام كامل بعد اختفائها، كانت رائحة ثيابها وداخل حقائب يدها وحتى أحذيتها تدفع أختي الصغيرة إلى أن تجهش في البكاء. كم عثرنا على ياسمين غافية في قاع خزائن والدتنا مخفية تحت طبقات من شالاتها وأثوابها أو على سرير من أحذيتها ذات الكعوب العالية. صعبت مواساتها، صعب ضمها إلى الصدر وطمأنتها. فلا عزاء يجديها. لربما ظنت أن لمسة منا هي فعل خيانة. لم تكن تسمح سوى لوالدنا بأن يحملها إلى سريرها الصغير. تتدلى ذراعاها النحيلتان فوق كتفيه بينما يهمس في أذنها ما لا يمكنني وغصون التقاطه.

يعترينا القلق من أن تشعر والدتنا بالغرابة في بيتها، من أن تجد نفسها خارج السرب. هي الوحشة والغربة والاعتراب *-unheimlich-* كما يؤكد لنا ولها والدي، هو المألوف وقد غدا غريبًا، المأوى الذي لم يعد يأوي الروح. حاولنا أن نبقي على البيت تمامًا كما كان عندما فقدناها. ظل كل شيء في موضعه باستثناء ملابسها التي أعدناها إلى مكانها بكثير من الحرص لما علمنا بإطلاق سراحها القريب. حفظنا عن ظهر قلب مواقع كل غرض في غرفة والدينا، في أدراجها، خزائنها، رفوفها، في غرفة الطعام، والجلوس، ومطبخها. كتب الطبخ وبخاصة كتاب بيتي كروكر. عقدًا من اللؤلؤ الكويتي أهدتها إياه والدتها. قلم الحمرة بلون «العاري» من ماركة كلينيك.

مناديل طرزت عليها الأحرف الأولى من اسمها. كؤوس شمبانيا بزخرفة يدوية. أواني زهر من براغ. كُتِبَ والدها التي تحمل عبق وشذى الهند. قبعاتها المصنوعة من القش. علب ثقاب جمعتها من مطاعم مختلفة. شالها الكشميري الناعم الذي ضُمَّ بأناقة عبر خاتم زواجها. علبًا لزينة الميلاد كُتِبَتْ عليها: «من ماما مع حبها العميق» والتي لم نمتلك الشجاعة يومًا على فتحها. أحجارًا غسلتها أمواج البحر من كابري. أساور من الفضة لمعصميهما كان لها جرس الريح. قلّبتنا بعض هذه الأشياء من وقت إلى آخر عبر السنوات الماضية باحثين عن أجوبة لم نكن لنجدها. حاولنا ألا نجهد أنفسنا في الإمعان في دقائق الأشياء التي أحاطت بغيابها. أردنا أن نفكر فقط في كونها حية، لا في ظروف حياة صرفتها بعيدًا عنا. أغرقنا أنفسنا في ألفة أشيائها. ولكن الآن وقد عادت، نخشى أن تكون أغراضها ومطارحها والحياة التي أجبرت على تركها وراءها لا تشي ثانية بذلك المسكن الذي سكنت إليه في الماضي، فكل ما فيه أضحى أليفًا وغريبًا معًا. قد تخيفها ألفة الأشياء فتجعلها تبصر ما درّبت نفسها، مثلنا، على تجاهله طوال السنين العشر الماضية من أجل أن تستمر الحياة.

المألوف الغريب، unheimlich. كان كريم محققًا في استخدامه هذا التعبير، مألوف غدا غريبًا. كان لكل واحد منا علاقة ما بذلك المكان الذي تغيب عنه النوافذ، الرمادي الذي لم يمسح عنه غبار، والذي ناب عن المأوى. كان عدّ الأغراض مأواي. ليس عدًا بالمعنى

المتعارف عليه. بل تسميتها، استعراضها، تصنيفها، سرد حكاياها، ومحاولة تذكر مواقعها المفترضة في بيتي. كنت أشرح الأمر لنفسى كما لو أنى أدل إحدى بناتي أو كريم عبر الهاتف عن موضع شيء أحجاجة كى يجده. «شالى الكشمير الرمادى. هل تذكر؟ الشال الذى اشتريناه فى رحلة شهر العسل من بائع ضرير أخبرنا أنه غزل خيوطه بيديه المعروقتين. هل تذكر كيف رفعهما أمام أعيننا تأكيداً؟ هل تذكر كم كنا فى مقتبل العمر، ولهذا ظنناه قد جاوز المئة ولا ريب؟ لربما لم يكن يتعدى الخمسة والأربعين. الشال فى الأدراج الموجودة إلى اليسار من غرفة النوم. فى الدرج الأخير تحت قفازاتى الجلدية». كم تخيلت نفسى أخطب جنان قائلة: «حبىبتى، إن رُحْتُ إلى الخزانة فى الممر، مدي يدك إلى أسفل الدرج الأخير وستجدي صندوقاً خشبياً مُطعماً. أما مفتاح الصندوق فستجدينه داخل سلطانية من الخزف فى درج الطاولة بجانب سريري. افتحي الصندوق وستجدين الخاتم الزمردي الصغير الذى أهدانى إياه جدك لأبيك عند عقد خطوبتي. كان هذا الخاتم الشيء الثمين الوحيد الذى أحضرتَه والدته معها من بلاد الجركس إلى البصرة أودعه والدها فى كفها قبل أن يبيعها لتاجر عربى باعها بدوره لجدك الأكبر. لكنه، وقد أخذ بجملها الأسطوري، فُصل أن يتزوجها».

غدت أغراضى الصغيرة سُبعة ابتهالات تكُرم، موئلي ومأواي لعقد من الزمن.



قبل اختطافها لم تكن أُمي مترممة في تدينها فقد كان ذاك التدين سمحًا رحبًا. كانت صلواتها كسمكة صغيرة ذهبية في بركة حديقة يابانية تحت جسر. صلّت خمس مرات في اليوم، لكنها لم تدخل مع أفراد عائلتها ممن كانت لهم أفكارهم الملحدة أو اللا-أدرية في نقاش حول ما تؤمن به. كان لها ما تؤمن به وكان لنا حر اعتقادنا ولم يؤثر أحدنا في الآخر. مع اعتقالها غدا للدين سمة أخرى فيما بيننا إذ أخذ يرفرف في فضاءاتنا كاحتمال جائز. سمعنا من أقارب تبرعوا بآرائهم أن من المفيد الخضوع لإرادة الله والتسليم بما جرى كأمر مرسوم ومقدر لها ولنا. في الأيام الأولى التي تلت صدمة اختطافها كنا لنقبل أي فكرة سحرية تُعرض، نقبل أن ندخل لا في عقد مع الله فحسب بل في تحالف مع الشيطان إن كان من ذلك أمل يرجى. لكننا سرعان ما اكتشفنا أن أيًا من كل هذا لن يعيد إلينا زينة. كان التسليم بعشوائية الأحداث مبعث راحة لا يوفرها مصدر آخر. فتركنا الأمر لما يجود به النرد. تساءلنا إن كان إيمانها قد منحها ما تنشده من ملاذ روحي أينما كانت، تساءلنا أيضًا ما إذا كان ما أصابها جعلها، على العكس، تفقد ذلك الإيمان.

كان الدين لسلمي ملاذًا ومرساة. أما أنا، فغياب الخصوصية، عشرةٌ منا حُشرن في زنزانة صغيرة لا تتسع لخمس، جعل اللجوء إلى الصلاة أمرًا عسيرًا. لكن هواجس كهذه لم تتبّ سلمى. فبينما كنت أفرغ قلقي في استرجاع قائمة أشياءي الخفية أكرها كحبات سبحة، كانت هي تردد بهدوء آيات الذكر الحكيم. لخديجة أسلوب

آخر، فقد وجدت في الغناء ضالتها. يفاجئنا في تلك الزنزانة صوتها الأجلش ينعشنا كما لو وهبنا فرصة حمام ساخن. كانت الأصغر بيننا لم تتجاوز سنيها العشرين، وما إن تفتح فمها للغناء حتى ينثال منه الخطر. انشغلت نور بالأرقام فتراقصت المعادلات الحسابية في مخيلتها. شغلت حنان نفسها بالبحث عن مزيد من الألفاظ التي تقرأ عكسًا وطرْدًا. أَلطاف وجدت في وصفات الطعام مهرَّبًا لها، فسردت علينا تفاصيل معقدة لوجبات تُقنا جميعنا إلى التهامها. والفن نال نصيبه من دلال إذ راحت ترسم على الغبار المتجمع فوق أرض وجدران زنزانتنا وجوهاً تعرفها. جمعت عائشة الحشرات وحشرتها في زجاجات بلاستيكية حصلت عليها من الحراس، الأمر الذي أفادنا في تقليص عدد حشود الصراصير والخنافس التي غطت المكان. عكفت دانا، الشاعرة بيننا، على انتقاء مفردات قصائدها، تُشاركنا بها حيناً وتحتفظ بها لنفسها أحياناً أخرى. وعندما يعنُّ لها المزاج تلقى على أسماعنا قصائد محمود درويش وأبونواس وأدونيس تسعفها ذاكرة فذة لا تلين. أما هالة فكانت شقوق الجدران شغلها الشاغل تتبع مساراتها وتقضي ساعات في تقصي ممراتها الدقيقة الملتوية أو تلك العميقة كوديان تفلق طوب الجدار فلقتين اثنتين. في البداية بَحِثْتُ عن منفذ ما يقودها إلى الحرية. لكنها، بعد مضي عام أو أكثر، أدركت، كما أدركنا، أن لا فجوة في الجدران السميكة. لكنها لم تتوقف عن البحث بأنامل رشيقة تنساب إلى الأعلى وإلى الأسفل، بينما يهتز جسمها الرشيق على أنغام غناء خديجة.

هكذا، كل بطريقة، جمعًا وفردًا، تمكنا من الصمود.

بعد أسبوع نوم، نطقنا والدتنا قائلة: «لم يحدث ما خشيتم حدوثه». علمنا تمامًا ما عنته. ذاك الانتهاك البغيض للجسد، وقسر الإرادة. توقفت عن الكلام ولم تزد. لم تنزل في سريرها، تحت أغطيتها، وإن لم تعد تنام كل الوقت. فجأة لم تعد تبدو هشة، ذاهلة، كالسابق. ياسمين على حق. فيها يتجلى التحدي. يقلقنا السؤال هل هذا تحدٍّ لم يفتّر لمن أسرها أم تحدٍّ لنا، نحن الذين انغمسنا في ذواتنا من دون كلل. لسنا متأكدين. كم نتمنى أن نصدقها، أن نعرف أنها لم تمس، أنها بقيت تمامًا كما كانت قبل أن تغادرنا، أنها لم تغتصب، لم يدنس أحد جسدها. لن نقدر أبدًا على تخيل الحدث، وكيف حدث كما يحدث عادة في الحروب. هل كانت هي الاستثناء في هذي السنين العشر؟ هل خرجت منها سالمة من دون أذى؟ نريد أن نصدقها وإن خامرنا الشك في أنها لا تقر بالحقيقة. نريدها أن تعلم أننا لن نتوانى عن الوقوف إلى جانبها مهما كلف الأمر، عن إعادة جسدها إليها وكف الأذى عنها. لم يكن أي واحد منا مستعدًا أو قادرًا. لكل ذلك لذننا بالصمت معظم الوقت.

صبيحة يوم اختطافي كان الصوت الذي سمعته والذي شدني إلى بوابة البيت بعيدًا عن فنجان قهوتي، هو صوت مخنوق لامرأة تحاول أن تلتقط الأنفاس. شعور داخلي جعلني أفضل عدم تحذير عائلتي، عدم الاندفاع نحو السرداب التماسًا للملجئة. كنت مخطئة،

كم يتتابني الندم ويكبّلني بحباله. دفعني ذلك الشعور إلى الذهاب وتقصي الصوت. ما رأيته عندما أشرعت الباب كان امرأة شابة تجثو على ركبتها وقد غطى رأسها كيس بلاستيكي شفاف وإن سميك. راحت عيناها المترعتان بالخوف، وقد جحظتا من الرعب، ترتعشان بآس أمام ناظري. يعلوها رجلان ضخما الجثة يشد كلاهما، كل من طرف، حبلاً لفاه حول عنقها. سمعت طقطقة. أزاح الرجلان الكيس. ولم أقدر أن أشيخ بوجهي عن وجهها. لم أتعرف عليها. هي ابنة لها أهلها وناسها. قبل أن آتي بأي حركة أو ردة فعل، انقض الرجلان عليّ وأقحما رأسي في الكيس ذاته. شممت لعابها، شممت خوفها. وانتهينا معاً، أنا والفتاة الميتة في صندوق سيارة كنت جازمة أنها مرسيدس مسروقة. كنت ممتنة لكون الصندوق فسيحاً.

لم يكلفا أنفسهم عناء تقييد قدمي أو يدي فنزعت الكيس عن رأسي ودفعت الفتاة المسكينة إلى ركن بعيد في الصندوق. بل استطعت أن أقتلع الضوء الخلفي بقدمي. في ذلك الأسبوع الأول بعد التحرير لم يكن في الحي من يمكنه ملاحظة ما حدث. صحيح أن الشوارع كانت ممتلئة بالبشر لكنهم كانوا من الصنف الذي يرتكب القبائح من سلب ونهب وانتقام من الأبرياء لا أن يعيروا ما حل بي اهتماماً. نهبت السيارة الصحراء نهباً. لا أدري كيف تمكن الرجلان من تجاوز القوات الأمريكية من دون استرعاء انتباههم، لكنهم فعلوا ذلك طوال الطريق إلى بغداد. في الدقائق القليلة التي تلت توقف السيارة وفتح الرجلين للصندوق، لم أفكر في شيء سوى

في بناتي الثلاث. توقعت أن يُصَوَّبَ مسدسٌ إلى رأسي في أي لحظة. ولأُطرد الخوف من قلبي رحت أستحضر صور صغاري في مخيلتي. جُرَرْتُ خارج الصندوق. لم تكن قدماي لتحملاني ما دفعهم إلى إسنادي إلى الجدار. أُحْكِمْتُ عصاَبَةً على عيني وقِيَدْتُ يداي إلى الخلف. سمعتهم ينادون شخصًا يدعى محمد ليأتي ويستلمني. لم يوجها إليّ كلمة واحدة وبقيت بدوري صامتة كالقطن. كنت أسمعهما وهما يحاولان سحب جسد الفتاة المتخشب من السيارة. توقعت لنفسى نهاية مشابهة. لكنني سمعت صوت الأبواب تصفق والمحرك ينطلق وعويل إطارات انطلقت بهما.

توقعت أن ينقض عليّ محمد في أي وقت، لكنه لم يفعل. كنت أشعر بدفع الشمس على جبيني، وكدت أرى وهجها البرتقالي يتخلل جفني المغمضين المعصوبين. الألم ينسل إلى أطرافي. لم أفلح في فك وثاقي رغم محاولاتي العديدة. لا بد أن ساعات طوَالًا قد مرت فقد أحسست بالعتمة تزيد والبرد ينفذ إلى عظامي. ولم يظهر محمد. كنت أغط في نوم متقطع بين الفينة والأخرى، أستيقظ مضطربة وأصابعي تروم باحثه عن يد كريم كعادتي. بعد خمس ساعات، أو هي عشر، جاء أحدهم وشدني بشعري كي أقف. محمد. دفعني من الخلف واقتادني إلى مكان ما. لا بد أنه قال شيئًا ما، لكنني لا أذكر كلمة واحدة مما قاله. نزع عصبة عيني ودفعني داخل زريبة مظلمة حالكة لم تكن أكثر من حفرة في الأرض تعلوها أخشاب وليس فيها سوى شقين صغيرين يسمحان بدخول الهواء. لا بد أنني غبت

عن الوعي فوراً فأنا لا أذكر شيئاً عما جرى بعد دخولي تلك الحفرة للمرة الأولى. مررنا جميعاً بتلك الحفرة يوم وصولنا وليوم واحد كان بمثابة كسر شوكتنا ولم تُرسل إليها ثانية إلا فيما ندر عندما تنتاب أحد الحراس نوبة من الجنون السادي فيدفع واحدة منا أسفلها، وإن لم يتكرر ذلك والله الحمد. ولأن الحفرة تفوح برائحة طين النهر عودنا أنفسنا أن نغمض أعيننا ونتخيل أنفسنا وقد اعتلينا طَوْفاً يعوم في مياه زرقاء كالزبرجد لا حدٍّ لمسراها. استدعى الأمر كثيراً من ضبط النفس، لكننا نجحنا. ولم تفلح الحفرة، كما زنرانتنا، أن تمس الروح فينا.

لم يكن الحراس كُثُر، أربعة أو خمسة فقط، وأعتقد أننا كنا السجناء الوحيدين في المبنى. لم يكن سجنًا بمعنى الكلمة، هذا ما أدركناه طوال الوقت، ولم نفاجأ عند إطلاق سراحنا عندما اكتشفنا أنه لم يكن سوى سرداب فيلا عادية في إحدى ضواحي بغداد. كان جميع الحرس ذكوراً، ما جلب المشاكل التي يمكنكم توقعها وبخاصة في السنوات الأولى بدليل أن خديجة الجميلة أنجبت طفلين. تشك بناتي في كذبي عندما أؤكد لهن أن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث لي. لم يكن العيب والخجل ما منعني من إخبارهن. فليست عائلتنا ممن يعيب، ولست أنا، بل لم أك يوماً من ذاك الصنف من النساء. ما يمنعني من الإفصاح منذ البداية هو أمر أشد تعقيداً من العيب والذنب وحتى الندم.

ليس هناك عود على بدء. كان عليّ أن أدرك هذا الأمر بعد انتهاء الاحتلال، وما سمي بالتحريك. لم يعد شيء إلى ما كان عليه. أصبح هناك نوع جديد من البشر يقطن البلاد، نوع جديد من الأطعمة، عادات جديدة، لغة جديدة. فجأة، تسربت النساء بأغطية سوداء تحمل الشؤم. يمكن لسنة واحدة أن تلتطخ الماضي وأن تدمر كل ما كُنّا - ماء رقراق وصحراء صافية - لتغرق الحياة في بقعة طين. ما من رجوع. سادت القذارة في كل مكان وكذلك الفساد. سماء اتشحت بالسحار، وبحار مظلمة. لم يبدُ أن أحداً ليكثرث، فالكل منهمك في التهام ما تيسر من الدولارات بأسرع ما يمكن. أصبنا بالجمود ونحن نرقب ما يجري من خلال زجاج غائم. خِلْنَا ما لحظناه من تغير مجرد أمر شخصي سببه انتزاع أمنا منا. لكن ما آلت إليه الكويت للأسف بدا وقد تعدى أمر غيابها. قلنا لأنفسنا إنها لو كانت هنا لعرفت كيف تتعامل مع الوضع الجديد وكيف تدع الحياة تسير على الرغم من تشابكات القدر. لسنوات عشر طوال وجدنا أنفسنا في موقعٍ نأينا فيه عمّا أَلْفناه، بالفعل *unheimlich*. فقدنا انتماءنا. لم يكن في وسعنا أكثر من أن ننظر إلى الوراء ونتوق إلى ما مضى دونما أمل في رجوع.

كان وجودها في الماضي يغلف حياتنا. من الناس من يمكنه أن يصنع حياة آمنة بالرغم من أشدّ الأحزان. كانت والدتنا تصنع لنا دمي من أعواد الثقاب والمناديل الورقية تشبه الأشباح تودعها سرائرها الصغيرة كي نلهو بها. وعندما كدّ والدانا في العمل في

العشرينيات من عمرهما فجمعا بعض المال، زمن النجاحات الأولى التي شهدتها مدينتا الغالية الصغيرة المزدهرة، كانت والدتي تنفق المال في السفر وشراء الأشياء الجميلة والاعتناء بحديقتهما وبالمنزل إدراكًا منها أن المال سينضب وأن الحاضر هو ما يجب أن ينفق المال من أجل الاستمتاع به. «المهم أن تكون خفيفًا كالهواء». تلك كانت مقولتها المفضلة. كانت حياتنا فيما سبق خفيفة كالهواء وكنا محظوظين كحظ من يربح ورقة سحب أو يانصيب. لكن المحظوظين مكروهون أينما حلّوا، ممقتون من دون شك. فهم يسوّدون الدنيا في وجه غيرهم. نحن من دفع الثمن غاليًا. هي من دفعت الثمن غاليًا ولم تكن تستحق ذلك.

في صندوق سيارة المرسيدس حيث أيقنت أنني مائة لا محالة، لم يفارقني التفكير في بناتي الثلاث. أضاء ذلك شيئًا في داخلي فاضمحل في قلبي الخوف من الموت رغم سطوته. ساستمر معهن طالما استمررن. وما إن تيقّنت أن أيا منا لن يقتل، إذ أصبح أسرى الحرب ورقة مقايضة ثمينة مقابل تخفيف العقوبات أو زيادة القروض، حتى أدركت ضرورة أن أغيّر ما بنفسني. لم يكن بوسعي أن أبقى على نورهن ليضيء أعماقي، نور بناتي، وحتى نور زوجي، فقد جعلني ذلك أكثر توقًا إلى العودة إلى المسكن الذي سكنت إليه - heimlich - الأمر الذي تيقنت من استحالة حدوثه في أي وقت قريب بعد عام طويل من الأسر. ولا يعني هذا أبدًا أنني توقفت عن التفكير فيهم فهذا محال. ما سمح لي بخلق مسكن أسكن إليه

في ذلك المعتقل المهين الذي أودعنا فيه، ذلك اليمبوس الذي يحكمه
عنف وإذلال يمارسه رجال نصحت أجسادهم بفقر ويأس تجلياً في
عيون تقدح شرراً وأظافر صفراء متييسة، هو الانتقال بفكري من
الحياة التي عرفتھا إلى الأشياء التي يوماً ملكتها. موكب من الأشياء
والأغراض يصل بيني وبين جسدي، بيني وبين من أحب. لا
أتوقعهم أن يستوعبوا قصدي بعد، أو يدركوا كيف تغدو أغراض
امتلكتها يوماً بلسماً يشفي جروح روحي: قطع الدانتيل الدقيقة
الصنع من بورانو، مجموعة الحلبي الفضية من بيشاور، لحاف ابنتي
الصغيرة القديم، جرار فخار من لبنان، كُتُب والدي المغبرة من
الهند، علبة صغيرة من ورق اللعب لُفَّت بورق رقيق فوشّي اللون
ساطع (لم أجرؤ يوماً على فُضِّه لجماله)، عقد أُمي من لؤلؤ ناعم
يسبح في ذهب أهدته إليّ قبل وفاتها.

مضى شهر على إطلاق سراحها. تجوب البيت كفقاعة تلامس
أغراضها. تنتقل من غرفة إلى أخرى، تفتح كل خزانة، كل درج،
تلمس الدانتيل المسجى على سطح طاولاتها المصنوعة من خشب
الماهوجني، فناجين الشاي الخزفية الرقيقة، والبطة المنحوتة من
الخشب. تفتح نسختها القديمة من مئة عام من العزلة، النسخة
التي اشترتها سنة مولدي، النسخة التي وجَدْتُ بين صفحاتها
صورة بالأبيض والأسود تظهرها ووالدي وهما يتبادلان قبلة. قبلة
لا يسمح عادة للآخرين بمشاهدتها، قبلة تختلف عن تلك التي
كثيراً ما رأيناها يتبادلانها. تلك كانت قبلة خصوصية، طيف قبلة.

لا أدري من التقطها، لربما مجرد عدسة والدي وقد رفع آلة التصوير على منصب. أراها ذات صباح وقد وجدت الصورة التي ضاعت منها، وأرقبها وهي تشهق إذ تسقط الصورة من بين صفحات الكتاب المصفرة. أشعر وكأنها تفسر أمرًا ما لا أستطيع اكتناؤه. منذ عودتها ونحن نشعر بالضيق أيضًا. يشتد عليّ الشعور بالذنب لمجرد تفكيري في نقل المشاعر إلى كلمات. لا بد أن تخوننا اللغة في بعض الأحيان. لقد غدونا أشباحًا وأطيافًا مرة أخرى كما كنا في السنوات الأولى التي تلت غيابها. منذئذ، شيدنا لأنفسنا حيوات صغيرة يملؤها الشعور بالذنب والندم. تُراها تدرك كلّ هذا؟ ها قد عدنا إلى جمودنا وعجزنا عن العمل وعن الكلام والتفكير. يتعثر والدنا محاولاً أن يسترد معنى لحياته الآن وقد عادت إليه رقيقة دربه. لكن الوقت لم يَأْزَفْ بعد كي تَقْدِرَ على مد يد العون إليه وما هو بقادر على مدها إليها أيضًا. دلفت من الطائرة وما بيدها غير كيس من الخيش في داخله رداء أبيض وأزرق، وصندل يوناني. تُفاجئنا بل تُدهِشُنا رؤيتها وهي تخطر في المنزل مرتدية ذاك الرداء ومنتعلة ذاك الصندل. لا نفهم ما يجري.

لست بالمتحدية. قد أَسْرَبِلُ بعنادي أكثر من أي وقت مضى. «المهم أن تكون خفيفًا كالهواء». هذا ما كنت أقوله على الدوام. هذا ما أردت أن تتعلمه بناتي. أن تغلغل في شقوق الحياة كالهواء، كشال ينثال من قلب خاتم من الذهب الوردي. أن تكون حاضراً وأن تجول في أزقة الماضي في نفس الوقت، أن تنتزع الذكريات والفرص

كما تقطف عناقيد العنب. شال، خاتم، عقد من اللؤلؤ. فيما عدا ذلك القلق المبهم الذي كان يملكني بعض الأحيان حتى في أفضل أوقاتي، كانت تتابني نوبات تهز الأعطاف مني لساعات طوال وأنا في الحمام، حيث يجذني كَرِيم فيجلبوهم عني ويهدئ من روعي. كيس الخيش، الصندل الجلدي، الرداء الأبيض والأزرق. أشياء لا تهزمني ولا تثبط عزيمتي بل على العكس، تحررني وتمنحني القوة كي أتذكر أننا جميعًا في نهاية المطاف مائتون. الموت ينتظرني كما ينتظر زوجي وكما ينتظر بناتي الجميلات. كلهن سيمنن واحدة تلو الأخرى. وحتى يحل القضاء يفضل أن نبقي في خفة الهواء. أرى بناتي الثلاث الآن كغزلان بعيون واسعة جزعة وأستشعر تلك القوة الفولاذية المتجذرة داخل كل منهن. علامة فارقة لا يمكن أن تمحى أو تزول. علامتي أنا.

تلك الأشياء. أجدها في الأدراج والخزائن والصناديق، على سطوح المناضد وتحت الأسرة، متعة المؤلف الغريب، وأسى يسحق القلب. أشياء أجدها الأقرب إليّ من جسدي نفسه، تعني لي رؤيتها بعد عقد كامل من الزمن أكثر مما تعنيه لي رؤية أسرتي. يجب أن نخوننا اللغة أحيانًا. أجول في فضاء مَسْكَن لم أستشعره هكذا بعد. ألمس كيفما اتفق أغراضًا هي التي أبقتني على قيد الحياة. كل شيء في مكانه وكأنني لم أغادر يومًا. تُرى من كان الحارس الأمين لدقة متناهية عمرها عقد من الزمن؟ أهى جنان أم غصون؟ لا يمكن أن يكون كَرِيم، فأقل ما يقال هو أن شروده الفريد ما كان ليسمح

بمثل هذه الدقة. هل هي ياسمين الصغيرة؟ لقد كانوا جميعًا بطريقة
أو أخرى القيمين على متحف ممتلكاتي. كأنهم أدركوا طوال الوقت
أنهم، ولو عن بعد، قد ساهموا ببطولة فريدة في إنقاذي وإبقائي
حية. لقد توقفت حياتهم، كحياتي، على الرغم من الزواج والدراسة
ووظائف ذات رواتب مجزية. تماسكت تلك الحياة المكسورة التي
جرّحها الأذى بفضل ما بذلوه من جهد للحفاظ على ما امتلكتُهُ
يومًا تلك الأم الغائبة. أجدني ألجأ إلى كل ذرة من ضبط النفس
كي لا أجتو على ركبتي وأخذ في العويل. إنّ أشدّ الذنوب مرارةً
هو ندم يَسْتَلُّ منك كل طاقة لديك. عندما أختار كتابًا قديمًا جفت
منه الأوراق فغدت بلون الزعفران، عندما أرى اسمي وتاريخًا
خطّه قلمي على الصفحة الأولى منذ سنين بعيدة، أدرك بيقين يشبه
الصفحة المدوية أن الزمن قد خاننا. كل الأشياء التي استحضرت
والتي هجعت تحت طبقة غفורה من جليد بقيت في أمان، محفوظة
للأبد. أما الكتب والدانتيل فهي تصفّر، والمزهريات والخزف
تتكسر أطرافها، والشالات حتى الكشميري الساحر منها يغزوها
العث بسهولة ويملؤها ثقبًا. ليس هناك عود على بدء.

من بين صفحات مئة عام من العزلة، طيف قبلة. شهر عسلنا،
وأنا وكريم على ظهر عوامة في كشمير. وتحت أقدامنا تترقرق مياه
زرقاء كزرقة عيني البائع الضرير الذي باعنا الشال. يلفني الأسى
عندما أفكر في أنه لن يرى قط جمال بلاده الأخاذ. يطلق ضحكة
وهو يناولني الشال كمن يسخر من شفقة لم أنطق بها. في داخلنا نهم

كبير لنرى العالم ونلتهمه برمته. نشكر السماء التي بدت قريبة جدًا
نكاد نلمسها على ما حُبينا به من عين وأذن وأنف وفم. على صخرة
مستديرة وملساء كالبيضة، أغيب وكريم في قبلة حارة وكأن العالم
ليتوقف من دونها. بعيون مغمضة وأفواه مفتوحة ندرك ما يعني
أن تكون في ريعان الشباب، لتؤمن بأن كل ما عليها ممكن. لم ألاحظ
ساعتئذ حامل آلة التصوير الذي كان كريم قد نصبه. بل نسيت
أمر تلك القبلة إلى أن أراني الصورة بعد مضي شهور عدة بل لربما
سنين. أودعتها برفق بين صفحات كتابي المفضل كي لا أنسى يومًا
في غمرة انشغالي بالعمل والأطفال وروتين الحياة ما وعدت به تلك
القبلة.

في سني الاعتقال العشر، زحرت قائمة أغراضي بالعديد من
الأشياء لكن صورة القبلة لم تكن واحدة منها. تسقط اليوم، شيئًا
منسيًا، بعد دهر من الزمن. في جلدنا الغض الناعم وفي بياض
الصخرة التي جلسنا عليها، أرى الرجل العجوز. أرى عينيه
الجلدية الغابرة. وعدٌ بحبٍ رغم الحروب ورغم أزمان لا تُستعاد.
طريقي للعودة.

telegram @yasmeeenbook



شكر وتقدير

الشكر أولاً لأندي سمارت، من دونه ما كان لهذا الكتاب أن يكون.

شكراً لمن دعمني في دار بلومزبري للنشر: لكاثي روني على تشجيعها غير المحدود، ولصوفيا بلاكويل التي غمرتني بكرم سخي تجاوز دورها كمسؤولة ترويج وإعلام، وكذلك إيريك جارنز لاهتمامها وحرصها الشديد طوال رحلة الكتاب. وأتقدم بشكري أيضاً إلى ميشيل وآلن، مسؤولي التحرير الاستثنائية والقارئة المثالية.

شكراً لليلى المالح، المترجمة الرائعة والصديقة الصبورة.

شكراً للجميع في منشورات تكوين على دعمهم، وخاصة للناسر والشاعر محمد العتّابي.

وشكراً لريم العلي على مساعدتها القيمة لي خلال عملية النشر باللغة العربية.

شكرًا لفرنسيس وآندي لينش لفتح أبواب شاتو كارينيان أمام أعضاء ورشة كتاب بوردو كل صيف منذ عام 2008. وشكرًا لنساء ورشة كتاب بوردو المبدعات: أ. مانيت أنساي، جين جرانت، فرنسيس لينش، مارثا بين، ناتاليا سركيسيان، لورا شالك، وليسافون تراب. كثيرة هي القصص التي غدت أفضل لفطنتهن واهتمامهن. وأزجي شكري الخاص لمانيت التي قرأت العمل مرارًا وتكرارًا عبر السنين، لعينيتها الصائبتين والحكيمتين، ولتشجيعها إياي.

شكرًا لجزيرة سيفنوس لأنها أبقت حيًا ما اندثر للأبد في معظم الأماكن الأخرى، ولاحتضانها إيانا. كثيرة هي الصفحات التي خُطت هناك.

لشقيقتي، وجدان ورائية (قارئتي الأولى) وفرح، شكري وامتناني في استيعاب رعونتي، ولإبقائي سعيدة في العمق رغم كل شيء.

شكرًا لوالديّ لترابطهما النادر، لتصالحهما الهني مع العالم، ولما منحاه إيانا من حب راسخ وحرية انطلاق بلا حدود. أهدي هذا الكتاب إليهما.

وأخيرًا وليس آخرًا، شكرًا لأديب، فمن دونه، لا شيء.

إشادات النقاد

«رؤية ثاقبة ولغة سردية غنائية كثيرًا ما يغدو فيها النثر شعرًا. مخيَّلة مكثَّفة في باكورة عمل كُتِب بحس جمالي فائق».

سيدني مورننج هيرالد *Sydney Morning Herald*

«من خلال عدسة سخية ومترعة بالتفاصيل، وبأناقة بادية، تتشابك قصص النقيب محتفية بالرغبة الحية التي تربطنا بالوطن -أيًا كان موقعه في العالم- وأيضًا بالماضي وبعضنا ببعض. هذه أكثر مجموعة قصصية أولى قرأتها منذ سنين تتسم بمثل هذا القدر من الابتكار والأصالة. ورغم أنها باكورة الإنتاج الأدبي للكاتبة فمن الجليّ أن الصوت الذي يأتينا هو صوت الكاتب المتمكن من قدرات راسخة».

أ. مانيت أنسي، مؤلفة رواية فينيجار هيل *Vinegar Hill*

«يستحضر نور الأشياء الخفي كلاً من نور وظلال الشرق الأوسط المعاصر بأسلوب جَزَلٍ وجليّ يذهلنا ليس بعنفه المفاجئ أو طروحاته الجدلية وإنما بقوة الرغبة الإنسانية الحتمية التي لا فكاك منها. تصبح الكويت ذاتها شخصيةً ملأى بالتناقضات في هذه المجموعة من القصص القصيرة والإضاءات الخاطفة المتعددة الأوجه. عمل رائع».

لوسي فيريس، مؤلفة رواية ذي لوست دوتر *The Lost Daughter*

«هذه اللحظات المتأملّة، صغيرة وجميلة ومرسومة بدقة بالغة، تستدعي عالمًا من الفقد والحنين والتذكُّر. ترفع مي النقيب الستار في باكورة أعمالها عن الحياة قبل وبعد، قديمها وجديدها، البريئة منها والحكيمة والماضية في تشكيلاتها. عمل جميل».

م. إيفيلينا غالانج مؤلفة رواية أنجل دي لا لونا آند ذي فيفث جلوريوس ميستري

Angel de la Luna and the Fifth Glorious Mystery

«العالم القديم والجديد. الصراع الدائر في الخليج بعد أن كان يسوده يومًا السلم والتفكير. الشرق والغرب، اللغة الانجليزية والعربية، الشعر الصادر من القلب، عين الصقر، تجتمع كل هذه العناصر لتنتج اللآلئ الملتزمة التي تشع فيما أبدعته مي النقيب من قصص قصيرة».

حنان الشيخ، مؤلفة رواية ألف ليلة وليلة

«تخيل كتابًا ككتب الأطفال التي تقفز فيها الصور المقصوصة من بعض أطرافها عندما تفتح صفحاته ويذهلك وتُؤثرها الساحر. هكذا، ومن دون أن يُقَصَّ ورق، تسحرك المجموعة القصصية الأولى لكاتبته مي النقيب. قد لا يكون القراء على خطأ إن اعتقدوا أن النقيب ترتبط بصلة قرى بعيدة مع و. ج. سيبالد وجورج سوندرز وباري يورغراو. هذه قصص بل هدايا لُفَّتْ بأناقة. افتحها ببطء واستمتع بجمال وهشاشة حياة مُعاشة».

إيليوت كوللا، مؤلف رواية محقق بغداد

«تمثل مجموعة نور الأشياء الخفي القصصية بزوغ مؤلفة متمكنة من حِرَفَتِها ومن قدرتها على منح شخصيات عملها صوتهم الخاص بهم الذي يمكنهم من التعبير عن عواطفهم وتطلعاتهم».

نيو إنترناشيونالست *New Internationalist*

«يرفع نور الأشياء الخفي مي النقيب إلى مرتبة الروائيين الشباب الواعدين: فهي تجلّي كاتبةً اكتملت قدراتها الكتابية ويلوح أمامها مستقبل مشرق».

سور لا تير *Sur La Terre*

«تستحضر هذه القصص المؤثرة إعادة تفكير معمقة فيما "يعرفه" القارئ عن "الشرق الأوسط". ولهذا السبب وحده تستحق هذه الحكايات أن تُقرأ على أوسع نطاق».

ريفيو أوف مدل إيست ستديز *Review of Middle East Studies*

عن المؤلفَة

ولدت مي النقيب في الكويت وأمضت السنوات الست الأولى من حياتها في لندن وإدنبه وسانت لويس، ميسوري. حصلت على شهادة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي من جامعة براون، ودرّست أدب ما بعد الكولونيالية والأدب المقارن في جامعة الكويت لمدة عشرين عامًا. فازت مجموعة *نور الأشياء/الخفي القصصية*، وهي باكورة أعمالها، بجائزة «أفضل كتاب أول» في مهرجان إدنبه الدولي للكتاب عام 2014. وفي عام 2022 صدرت روايتها *An Unlasting Home* عن مارينار بوكس (Mariner Books) في الولايات المتحدة. ظهرت أعمالها في منشورات عدة منها:

Ninth Letter, The First Line, After the Pause, Rowayat, The Markaz Review, World Literature Today.

مي النقيب تعيش في الكويت.